بحوث ومقالات

العربية لغة العلم والتكنولوجيا

للدكتور ابراهيم مدكور

ربما ظن لأول وهلة أن هذا العنوان دعوى ، وكل دعوى لم يقم عليها دليل فأهلها أدعياء . والواقع أن هذا الدليل قد قام فى الماضى والحاضر ، فكانت العربية قديما لغة العلم يوم أن لم تكن له لغة سواها ، وها هى ذى تؤدى اليوم الرسالة نفسها ، وإن بدا فيها قصور ما ، فذلك عيب الناطقين بها ، ولاتسأل هى عنه فى شىء . وتعريب التعليم الجامعى من القضايا المثارة ، والمثارة بعنف فى العشرينات الأخيرة . ونخطىء إن زعمنا أننا لم نخط فى هذا السبيل خطوات وأستطيع أن أقرر أنها خطوات فسيحة ، إذا ماقيست بالزمن الذى قطعت فيه .

ويكفى أن أشير إلى جامعة الكويت الحديثة النشأة ، فقد أفادت من تجربة الجامعات العربية ودرست العلوم الإنسانية كلها بلسان عربى مبين ، من تاريخ وجغرافيا ، وتجارة واقتصاد ، وحقوق وتشريع ، وعلم نفس وتربية ، واجتماع وفلسفة . فلم نتردد فى ذلك ، كما صنعت جامعات عربية أخرى ، بين العربية وبعض اللغات الأجنبية من فرنسية أو إنجليزية ، وأقامت الدليل العملى على أن لغتنا كفيلة بذلك على خير وجه . وقدر لها أن تحظى بزمرة صالحة من الأساتذة الأجلاء ذوى الخبرة الطويلة ، فحملوا الرسالة وأدوا الأمانة أصدق أداء . وليس فى هذه الجامعة إلا كلية واحدة تدرس موادها باللغة الإنجليزية وهى : كلية العلوم . وتعد العدة لإنشاء كليتين إحداهما للطب والأخرى للهندسة ، وأتوقع أن يوضع سؤال لغة التدريس موضع البحث . ويقينى أن هذه الكليات الثلاث سائرة نحو ماانتهت إليه الدراسات الإنسانية .

وكم تذكرنى قضية تعريب التعليم بمشكلة أخرى أثيرت فى العشرينات الأولى من هذا القرن ، وهى مشكلة الثنائية بين العامية والفصحى ، والرغبة فى التخلص منها . فذهب فريق إلى الأخذ بالعامية ليسرها وانتشارها ، ويظهر أنه نظر إلى

(*) كلمة ألقيت بجامعة الكويت فى الربيع الماضى .

الموضوع من زاويته الخاصة ، ونسى أن هناك عاميات لاعامية واحدة ، فكيف يجمعها ويؤلف بينها ؟ ورأى فريق آخر ألابد من الاستمساك بالفصحى ، تقديسا للماضى ، وحرصا على جمع العروبة على بساط واحد ، وإبقاء على تراث من الخرق تبديده دون التأكد من بديل يحل محله . وعندى أن هذا الحوار وهذه الخصومة لم تخل من خير وبركة ، فقد قادت إلى فصحى جديدة هينة لينة ، تعنى بالجلاء والوضوح . وتنفر من الشاذ والغريب ، وتمقت الصنعة اللفظية ، وتأخذ عن العامية كلما كان اللفظ عربى الأصل . وبذا ضاقت مسافة الخلف بين الطرفين ، وأصبحنا لا نحس بتلك الثنائية إحساسنا بها بالأمس . وتوفرت لدينا فصحى جديدة كتبت بلغة العصر وروحه ، وسلمت من العبارات الضخمة والجمل الطنانة التى شاعت فى أخريات القرن الماضى وأوائل هذا القرن . ويقينى أن نشر التعليم والثقافة الشعبية ، والنهوض بوسائل الإعلام من صحافة وإذاعة سيقضى ذلك كله بتاتا على هذه المشكلة . وسبق أن لاحظت أن صوت أم كلثوم وغناءها قربا المسافة بين لغة تونس ولغة القاهرة ، وألاحظ اليوم أن الإذاعة الكويتية قربت كثيرا لهجة أهل الكويت من لهجة القاهريين . ومن العبث أن نعود مرة أخرى إلى الحديث عن هذه الثنائية ، فقد انقضى زمنها ، أصبحت غير ذات موضوع .

وهناك عبث آخر شبيه بهذا ، ويحمل رايته بعض إخواننا اللبنانيين الذين يتحدثون عما سموه اللغة الأساسية ، وهى فى تقديرهم مزيج من العامية والفصحى ، ولست أدرى فى أى معمل أو صيدلية يتم هذا التركيب . وهل من سبيل لأن تصنع لغة ما صنعا ، وأن تفرض على الناس فرضا؟ إن الواقع والتاريخ يشهدان باستحالة ذلك ، وإن قوانين المجتمع تعارض هذا وترفضه . وهل فات أصحاب هذه « الروشتة » أن هذا المزج يتم عفوا وبطريقة طبيعية وفى لغتنا الدارجة عامية وعربية ، بل ألفاظ وتعبيرات أجنبية أيضا . والذى لاشك فيه أن هذه اللغة الدارجة أصبحت اليوم أسمى مما كانت عليه فى أوائل هذا القرن ، وتضيق مسافة الخلف بينها وبين الفصحى باطراد ، وتلك سنة التطور اللغوى فى كل المجتمعات .

وأملى كبير فى أن يقطع تعريب التعليم الجامعى الطريق على هذا النحو ، وقد قطع فيه شوطا غير قصير . والمهم أن يتمكن العلماء من لغتهم القومية ، وإذا ما أجادوها ، ففى وسعهم أن يؤدوا بها كل ما يصادفون من معنى ، وكل مايجول فى أذهانهم من فكرة .

للعلم لغة يؤدى بها ، ولاحياة له بدونها ، بها يشرح ويعلم ، وبها يكتب وينشر بين الناس . وتحيا اللغة العلمية بحياة العلم نفسه ، وتسير بسيره ، ولاسبيل لأن توجد فى

مجتمع لايغذيها ولاينميها : والنهوض العلمى مقترن دائما بالنهوض الحضارى ، هكذا كان ، وهكذا يكون . فالعلم اليونانى وليد نهضة أثينا فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ، والعلم الإسلامى ثمرة من ثمار العصر العباسى الأول ، وهو قمة الحضارة الإسلامية . والعلوم الأوربية امتداد للنهضة الحديثة ، وصدى لما قام به الأوربيون من كشوف ورحلات . وحركاتنا العلمية المعاصرة أثر من آثار يقظة القرن الماضى ، ونتيجة من نتائج ذلك الوعى الذى ينشد النهوض والتقدم .

ولغة العلم صنيع أهله ، فالعالم الذى يكشف الظاهرة أو يخترع الفكرة هو وحده الذى يحس بها ، ويحسن التعبير عنها ، ويحكم أداءها ، ومن الخطأ أن نفرض عليه لفظا ، أو نلزمه بصيغة معينة . وكلما كان متمكنا من لغته القومية ، استطاع أن يختار منها اللفظ الملائم والصيغة الدقيقة . ولغة العلم فى تطور مستمر شبيه بتطور اللغة الوطنية نفسها ، تتقدم بتقدم البحث ، وتنمو بنمو المادة العلمية .. وتاريخ علم يكاد يتلخص فى تاريخ مصطلحاته ، ولكل عالم قدر من الألفاظ ابتكره والتزم به ، وكثيرا مايرجع خلاف العلماء إلى اختلاف على مدلول ألفاظ تباينوا فى فهمها وشرح المقصود منها . وهناك مصطلحات تبدو قلقة عند نشأتها ، ثم لاتلبث أن تركز وتستقر ، وأخرى تموت فى مهدها ولا يقدر لها حياة .

ومن اليسير توضيح هذه القضايا فى ضوء الماضى والحاضر ، فلم تنشأ لغة العلم فى الإسلام دفعة واحدة ، بل نمت على مر الزمن . بذرت بذورها فى القرن الأول الهجرى ، وفيه ظهرت مصطلحات فى الفقه والتشريع ، والتفسير والحديث ، والفرق وعلم الكلام . وتلتها فى القرن الثانى مصطلحات فى الأدب واللغة ، فى التاريخ والسياسة ، فى الأخلاق والاجتماع . فى الطب والكيمياء ، فى الفلك والهندسة . ولم تر هـذه العلوم غضاضة فى أن يأخذ بعضها عن بعض ، وأن يستعين لاحقها بسابقها ، وهناك ألفاظ استعملت فى عدة علوم ، ولكن بمدلولات مختلفة .

وفى القرن الثالث الهجرى استكملت العلوم الإسلامية لغتها وانتشرت هذه اللغة فى العالم الإسـلامى بأسره ، فرددت فى قرطبة والقيروان ، كما رددت فى الفسطاط ودمشق ، وأخذ بها فى البصرة والكوفة ، كما أخذ بها فى الرى وأصبهان ، وفى القرن الرابع الهجرى أصبحنا أمام علم إسلامى مكتمل له آراؤه ونظرياته ، وله لغته ومصطلحاته . وقد سجلت هذه المصطلحات فى مفردات ومعاجم مختلفة ، مثل : « كتاب الحروف للفارابى » ، « ومفاتيح العلوم للخوارزمى » منذ عهد مبكر ، وتلاهما

كتاب التعريفات للجرجانى » ، « وكشاف اصطلاحات العلوم للتهانوى » . واستطاعت هذه المصطلحات أن تغذى لغات أخرى ، فانتقل قدر منها إلى الفارسية والتركية ، واستمسك ببعضها من ترجموا عن العربية إلى اللاتينية ، وامتد صداها إلى بعض اللغات الأوربية الحديثة .

واستعان المسلمون على وضع هذه المصطلحات بوسيلتين هامتين : أولاهما النقل ، وهو منهج مألوف فى اللغات جميعها ، فتنقل الكلمة من مدلولها الأصلى إلى مدلول جديد له به صلة ، وتستقر فيه . بحيث تصبح حقيقة عرفية ، وقد ينسى المدلول القديم ، ويحل محله المدلول الجديد وحده . والأمثلة على ذلك كثيرة ، نذكر من بينها الصلاة والصيام والزكاة فى الفقه ، والتمييز والاستثناء فى النحو ، والجامد والمشتق فى علم الصرف .

والفرق بين الدلالة اللفظية والدلالة الاصطلاحية لهذه الكلمات واضح ومعروف . والوسيلة الثانية من وسائل تكوين المصطلح العلمى هى الوضع ، ويراد به خلق لفظ جديد لأداء معنى خاص بالنحت والاختراع أو التركيب والجمع ، وأوضح صوره الاشتقاق . والعربية ولاشك لغة اشتقاقية ، يمكن أن يؤخذ فيها من مادة واحدة عدة ألفاظ لدلالات مختلفة ، كالفاعلية والمفعولية والصفة المشبهة وصيغة المبالغة ، واسم الزمان والمكان واسم الآلة والمصدر الصناعى . واستطاعت الصيغة الأخيرة أن تسعفنا فى مواقف متعددة ، وبخاصة فيما يتعلق بالدلالة على المذاهب والنظريات ، كالقدرية والجبرية ، والمادية والمثالية .

لم يقف علماء العربية عند النقل والوضع ، بل سلكوا سبيل التعريب عند الحاجة ، فعربوا عن الفارسية والهندية ، كما عربوا عن السريانية واليونانية . والأمثلة على ذلك كثيرة أيضا ، واستطاع الخوارزمى أن يقدم منها فى كتابه « مفاتيح العلوم » نماذج لابأس بها . ويمكن أن يلاحظ بوجه عام أن الفارسية كثيرة الورود فى المستحدثات الحضارية والنظم الإدارية ، مثل « الرزمانة » وهى مسك حساب الخراج ، والدفتر والفهرست من مستلزمات الديوان ، والبريد الذى كان فى الأصل دابة تحمل الرسائل ثم أصبح الآن قطارا أو طيارة ، والدستور الذى نسى معناه القديم وأصبح لايراد به إلا دلالته القانونية الخاصة . ويلاحظ أيضا أن الألفاظ اليونانية والسريانية كثيرة الورود فى العلوم والفلسفة . فعن اليونانية أخذ لفظ « الناموس » و « السفسطة » فى الفلسفة ، والأرثماطيقى» و «الأسطرلاب» فى الرياضة والفلك ، و «القولون» وهو المعى الغليظ ، و«الترياق» وهو دواء السم فى الطب . وعن السريانية أخذ «الكيان» وهو الطبيعة فى الفلسفة ، و« البحران » فى الطب

وللعلوم الإسلامية تاريخ طويل يشرح نشأتها وتطورها ، ويبين مناهجها ونظرياتها ويشير إلى كبار رجالها وما وضعوا فيها من بحوث ومؤلفات . ولا سبيل لأن نستعرضها هنا ، ونكتفى بأن نقف قليلا عند علمين منها كان لهما شأنهما فى القرون الوسطى لدى العرب واللاتين على السواء، وهما : الكيمياء والفلك .

وقد عنى المسلمون بالكيمياء عناية خاصة منذ عهد مبكر ، فشغل بها فى أخريات القرن الأول الهجرى خالد بن يزيد ، وهو من بيت الملك . وتفرغ لها فى القرن الثانى جابر ابن حيان ، وكون مدرسة خاصة عرفت فى الشرق والغرب . وقامت بتجارب عالجت فيها بعض الفلزات والقاويات ، وفرقت بين الترشيح والتقطير ، ووصلت إلى البلورة والتصعيد ، واستخدمت بعض الآلات كالكور والأنبيق ، والميزان ، وسمى علم الكيمياء جملة « علم الميزان» . وكان لهذه المدرسة شأن وتأثير على البحث الكيميائى لدى المسيحيين فى القرون الوسطى والتاريخ الحديث .

وفى أخريات القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجرى توسع أبو بكر الرازى فى الدراسات الكيميائية، وصبغها بصبغة علمية دقيقة وهو دون نزاع أكبر كيميائى فى الإسلام، عرف كيف يربط الكيمياء بالطب ، واستطاع أن يجعلها علما تجريبيا دقيقا، فسبق بذلك التاريخ الحديث . عنى بتحليل العقاقير وهى عنده متنوعة : نباتية وحيوانية ، أحجار وأملاح غازية ومعدنية، ووصف الآلات المستخدمة فى الكيمياء وصفا دقيقا ، كالمنفاخ، والبوتقة والقدح والقنينة. وقام بتجارب شبيهة بالتجارب الحديثة فى التقطير والتصعيد ، فى التكليس والاحتراق ،وحضر بعض الأحماض بالتسخين كما حضر الكبريت وبعض الكحول بالتقطير ؛

ثم تلاه كيميائيون إسلاميون آخرون ، ويطول بنا الحديث إن وقفنا عندهم . والمهم أن هؤلاء الكيميائيين كانت لهم مصطلحاتهم الكيميائية ، فعرفوا الكبريت والزرنيخ ، والزئبق والنوشادر ، والراتنج والمغنيسيا ، والمغناطيس والأسفيداج . ولم يجدوا غضاضة مطلقا فى أن يستعملوا بعض الكلمات الأجنبية المأخوذة عن الفارسية ، أو عن السريانية واليونانية . ولا تزال هذه مستعملة بيننا ، وأخذ اللاتين والأوربيون منها قدرا أقروه واحتفظوا به .

أما الفلك فهو أحد علوم ثلاثة عنى بها المسلمون عناية خاصة ، وهى : الطب ، والكيمياء ، والفلك . ولا شك فى أنه كان للعرب فى الجاهلية بعض ملاحظات فلكية، تتصل بالأنواء والعواصف ، وتقيس الزمن بطلوع الشمس وغروبها . ونرجح أنهم أفادوا شيئا من فلك البابليين والكلدانيين . وقد بدأت دراسة الفلك الإسلامى فى أوائل العهد العباسى، ولعلها كانت مرتبطة بالعرافة والتنجيم . وأولع بها خاصة رجلان من كبار الخلفاء العباسيين أولهما : المنصور الذى اتجه نحو الفلك الهندى ودعا إلى ترجمة كتاب «السندهند» وكلف بذلك إبراهيم الفزارى أكبر الفلكيين فى عصره .

وثانيهما : المأمون الذى اتجه نحو الفلك اليونانى ، وشجع على ترجمة كتبه ، وله أبحاث فلكية متعددة ، من أهمها : محاولته قياس محيط الأرض وقد وصل فيه إلى نتائج مدهشة بالنسبة لعصره .

وفى الإسلام فلكيون كثيرون ، تعاصروا وتنافسوا ، وتلاحقوا جيلا بعد جيل ، وكانت لهم أعمال فلكية عرفت بهم . فظهر منهم فى القرن الثالث الهجرى : الكندى وأبو معشر البلخى ، وفى القرن الرابع : البتانى وابن يونس المصرى ، وفى القرن الخامس ابن الهيثم ، والبيرونى : وفى القرن السادس ابن ماجة والبتروجى ، وفى القرن السابع الطوسى والقزوينى .

وأقام المسلمون ما أقاموا من مراصد ، ومن أشهرها : مرصد بغداد ، ومرصد الحاكم بالمقطم ومرصد المراغة وزودوها بآلات رصد خاصة ، فاستخدموا الأسطرلاب وذات الأوتار ، ودورة الرياح والبوصلة . واستطاعوا أن يتنبأوا فى دقة بالكسوف والخسوف ، ورصدوا الاعتدالين الربيعى والخريفى ، وضبطوا حساب السنة الشمسية بما لا يقل عما انتهى إليه العلم اليوم إلا بنحو دقيقة وثلاث وعشرين ثانية ، وقدروا محيط الأرض عن طريق قياس مساحة كبيرة بما لا يبعد عن الواقع كثيرا . وهنا أيضا عولوا فى لغتهم الفلكية على الألفاظ العربية أولا ، فإن لم تف بحاجتهم استعاروا بعض المصطلحات والألفاظ الأجنبية . وكان للفلك العربى شأن فى العالم اللاتينى ، قدره اللاتين حق قدره وأعجبوا برجاله ، ورغبوا فيه وترجموا معظم كتبه .

وفى ضوء ما تقدم نستطيع أن نقرر أنه كان للعرب علوم أولعوا بها ، وأنه ازدهرت لديهم حركة علمية لها منزلتها بين الحركات العلمية العالمية الكبرى ، ومما يؤسف له أن هذه الحركة لم تدرس بعد الدرس اللائق بها ، ولم تجمع مصادرها ، ولم تخرج إلى النور فى صورة مقبولة . فكان فى القرون الوسطى علم عربى مزدهر ، تعهده المسلمون ، وغذوه طوال عدة قرون . وأنشأوا له لغة خاصة به ، وقامت هذه اللغة على أساس متين من العربية ، وما أخذته عن اللغات الأخرى تبنته ، وأصبح جزءا منها . ويمكننا أن نقرر أن هذه اللغة كانت فى ذلك التاريخ لغة العلم الوحيدة فى العالم بأسره ، فيما بين القرنين الثامن والثالث عشر الميلادى . ثم انضمت إليها اللاتينية بعد ذلك ، أخذت عن العربية ، وأفادت منها . فترجم اللاتين قدرا من كيمياء جابر بن حيان وأبى بكر الرازى ، وعنوا برياضيات الخوارزمى وبصريات ابن الهيثم ، وفلك الميتانى والبتروجى وطب ابن زهر ، وعلى بن رضوان . شغلوا بالترجمة عن العربية نحو قرنين ، الثانى عشر والثالث عشر الميلادى ، واستعاروا بعض الألفاظ العربية كما استعار المسلمون من قبل بعض الألفاظ الأجنبية . ولا تزال الألفاظ العربية المستعارة باقية إلى اليوم فى اللاتينية ومن بعدها فى بعض اللغات الأوربية المعاصرة

أدت العربية رسالتها نحو العلم فى الماضى ، ولا يعز عليها أن تؤديها فى الحاضر ، وهى متهيئة لذلك تهيؤ اللغات العالمية الكبرى .

* * *

وشاء القدر أن تركد حركة البحث العلمى فى العالم العربى فيما بعد القرن الثالث عشر الميلادى ، وبقيت على ذلك نحو خمسة قرون ولم تستيقظ إلا فى أخريات القرن الثامن عشر وأوائل القرن الذى تلاه ، استيقظت فى مصر أولا بدافع من الحملة الفرنسية ، وبغذاء لم يستمر طويلا فى عهد محمد على ومن جاء بعده من خلفائه الأقربين . فأنشئت فى عهده مدارس للطب والصيدلة والهندسة ، ودرست فيها هذه العلوم بالفرنسية ومعها ترجمتها العربية ، ولا تزال بين أيدينا صور من هذه الترجمات التى حاولت أن تحل العربية محل الفرنسية . ولو قدر لهذه المدارس أن تبقى وتستمر فى أداء رسالتها لكان لتاريخ الحركة العلمية المصرية الحديثة شأن آخر . ولا يكاد يختلف الأمر فى الأقطار العربية الأخرى عن ذلك كثيراً اللهم إلا فى لبنان الذى أنشىء فيه منذ أكثر من مائة سنة جامعتان ، إحداهما أمريكية والأخرى يسوعية ، وكانت لهما معاً شبه رسالة دينية ، وحملا باطراد الطابع العربى ، ولم يعبرا فى الحقيقة عن علم عربى .

ولم تبدأ الحركة العلمية فى العالم العربى إلا فى القرن العشرين . فأنشئت الجامعة المصرية القديمة فى أوله ، وهى مدينة بنصيب ملحوظ لحركة الاستشراق . وتلتها فى مصر جامعات متعددة ، يبلغ عددها الآن سبعاً ، وازديادها مطرد . وتدرس فيها العلوم المختلفة ، من طب وصيدلة ، وكيمياء ، وفسيولوجيا ، نبات وحيوان ، جيولوجيا وزراعة ، رياضة وفلك : ويقدم قدر من هذه المواد حالياً باللغة العربية ولا يزال قدر آخر يدرس باللغة الإنجليزية . وعلى غرار مصر سارت الأقطار العربية الأخرى . ولكل بلد عربى تقريباً جامعته أو جامعاته الخاصة ، وتدريس العلوم فيها على نحو ما يجرى فى مصر ، فيعطى فى الأغلب بالإنجليزية أو الفرنسية ، اللهم إلا جامعة دمشق التى أخذت نفسها منذ عهد بعيد بتدريس الطب باللغة العربية .

ومن هنا نشأت مشكلة تعريب التعليم الجامعى ، ولها ما يحمل عليها ، لأنه لا سبيل لقيام حركة علمية حقيقية فى بلد إلا إن اعتمدت على اللغة الوطنية ، وبودنا أن يعرب العلم والتكنولوجيا فى الدرس والمحاضرة ، فى قاعة البحث والمعمل ، فى المصنع والمزرعة . وقد خطونا فى ذلك خطوات ملحوظة أسهم فيها الجامعيون بما ألفوا من كتب ، وبما ألقوا من دروس ، وقد عربت بالفعل بعض المواد فى كليات العلوم والهندسة ، وربما كان الأمر أيسر فى كليات الزراعة والطب البيطرى . وتبذل جهود فى سبيل تعريب التعليم فى كليات الطب والصيدلة ، والموقف هنا دون نزاع أدق وأعسر :

وإلى جانب هذه الجهود الجامعية لتعريب التعليم ، ينبغى أن نشير إلى ما تضطلع به

هيئات أخرى فى هذا المضمار . فأنشئت المجامع اللغوية والعلمية منذ نصف قرن أو يزيد ، ورأت ضرورة مسايرة العربية لمقتضيات العلم ومتطلبات الحضارة، وأسهمت فى ذلك ما وسعها . ويبدو أن مجمع القاهرة قد منح مشكلة اللغة العلمية عناية خاصة ، وشغل بها إلى درجة لعلها لم تتوفر لدي مجمع آخر ، فوقف عليها عدة لجان ، وتوسع فى النقل والوضع . ويسر قواعدهما . وأقر التعريب كما أقره الأقدمون ، ونظمه وأحاطه بشيء من القيود والضوابط ، فاستساغه بوجه خاص فى المصطلحات ذات الطابع الدولى ، وفى أسماء أعلام الجنس ، وفى الألفاظ التى تعبر عن فصائل من النبات أو الحيوان. وأقر عشرات الآلاف من المصطلحات وأخرجها فى مجموعات معينة ، أو فى بعض المعجمات المتخصصة . ويسعده أن يلاحظ أن العلماء والمتخصصين يقبلون على مقرراته ، ويستعينون بها فيما يكتبون ويؤلفون .

وفى العالم العربى أيضاً هيئات علمية متعددة ، من جمعيات واتحادات ، ومراكز بحث ومجالس علمية ، بل عمدت بلاد إلى إنشاء وزارات للبحث العلمى والتكنولوجيا . وتعنى هذه الهيئات كلها بالشكل والموضوع ، فتحاول أن تدفع البحث العلمى العربى دفعة قوية ، وترى أن من أهم وسائل هذا الدفع أن تطاوع اللغة العربية الباحثين والدارسين ، وأن تمكنهم من أن يعبروا عن كل مايدرسون ويكشفون . ولا بد للغة العلمية من أن تستقر وتتمكن ، وأن تنتشر وتتداول ، وأن يتلاقى عندها الباحثون العرب أجمعون. لهذا أخذت الهيئات العلمية نفسها بنشر صحف ومجلات تقدم بحوثها فى لغة عربية سهلة ، ونظمت ما استطاعت الندوات والمؤتمرات التى تجمع المتخصصين فى صعيد واحد ، وتربط جهودهم بعضها ببعض ، إن فى البحث والدرس ، أو فى تكوين لغة العلم ومصطلحاته. وأصبح لدينا من هذا كله زاد كفيل بأن يسد الحاجة ، وبأن يسمح بمتابعة السير .

* * *

فبرهنت العربية إذن فى الماضى والحاضر على أنها ليست أقل استعدادا من اللغات العالمية الكبرى لمواجهة متطلبات العلوم والتكنولوجيا . أدت هذه الرسالة بالأمس فى أمانة ، يوم أن كان أبناؤها حريصين على أدائها . وعجزت عن أدائها حينا يوم أن انصرف العرب عن ذلك . ولا شك فى أنهم راغبون اليوم كل الرغبة فى استعادة مجدهم ، والإسهام بنصيبهم فى نهضة العلم وتقدمه ؛ ومتى تمكن الباحث والعالم من لغته وجد فيها وفاء لأداء كل ما يجول بخاطره . وتعريب التعليم الجامعى يستلزم لا محالة أن يعرّب الباحثون والعلماء أولا ، فيدرسوا لغتهم درساً كافياً يمكنهم من أن يكتبوا فيها ويتحدثوا بها فى يسر وطلاقة . ومنهم من يؤثر التأليف بالإنجليزية أو الفرنسية ، لأن عربيته لا تطاوعه على أن يكتب على نحو ما يحب ويهوى ؛ ويوم أن تتوفر فى اللغة الوطنية مكتبة شاملة

فى مادة من المواد ، يحس أهلها بأنهم ملكوا هذه المادة وأحسنوا التصرف فيها ، وهذا شرط آخر من شرائط تعريب التعليم الجامعى.

على أننا أصبحنا نعيش فى عصر لا يستطيع باحث أو دارس أن يقنع فيه باللغة الوطنية وحدها ، بل لا بد له أن يضيف إليها لغة أو أكثر من اللغات الأجنبية . وتستمسك الجامعات الكبرى بذلك ، وتطبقه فى دقة . وقد كان العلم ولا يزال لا وطن له ،والحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أنى وجدها . ويعول العلماء فى لقاءآتهم الدورية على أن يتبادلوا فيما بينهم ما كشفوه وما اهتدوا إليه ، وأن يربطوا خيوط البحث العلمى بعضها ببعض ؛ وبين العرب علماء يدون لغتين أجنبيتين أو أكثر ، وعلى أمثال هؤلاء يعول فى دعم حركة التعريب والنهوض بها . بيد أنه يجدر بنا أن نصارح أنفسنا بما نحس به من نقص ، إن كنا نريد تداركه . ولا أظننا نختلف فى أنا ننزلج فى منحدر بغيض فى تعليم اللغات وتعلمها ، وأصبحت الغالبية العظمى من الشباب لا تجيد العربية ولا أية لغة أجنبية . لنبدأ من هنا إذن إن كنا نريد إصلاحاً على أساس متين ، ولا سبيل بدونه ، لا إلى تعليم ولا إلى تعريب .

ابراهيم مدكور

رئيس المجمع

من الدراسات اللغوية
فى بعض الآيات القرآنية

للدكتور الشيخ عبد الرحمن تاج

بسم الله الرحمن الرحيم :

آية من القرآن الكريم قد يقنع الإنسان فى التلاوة العابرة بما يلوح له فيها من معنى إجمالى ، يمكن أن يجرى سهلا مع بعض الأحكام العامة ، التى رسخت فى النفوس ، واستقرت فى الأذهان ، وكانت من القضايا البدهية التى يعرفها الخاصة والمثقفون ، ولا يجهلها العامة ولا الأميون ، من مثل أنه لايستوى العالم والجاهل ، والعامل والخامل ، كما لا يستوى الطيب والخبيث ، والجيد والردئ ، وكما لايستوى المؤمن والكافر ، ولا البر والفاجر

لكن القارئ المتبصر ، الذى يقرأ هذه الآية بتمهل وتدبر ، لابد — فى غالب الأمر — أن يستوقفه منها ما اشتملت عليه عباراتها وجملها من إجمال وتفصيل وإطلاق وتقييد وما إلى ذلك ، مما قضت حكمة الله تعالى أن يقيم عليه آيات كتابه العزيز .

فهذا القارئ المتبصر يقف عند ذلك ليبحث ويفكر ، ويتأمل ويتفهم ، يجمع لذلك وعيه ، ويعمل فيه فكره ، كى يقف على شىء من السر فى تصريف القول على الوجه الذى وردت به الآية الكريمة .

ولعله فى ذلك تدركه عناية الله تعالى ؛ فيدرك الغاية أو يقع قريبا منها .

هذه الآية هى التى جعلناها موضوع الدراسة فى هذا البحث وهى قوله تعالى : «لا يَسْتَوى القَاعِدُونَ مِنَ المؤْمِنِينَ غَيْرِ أُولِى الضَّرَرِ والمجاهِدُون فى سَبِيلِ اللهِ بأَموالهم وأَنفسهم ، فَضَّلَ اللهُ المجَاهِدِينَ بأَموالهم وأَنْفُسِهم عَلَى القَاعِدِينَ دَرَجَةً ، وكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الحُسْنى . وفَضَّلَ اللهُ

المجاهِدِينَ عَلَى القَـاعِدِينَ أَجرًا عَظِيمًا ؛ دَرَجاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً ورَحْمَةً ، وكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا » . « النساء ٩٥ » .

قد ذكر المجاهدون فى هذه الآية ثلاث مرات بعبارات ثلاث متفاوتة ، بعضها أطول من بعض .

١ ــ ففى العبارة الأولى قيل : « والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم » .

٢ ــ وفى العبارة الثانية قيل : « فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة » من غير كلمة فى سبيل الله .

٣ ــ وفى العبارة الثالثة قيل : « وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما » مقتصرًا فيها على كلمة « المجاهدين » فلم تذكر معها صلة « فى سبيل الله » ولا صلة « الأموال والأنفس » .

فهل هذه المغايرة فى التعبير لها تأثير فى المراد بالمجاهدين فى تلك العبارات الثلاث ؟

والجواب : أنه لاتأثير لها فى ذلك ، فإن المراد ؛ المجاهدون فى سبيل الله بالأموال والأنفس فى كل من العبارات الثلاث ؛ غير أنه لكراهة التكرار مع العلم بالمحذوف والتصريح به أولا ، اقتصرت العبارة فى المرتين : الثانية والثالثة على الوجه الذى وردت به الآية .

وقد ذكر « القاعدون » فى الآية ثلاث مرات أيضا : ففى المرة الأولى قد وصفوا بأنهم غير أولى الضرر . أما فى المرتين الأخريين فلم يذكر هذا الوصف ، فهل الأمر فيهم على نحو ماقلنا فى المجاهدين ، فيكون المراد بهم شيئا واحدا فى العبارات الثلاث ؟

والجواب : أن جمهور المفسرين على أن الأمر فى « القاعدين » ليس كذلك ، فإنه لايمكن أن يكون المراد بهم فى كل من العبارتين « الثانية والثالثة » نفس القاعدين غير أولى الضرر ، كما أريد بهم ذلك وصرح به فى العبارة الأولى .

نعم لا يمكن أن يكونوا هم الذين فضل الله المجاهدين عليهم درجة واحدة وأن يكونوا هم أنفسهم الذين فضل المجاهدين عليهم درجات كثيرة .

ومن هنا اختلف العلماء فى تأويل هذه الآية :

فقال « الجلال السيوطى » ـ كما قال « ابن جرير الطبرى » ـ إن كلمة « القاعدون » فى الجملة الأُولى : « لايستوى القاعدون من المؤمنين غير أُولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأَموالهم وأَنفسهم » مراد بها المعنى الظاهر من اللفظ ، أَى الذين لم يخرجوا للجهاد وليسوا من أُولى الضرر ، فتكون الآية قد ذكرت هؤُلاء بهذه الصفة الخاصة وأَرشدت إجمالا إلى حكمهم وأَنهم ليسوا مساوين للمجاهدين بأَموالهم وأَنفسهم .

إن حمل الكلمة فى الجملة الأُولى من الآية على مايعطيه ظاهر اللفظ من غير تقييده بشىء غير ماورد فى الآية من أنهم غير أُولى الضرر هو تفسير مقبول ومعقول .

لكنه قد يقال : إن عدم مساواة القاعدين الذين لايشتركون فى الجهاد بنفس أَو مال للمجاهدين الذين يبذلون فى ذلك أَنفسهم وأَموالهم أَمر ضرورى ومعلوم لايحتاج إلى نص عليه .

والجواب : أن النص على عدم المساواة بين فريق القاعدين والمجاهدين ليس المقصود به أصل الإخبار بعدم هذه المساواة بينهما ؛ وإنما المقصود به استنهاض القاعدين ورفع همتهم عن الركون إلى تلك المنزلة الضعيفة التى ليس فيها صلاح دنيا ولا عزة دين .

ثم إن كلا من « الطبرى » و « السيوطى » يفسر كلمة « القاعدين » الواردة فى الجملة الثانية من الآية ـ وهى قوله تعالى : « فَضَّلَ اللهُ المُجَاهدين بأَموالهم وأَنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعَدَ الله الحُسْنَى » ـ بأَن المراد بها القاعدون أَولو الضرر ، فهم الذين فضَّلَ الله المجاهدين عليهم درجة واحدة ، كما روى ذلك عن ابن عباس والبراء وغيرهما .

أَما فى الجملة الأَخيرة ـ وهى قوله سبحانه (وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما) فإنه المراد بهؤُلاء القاعدين هم غير أُولى الضرر ، وهم الذين صرحت الجملة الأولى إجمالا بعدم مساواتهم للمجاهدين ، فهؤُلاء قد شرحت الآية فى الجملة الأُخيرة حكمهم بطريق البيان التفصيلى ، وقررت مبلغ التفاوت بينهم وبين المجاهدين فى الأَجر والثواب.

هذه طريقة « ابن جرير والطبرى والجلال السيوطى » فى تفسير الآية .

وقد يقال : إن تفسير القاعدين فى الجملة الثانية بأنهم القاعدون أولو الضرر ؛ تفسير غريب يؤدى إلى أن تنحرف الجملة عما هو الشأن الذى عهد فى نظائرها ، وهو الذى يقضى به الأسلوب الجيد فى فصيح اللغة العربية .

ذلك أن الشأن فى مثل الأسلوب الذى وردت به الآية الكريمة من نفى المساواة إجمالاً بين أمرين ثم إتباع ذلك بتفصيل يرتبط بذلك النفى — أن يكون هذا التفصيل بيانا لحكم التفاوت بين الأمرين وإرشاداً إلى سِرِّ عدم التساوى بينهما ؛ كما أنه لابد أن يكون الأمران اللذان قد بين حالهما فى التفصيل هما بعينهما الأمرين اللذين قد نفى التساوى بينهما أولا فى الإجمال .

١ ـ وذلك كما فى قوله تعالى :
(لايستوى أَصحابُ النارِ وأَصْحَابُ الجنَّةِ ، أَصحابُ الجَنَّةِ هُمُ الفائِزُونَ)الحشر — ٢٠

فالجملة الأولى من هذه الآية قد نفى بها إجمالاً الاستواء بين أصحاب النارِ وأصحاب الجنة ، والجملة الثانية بَيّن بها تفصيلا حال الفريقين وأن الفوز فى الآخرة مقصور على أصحاب الجنة وليس لأصحاب النار حظ فيه .

٢ ـ وكذلك قوله تعالى : « لايستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكُلاًّ وعد اللهُ الحُسْنى »الحديد (١٠).

فإن الجملة الأولى من الآية قد نفى بها الاستواء بين مَنْ أنفق من قبل فتح مكة وقاتل ، ومن أنفق وقاتل بعد الفتح . وقد أضمر فى الآية هذا المقابل الثانى وهم من أنفق وقاتل بعد الفتح . للعلم به والدلالة عليه فى البيان التالى .

وهذا البيان التالى هو التفصيل المرتبط بالجملة الأُولى ؛ التى نفيت فيها المساواة بين الفريقين . وقد أرشد هذا التفصيل إلى مبلغ التفاوت بينهما فى الأجر والثواب .

٣ ـ ومثل ذلك أيضا قوله تعالى :
« أَفَمَنْ كَانَ مؤْمنا كمن كَانَ فَاسِقًا ، لا يستوون »(السجدة ١٨) فقد نفيت المساواة بهذه الآية إجمالا بين المؤمن والفاسق ثم أتبع ذلك بالتفصيل الذى بين به حالة كل منهما وما آل إليه أمرهما بسبب اختلافهما بالفسق والإيمان ، وذلك فى قوله تعالى : « أَمَّا الَّذِينَ آمنوا

وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نُزُلاً بما كانوا يعملون » وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أُعيدوا فيها وقيلَ لَهُم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون ، . (١٩ ، ٢٠ السجدة) .

هذا هو الشأن فى استعمالات اللغة العربية الفصيحة وأساليبها الجيدة : إنه إذا حكم بنفى المساواة بين أمرين ، ثم أتبع ذلك بتفصيل يبين سرَّ عدم المساواةِ بينهما ، ويُرشد إلى أصل ذلك وما يؤُول إليه أمر عد القبيلين المختلفين غير المتساويين ، فإنه لابد أن يكون الأمران المتقابلان فى ذلك البيان التفصيلى هما عين المتقابلين فى الحكم الذى قرر عدم المساواة بينهما بطريق الإجمال .

ومن هذا يعلم أن تفسير الآية على الوجه الذى اختاره «الطبرى » و «الجلال» لايتمشى مع الاستعمالات الجيدة فى فصيح اللغة ، ولا يحقق ما يقضى به الأُسلوب الذى أشرنا إليه آنفا .

ذلك أنه يجعل « القاعدين » فى الجملة الثانية من الآية مرادا بهم «القاعدون أُولو الضرر» ، على خلاف ما أُريد بهم فى الجملة الأولى ، وعلى خلاف مايفيده نظام الجملتين اللتين رتبت فيهما الثانية على الأولى بغير العطف ، ذلك الترتيب الذى هو ظاهر فى أن الجملة الثانية قد وردت بيانا تفصيليا لما أُجمل فى الجملة الأولى على نحو ماجاءت به الآيات الكريمة الى قد مناها .

وخلاصة القول أن طريقةَ « الجلال » و «الطبرى» فى تفسير هذه الآية قد جعلتها مخالفة للمعهود فى نظائرها ، ولما هو الشأن الذى يقضى به الأسلوب القويم فى فصيح اللغة العربية وفقاً للأُصول البلاغية المقررة فى باب الفصل والوصل ، من علم المعانى .

رأى الزمخشرى صاحب الكشاف
ج ١ ص ٣٨٢

وقال الزمخشرى فى تفسير الآية مانصه :

« فضل الله المجاهدين » جملة موضحة لما نفى من استواء القاعدين والمجاهدين ، كأنه قيل : مالهم لايستوون ؟ فأُجيب بذلك ، والمعنى : « على القاعدين غير أُولى الضرر » لكون الجملة بيانا للجملة

الأُولى المتضمنة هذا الوصف . «وكلا» كل فريق من القاعدين والمجاهدين (وعد الله الحسنى) أى المثوبة الحسنى وهى الجنة ، وإن كان المجاهدون مفضلين على القاعدين درجة .

ثم قال : وعن النبى صلى الله عليه وسلم : « لقد خلفتم بالمدينة أقواما ماسرتم مسيرا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم ، وهم الذين صحت نياتهم ونصحت جيوبهم (١) وكانت أفئدتهم تهوى إلى الجهاد ، وبهم مايمنعهم من المسير من ضرر أو غيره » .

ثم أتبع ذلك بقوله :

فإن قلت « قد ذكر الله تعالى مفضلين درجة ، ومفضلين درجات فمن هم » ؟ قلت . أما المفضلون درجة واحدة فهم الذين فضلوا عن القاعدين الأضراء. وأما المفضلون درجات فالذين فضلوا على القاعدين الذين أذن لهم فى التخلف اكتفاءً بغيرهم ، لأن الغزو فرض كفاية »ا هـ .

ومن هذا يعلم مبلغ مافى رأى الزمخشرى من الاضطراب :

(أ) فهو يقرر أولا : أن المراد بالقاعدين فى الجملة الثانية من الآية ـ وهى قوله تعالى : « فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة » ـ هم القاعدون المذكورون فى الجمله الأُولى ، وهم القاعدون غير أُولى الضرر ، لأن الثانية جاءت بيانا للجملة الأُولى المتضمنة هذا الوصف .

هذا صريح كلامه عن الجملتين الأولى والثانية .

(ب) ثم يقرر صراحة أيضاً فى موضوع التفضيل درجة والتفضيل درجات ، أن المفضلين درجة واحدة . هم المفضلون على القاعدين الأضراء ، أما المفضلون درجات فهم الذين فضلوا على القاعدين الذين أذن لهم فى القعود اكتفاءً بغيرهم ، لأن الغزو لم يكن حينئذ فرض عين ، وإنما هو فرض كفاية .

فهو يقرر فى آخر كلامه أن المفضل عليهم درجة واحدة هم

---

(١) نصحت جيوبهم ، أى صفت صدورهم وطهرت قلوبهم من الفسق والخداع . والجيوب جمع جيب وهو فتحة القميص على النحر ، وذلك كناية عن نقاء السريرة وطيب القلب .

القاعدون أصحاب الآضرار على حين أنه فى أول الكلام ـ يقول إن المراد بالقاعدين فى الجملة الثانية التى جاءت بيانا للجملة الأولى هم القاعدون غير أُولى الضرر . وهذا تضارب فاحش لاندرى كيف صدر من العلامةِ الزمخشرى .

(ج) ثم يلاحظ أخيرا أنه فيما بين الكلامين : الأَول والأَخير قدأورد الزمخشرى حديث : « لقدخلفتم بالمدينه أَقواما. » إلى آخره ، وظاهرٌ أَن هذا الحديث إنما يحسن إيراده حيث يكون الكلام عن القعود عن الجهاد بسبب الأَضرار والأَعذار ، ولكن المفسر قد أَورده عقب قوله : إن المراد بالقاعدين هم القاعدون غير أُولى الضرر ، وليس هناك ذكر لقاعدين أُولى أَضرار أَوأَصحاب أَعذار .

وهذا شيءٌ يضاعف حالة الاضطراب والتضارب التى وقعت فى كلام العلامة « الزمخشرى » .

تفسير النسفى ج ١ ص ١٩٠، ١٩١

وقد وقع النسفى « فى الاضطراب والتضارب مثل ماوقع « الزمخشرى » فقد تابعه فى طريقته وكبا كبوته إذ قال فى تفسير قوله تعالى : « فَضَّلَ اللهُ المجاهدين بأَموالهم وأَنفسهم على القاعدين درجة » مانصه : « ذكر هذه الجملة بيانا للجملة الأولى موضحة لما نفى من استواءِ القاعدين والمجاهدين ، كأَنه قيل مالهم لا يستوون ؟ فأُجيب بذلك » ، ثم قال : « وفضل الله المجاهدين على القاعدين بغير عذر أَجرا عظيما » درجات منه ومغفرة ورحمة ، ثم ختم المفسر كلامه بقوله : « وحاصله أَن الله تعالى فضل المجاهدين على القاعدين بعذر درجةواحدة، وعلى القاعدين بغير عذر ـ بأَمرالنبي عليه السلام ـ اكتفاءً بغيرهم درجات ، لأَن الجهاد فرض كفاية » . اهـ .

فهو يقرر أَولا أَن القاعدين الذين فضل الله عليهم المجاهدين درجة واحدة هم القاعدون غير أُولى الضرر ، وهم الذين ورد ذكرهم فى الجملة الأُولى التى نفى فيها الاستواء بين القاعدين والمجاهدين ،

لأن الجملة الثانية جاءت بيانا للأُولى ، موضحه لما أُجمل فيها من عدم الاستواء

ثم يقرر أخيرا أن القاعدين الذين فضل الله عليهم المجاهدين درجة واحدة هم القاعدون أُولو الضرر . أما الذين فضل الله المجاهدين عليهم درجات فهم القاعدون ، بغير عذر بأمر النبي صلى الله عليه وسلم اكتفاءً بغيرهم . وهذا هو التضارب والاضطراب .

طريقة أبي السعود في تفسير الآية

قد أراد العلامة أبو السعود أن يتفادى من ذلك الاضطراب وينجو بكلامه مما وقع فيه « الزمخشري والنسفي » فقال ما خلاصته إن المراد بالقاعدين في الجمل الثلاث فريق واحد هم القاعدون غير أُولى الضرر وقد أذن لهم الرسول صلى الله عليه وسلم في القعود اكتفاءً بغيرهم :

فهم في الجملة الأُولى قد حكم بأنهم لايساوون المجاهدين وجاءت الجملة الثانية بحكم تفصيلي لما أُجمل في الجملة الأُولى من عدم المساواة ؛ فبينت أن المجاهدين مفضلون على القاعدين درجة وأن هؤلاء القاعدين غير محرومين من الأجر والثواب ، إذ أن الله تعالى قد وعد كلا من الفريقين الحسنى وهي الجنة .

« قال أبوالسعود » وليس المراد بالدرجة التي فضَّل الله بها المجاهدين على أُولئك القاعدين أنها درجة واحدة بالشخص ولكنها جنس واسع يشتمل على درجات ومراتب كثيرة من الأجر والثواب . وبذلك لايتعارض ماتضمنته هذه الجملة الثانية من التفضيل درجة وماجاءت به الجملة الأخيرة التي تقول : « وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما ». وقد بين ذلك الأجر العظيم بقوله تعالى « درجات منه ومغفرة ورحمة » .

وعلى هذا يكون التفضيل درجة هو التفضيل درجات ، وتكون الدرجة والدرجات شيئا واحدا في الحقيقة ، ولكنه يختلف بالإجمال والتفصيل . هذا ملخص ماقاله أبو السعود في تفسير الآية [1] .

ونحن نرى أن هذا تأويل بعيد لا يتبادر إلى الذهن ، ولا يستقيم جيدا في الفهم ، ولا ينبغي أن يسار عليه في تفسير الآية الكريمة .

---

(١) يراجع في ذلك تفسير أبي السعود المطبوع على هامش تفسير الفخر الرازي ج٣ ص ٢٤٥ – ٢٥١ .

ثم يقول أبو السعود : « إنه يحتمل أن يكون التفضيل درجة والتفضيل درجات أمرين مختلفين بالحقيقة ، وأن المراد بالدرجة درجةٌ واحدة هى ما يرجع إلى النعم الدنيوية ، أما الدرجات الكثيرة فهى أنواع نعيم الآخرة وثوابها .

وهذا أيضًا تأويل بعيد ، ومحاولة للتوصل إلى جعل التفضيلين : تفضيل الدرجة وتفضيل الدرجات جميعا على فريق واحد هم القاعدون الذين ذكروا فى الجمل الثلاث ، وهم الذين يقول « أبو السعود » : إن المراد بهم جميعا القاعدون غير أولى الضرر، وقد أذن لهم الرسول صلى الله عليه وسلم فى القعود اكتفاءً بغيرهم .

إن ذلك تكلف غير مقبول ، ولا سيما إذا لوحظ ما فى الجملة الثانية التى تقرر التفضيل درجة ، وهى قوله تعالى « فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسنى » فإن المراد « بالحسنى » المثوبة الجميلة وهى نعيم الجنة . وبذلك يكون التفضيل درجة والتفضيل درجات جميعه فى الآخرة ونعيمها .

وبعد ؛ فإنه إذا كان أبو السعود قد استطاع أن يتفادى ما وقع فيه « الزمخشرى والنسفى » من الاضطراب والتضارب ، فإنه اضطر فى سبيل ذلك أن يلجأ إلى تلك المحاولات والتكلفات غير المقبولة .

أما ماجاء فى تفسير الفخر الرازى والنيسابورى وتفسير الألوسى ؛ فإنه لا يبعد عما أوردناه من تفسير أبى السعود ، وإذًا لا داعى إلى الإطالة بذكر ما قالوه فى ذلك .

وهناك رأى آخر فى تفسير الآية يشبه إلى حد ما ما قاله أبو السعود : يشبهه فى أصله وأساس مبناه ، ولكنه يخالفه فى حقيقته وجوهر معناه ، ولعله يكون أحق منه بالقبول .

وحاصله أن يحمل « القاعدون » فى الجمل الثلاث على غير أولى الضرر لكنهم فريقان :

فريق أذن لهم الرسول صلى الله عليه وسلم فى القعود وعدم الخروج مع المجاهدين فى تلك « الغزوة » ، غزوة بدر ، لأن الخروج إليها كان فرض

كفاية ، وقد رأى عليه الصلاة والسلام فيمن خرج إليها الكفاية، ثم أنه صلى الله عليه وسلم ، لابد أن يكون قد رأى الحكمة فى عدم خروج هؤلاء الذين أذن لهم فى القعود ، لأنهم — وإن لم يكونوا أولى ضرر فى أنفسهم — قد تكون هناك حاجات مهمة تدعوهم إلى القعود .

وذلك كما تخلف « عثمان بن عفان » رضى الله عنه بإذنه عليه الصلاة والسلام ، لقيامه بتمريض زوجته السيدة « رقية » بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد بقى معها حتى توفيت رضى الله عنها .

وكذلك رد عليه الصلاة والسلام « أبا لبابة بشير بن عبد المنذر » من الروحاء لما بلغه خروج النفير من « مكة » واستعمله على المدينة .

والفريق الآخر من القاعدين غير أولى الضرر هم الذين لم يسبق لهم إذن من الرسول صلى الله عليه وسلم بالقعود ، ولكنهم قعدوا لعلمهم بأن الخروج ليس فرض عين . وهم مع ذلك مخلصون صادقو الإيمان ، ويتمنون فى قرارة أفئدتهم أن ينصر الله المسلمين على أعدائهم الكافرين .

وعلى هذا يكون نظم الآية فى جملها الثلاث متسقا هكذا غاية الاتساق :

فالجملة الأولى نفت المساواة بين القاعدين غير أولى الضرر والمجاهدين فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، وهذا الحكم بعدم المساواة يشمل فريقى القاعدين ؛ أى الذين أذن لهم فى القعود والذين لم يسبق لهم مثل هذا الإذن .

ثم جاءت الجملة الثانية بطريق الفصل من غير أن تعطف على ما قبلها ، لأنها بيان تفصيلى لما أجمل فى الجملة الأولى من الحكم بعدم المساواة ؛ وهذا هو ما تقضى به البلاغة فى شأن الجملة التى تقع بيانا لما تضمنته جملة قبلها .

هذه الجملة الثانية : « فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة » قد بينت فضل المجاهدين على الفريق الأول من القاعدين غير أولى ، وهم الذين قعدوا بإذن من الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأفادت

(١) يراجع فى ذلك كتاب البداية و النهاية ج٣ ص ٣٢٧ .

أن المجاهدين مفضلون عليهم درجة واحدة ، إذ أن حال هؤلاء القاعدين قريب جدا من حال أولئك المجاهدين حيث إنهم كانوا يودون الخروج معهم للجهاد بأنفسهم ، ولكن رأى الرسول صلى الله عليه وسلم أن من الحكمة أن يبقوا فى المدينة للحاجات المهمة التى تقتضى هذا البقاء كما قدمنا الإشارة إلى ذلك .

ومع أن المجاهدين فضلوا عليهم درجة قد وعدهم الله الحسنى وهى الجنة ، كما وعد المجاهدين بقوله سبحانه : « وكلا وعد الله الحسنى » .

أما الذين لم يسبق لهم إذن من الرسول صلى الله عليه وسلم فى القعود ، فهم الذين بنيت الجملة الأخيرة حالهم وإن المجاهدين مفضلون عليهم درجات كثيرة ، وذلك قوله تعالى :

« وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرًا عظيمًا . درجات منه ومغفرة ورحمة ».

وبذلك علم حال القاعدين غير أولى الضرر : المأذون لهم والآخرين .

أما أولو الضرر فى أنفسهم كالهرم والزمنى والمرضى وذوى العاهات التى تعجز بها أصحابها عن إمكان الخروج مع المجاهدين ، وكذلك من ليس لهم من المدة ما يمكنهم من الاشتراك فى الجهاد ؛ فإن الآية لم تصرح فى جانبهم بحكم ، ولم تبين حالهم بالنسبة إلى المجاهدين كما صنعت فى جانب غير أولى الضرر فما هو حكمهم ؟ وما جزاؤهم ؟ وهل يمكن أن يقال بوجه ما من القول : إنهم يساوون فى الأجر والثواب أولئك المجاهدين ؟

إن جواب هذا هو من المواطن التى اختلفت فيها أنظار المجتهدين ، وذلك أن الآية التى حكمت بنفى المساواة بين المجاهدين والقاعدين ، قد وصفت هؤلاء القاعدين بأنهم غير أولى الضرر ، فهل لهذه الصفة مفهوم مخالفة يقتضى ثبوت نقيض الحكم المنطوق الذى هو عدم المساواة فى حال زوال تلك الصفة ، وحينئذ تثبت المساواة ؟ أو أن ذلك المفهوم مسكوت عنه ، فهو فى مقام الاحتمال ؟ يجوز أن يثبت له نقيض

الحكم المنطوق ويجوز أن يكون الثابت له خلافه ؟

من المجتهدين من سار على الطريقة الأُولى ، وحكم بأن القاعدين أُولى الضرر يساوون فى الأَجر والثـــواب أولئك المجاهدين .

وقد يستند هذا الفريق من المجتهدين فى ذلك أيضا إلى ما ورد من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد خلفتم بالمدينة أقواما ، ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم ، وهم الذين صحت نياتهم ونصحت جيوبهم وكانت أفئدتهم تهوى إلى الجهاد ، وبهم ما يمنعم من المسير من ضرر أو غيره » .

أما الفريق الآخر من المجتهدين فإنه يرى أنه ليس فى الآية ولا فى الحديث ما يفيد الجزم بمساواة القاعدين أُولى الضرر للذين خرجوا بالفعل مجاهدين فى إخلاص وصدق إيمان ، فإنه لايستوى العاملون وغير العاملين ، وإن كان هؤلاء الذين لم يعملوا لم تتوافر لهم وسائل العمل وضروراته ، أى أنهم غير مفرطين. فحكم أُولى الضرر عند هذا الفريق من المجتهدين أنهم بالنظر إلى النصوص التى ذكرناها آنفا ـ فى محل الاحتمال : يجوز أن يكونوا مساوين للمجاهدين فى الأَجر والثواب .

ويجوز أن يكونوا أقل منهم فى هذا الجزاء .

ورأينا أن وجهة نظر هذا الفريق من المجتهدين أدق وأحكم وأولى بالاتباع . والله أعلم .

عبد الرحمن تاج

عضو المجمع

الفارسيّ في الإغفال

للأستاذ علي النجدي ناصف

ألف أبو إسحاق الزجاج — فيما ألف — كتابا في معاني القرآن ، يعرض فيه بالبيان والإعراب لآيات الكتاب العزيز التي يتطلب فهم معانيها وإعراب أساليبها فضلا من التأمل وإنعام النظر ، ثم جاء أبو علي الفارسي أبعد تلاميذ الزجاج شهرة ، وأعمقهم في العربية فلسفة ، فألف كتابا يعرف بالإغفال ، ينقد فيه كتاب شيخه في معاني القرآن ، ويستدرك عليه ما شاء الله أن يستدرك من فوت .

ويبين أبو علي في مقدمة الإغفال سبب تأليفه ، ويذكر منهجه فيه على العهد به من الإيجاز في مقدمة كتابه الحجة في علل القراءات السبع ، فيقول :

« هذه مسائل من كتاب أبي إسحاق إبراهيم بن السري في إعراب القرآن ، ذكرناها لما اقتضت عندنا من الإيضاح منها للإغفال الواقع فيها . ونحن ننقل كلامه في كل مسألة من هذه المسائل بلفظه على وجهته من النسخة التي سمعناها منه فيها ثم نتبعه بما عندنا ، وبالله التوفيق » .

وهمزة « الإغفال » يحتمل أن تكون للتعدية ، وأن تكون للمصادفة ، كالتي في قوله تعالى : (ولا تُطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) ، على بعض التفاسير[1] ، أي من وجدناه غافلا عن ذكرنا . والتسمية بالإغفال على الحالين — ملحوظ فيها مضاف محذوف وتأويلها على التعدية : تدارك إغفال الزجاج وعلى المصادفة : تدارك ماوجدنا عند الزجاج من إغفال :

والفرق بين التأويلين يسير ، وهو يتعلق بوصف الوقوع على الإغفال كيف كان ؟ فعلى التعدية كان الإغفال ميسرا قريب المتناول ، لايكلف مئونة ، ولايحمل على طلب ، وعلى المصادفة يتطلب الوقوع عليه تعقبا واقتفاء .

---

(١) انظر كشاف الزمخشري : ١ : ٥٦٧ ، والمحتسب : ٢ : ٢٨ .

ولا على الفارسى أن ينقد شيخه ، ويلبه على الإغفال الذى رآه فى كتاب معانى القرآن وفى كل كتاب من كتبه إذا بدا ذلك له ، ووجد السبيل إليه : بل إن الأمانة العلمية ، والغيرة على الحقيقة أن يتحيفها نقص ، أو تشوبها شائبة غموض لتوجبان عليه أن ينبرى للنقد والإيضاح والاستدراك وجوبا لاهوادة فيه ولاتوقف دونه . وفى ذلك من بعد خير للعلم وتمحيص لمعدنه . ولكن الذى كنانود لو أن أبا على نزه عنه نقده ، ومنع منه قلمه ألا يأخذ شيخه هكذا أخذ شديدا لارفق فيـــه ، ولابقيا معه، فهو لايتحرج أن يرميه بالخطأ الصراح ، وبالتحامل وتناقض الأقوال .

وإذا أمكن أن يغضى مغض عن هذا العنف إذا كان من عدو يناكر الزجاج ويحقد عليه ، أومن قرن يطاوله ويحاول فى زحام الحياة وتدافعها أن يؤخره ليتقدم هو عليه — فما أظن أن أحدا يمكن أن يغضى عنه بل عن شىء منه إذا كان من تلميذ له جلس إليه وسمع منه .

وإذا ساغت التخطئة فيما يناقض القوانين الرياضية ، أو البرهانات المنطقية — فإنها غير سائغة، ولاهى من الحكمة فى شىء إذا كانت فى المسائل اللغوية ، فإن هذه المسائل إنما تقوم أصلا على رواية النص وفهم معناه ، إلى قرائن وملابسات من الظنون والافتراضات : والرواية عمل مشترك بين اللغويين ، لكل منهم نصيبه المقسوم منه. ومهما اتسعت رواية أحدهم فلن تكون محيطة شاملة، لاتند عنها صغيرة ولاكبيرة . واختلاف الفهم سمة من سمات العقول فى تعددها وتفاوت أصحابها فى الخصائص والمزايا . والظنون والافتراضات كثيرا ما تبطلها قرائن غير القرائن وملابسات غير الملابسات .

فليس عجيبا أن نرى لغويات عدت خطأ ، فأُزرى بها ، ونُهى عنها ، وأن نرى أخرى وصفت بالاطراد والعموم الذى لااستثناء منه ولاخروج عليه . ثم قيض الله للخطأ المزعوم من صوبه ورد اعتباره إليه ، وقيض للعام المطرد من قيده وحد من شموله الموصوف .

فهذا ثعلب — يرحمه الله — يقول عن (ولاسيما) : من استعماله على خلاف ماجاء فى قوله : ولاسيما يوم فهو مخطىء، يريد أن من الخطأ ألا تذكر الواو ولاقبل سيما ، لتكون كما وردت فى قول امرىء القيس :

ألارب يوم كان منهن صالح
ولاسيما يوم بدارة جلجل

ثم جاء الرضى فتوسع فى أوجه استعمالها ماشاء[1] ، ولم يسلم كتاب (ليس فى كلام

(١) انظر شرح الأشمونى وحاشية الصبان فى آخر باب الاستثناء.

العرب) لابن خالويه ، ولا كتاب درة الغواص للحريرى من النقد والتعقيب بما ينقض بعض ماجاء فيهما من قضايا وأحكام .

وينطلق أبو على هنا على العهدبه فى الحجة ، فلا يتابع القول على وتيرة واحدة ولايأخذ بالقارىء إلى الغاية التى يريد من وجه واحد ولا من طريق قاصدة ، ولكنه ينهج به إليها مناهج شتى ، ويعبر له عنها بأساليب متنوعة ، فبينا هو ماض به قدما — إذا هو يميل به ذات اليمين مرة وذات الشمال أخرى ، وبينا هو معه فى سهل مؤنس إذا هو ينحو به إلى صعب موحش أو يعلو به شرفا ثم يهبط غورا .

ولايزال فى أثناء ذلك يتنقل به من علة فاسفية ، إلى قياس منطقى ، إلى سر مكنون من أسرار العربية ، إلى طرفة نادرة من النحو أو الصرف أو الأصوات حتى يدركه البهر ، ويمسه اللغوب ، ولايجد بدا من الإمساك عن المتابعة والانقياد ، إما إلى عودة قريبة أو بعيدة ، وإما لتعجل النهاية والنظر إلى مكانه منها ، وسيتبين فى كثير من الأحيان أنه لا يزال بعرض المزيد من الصبر والاحتمال .

وهو يستكثر من الاستشهاد بالقرآن مالا يستكثر من غيره إلا كتاب سيبويه ، حتى مايكاد القارىء يرتاب فى أنه كان يحفظه كما يحفظ القرآن : وأبو على إذ يحفظ الكتاب لايكون بدعا من العلماء ولا آتيا بما لم يسبقه إليه أو يشاركه أحد فيه ، فقد مر بالناس زمان كاد كثير من طلاب العلم يجمعون فيه بين حفظ القرآن وحفظ الكتاب ، وخاصة فى بلاد الأندلس (١) ، ولكن الذى يثير العجب حقا أن يكون الرجل على هذه الدرجة من الاستحضار له ، وإحكام الاستشهاد به على هذا النحو النادر المثال . ويزيد من العجب والاستغراب أن كثيرا مما ينقله عن كتاب سيبويه ليس مما يذكر فى بابه الذى عقد له ، ولكن مما يذكر عرضا فيه أو استطرادا إليه .

وبعد ، فسأورد هنا فقارا متفرقة من المسألة الثامنة والأربعين من الإغفال ، وأرجو أن تكون كافية فى تصوير شخصية الفارسى وتبيين منهجه فى الكتاب على نحو إلا يكن كاملا فمقارب ، إن شاء الله .

يستهل الفارسى المسألة الثامنة والأربعين على عادته بنقل كلام شيخه فيها ، فيقول:

« قال فى قوله عز وجل : (وقالت اليهود يد الله مغلولة غُلّت أيديهم ولعنوا بما قالوا) : أى يده ممسكة عن الإنفاق ، ومثل ذلك قوله تعالى : (ولاتجعل يدك مغلولة إلى عنقك) أى لاتمسكها عن

---

(١) انظر سيبويه إمام النحاة لكاتب المقال : ١٨٨ .

الإنفاق . وقال بعضهم : يد الله مغاولة : نعمته مقبوضة عنا ، وهذا القول خطأ . ينقضه (بل يداه مبسوطتان) ، فيكون المعنى : بل نعمتاه مبسوطتان ، ونعم الله أكثر من أن تحصى . . . »

وقال أبو على بعد كلام له : وقوله — عز وجل (بل يداه مبسوطتان) لايدل على تقليل النعمة ، وعلى أن نعمته نعمتان ثنتان ليس غيرهما ، ولكنه يدل على الكثرة والمبالغة ، وقد جاءت التثنية يرادبها الكثرة والمبالغة ، وتعداد المثنى ، لاالمعنى الذى يشفع الواحد المفرد .

ألا ترى أن قولهم : لبيك إنما هو إقامة على طاعتك بعد إقامة ، وكذلك سعديك ، إنما هو مساعدة بعد مساعدة ، وليس المراد بذلك طاعتين ثنتين ، ولامساعدتين فكذلك الآية ، المعنى فيها أن نعمه ظاهرة متتابعة ، ليست كما ادُّعى من أنها مقبوضة ممتنعة . وهذا الذى ذكرناه فى لبيك وسعديك وأن المراد به الكثرة — قول الخليل وسيبويه ومن وراءهما ، فهذا وجه .

وإن شئت حملت الآية على وجه آخر قريب من هذا فى أن التثنية يراديها الكثرة وهو أن تجعل المثنى تثنية جنس لا واحد مفرد ، ويكون أحد جنسى النعمة نعمة الدنيا ، والآخرة نعمة الآخرة ، أو نعمة الدين ، فلا تكون التثنية على هذا مرادا بها اثنين .

فإن قلت : كيف جاز أن يثنى اسم الجنس ، وهل جاء لهذا نظير فى كلامهم ؟ قيل : نعم قد جاء هذا فى كلامهم مطردا ألا ترى أن النحويين لايجيزون إعمال نعم وبئس فى فاعل مخصوص ، ولا يسندونها إلا إلى أسماء الأجناس المعرفة بالألف واللام ، أو المضافة إلى الألف واللام ، وأجازوا نعم الرجلان أخواك ونعم الفتيان صاحباك ، فثنوا اسم الجنس ؟ فكذلك يثنى هذا الاسم فى الآية تثنية الجنس وإن لم تكن فيه لام التعريف . ألا ترى أنهم قالوا : هما خير اثنين فى الناس ، وأوقعوا التثنية على العموم ، وعلى غير ضم مفرد إلى مفرد ؟ وعلى هذا قول الفرزدق :

وكل رفيقى كل رحل وإن هما
تعاطى القنا قوماهما أخوان

فتأويل الرفيقين فى البيت العموم والإشاعة ألا ترى . أنه لايجوز أن يكون رفيقان اثنان لكل رجل ؟

ثم قال : فأما كون اليد بمعنى النعمة فليس بمنكر ولامدفوع ، ومما يدلك على ذلك ماأنشده أبو زيد :

فلن أذكر النعمان إلا بصالح
فإن له عندى يدًا وأنعما[1]

جمع يد اعلى يَدِىّ كالكليب . . والعبيد . فقوله : « يدياو أنعما » ، فاليدى هى الأنعم

(١) نسبه فى اللسان (يدى) إلى الأعشى وذكر ابن برى أنه لضمرة بن ضمرة النهشلى ، وانظر سر صناعة الإعراب : ١ : ٢٤٥ .

فى المعنى ، وحسن التكرير لاختلاف اللفظتين كقوله :

أقوى وأفقر بعد أم الهيثم [1]

وكقوله — تعالى — : (شديد القوى ذو مرة) ؛ ونحو ذلك . واليد قد تستعمل فى القوة ، وتعنى بها . وعلى هذا ما أنشده الأصمعى لعلى بن الغدير الغنوى :

اعمد لما تعلو فما لك بالـــــذى
لا تستطيع من الأمـــــور يدان

يريد : ليس لك قوة . ألا ترى أنه لا يذهب للجارحة ولا للنعمة هنا ؟ وعلى هذا ماذكره سيبويه من قوله : لا يدين لك ، فمعنى هذه التثنية عندى المبالغة أيضا فى نفى الاقتدار والقوة على الشىء ، كأنه يصف الشىء الذى قد اعتاص عليه واشتد امتناعه بأنه يبالغ فى انتفاء اقتداره عليه . فليس المراد بالتثنية الاثنين الناقص عن ثلاثة ، إنما هو الكثرة وتجمع يد النعمة على أيْد فى العدد القليل ، وفى الكثير أياد ، مثل كلب وأكلب وأكالب .

ثم قال : واعلم أن يدا كلمة نادرة وزنها فَعْل ، يدل على ذلك قولهم : أيد ، وجمعهم لما عى أفعل ، فدل ذلك على أنه فعل ، كما دل آباء وآخاء على أن وزن أب وأخ : فَعَل واللام منه ياء . فهو من باب ساس وقاق [2] ، ولا نعلم لذلك فى الكلام نظيرا . والذى يدل على ذلك قولهم : يديت إليه يدا ، وهو ينبغى أن يكون مثل : شَعَر [3] الجنين ، واستحجر الطين . . . ألا ترى أنه لم يجئ مثل وعوت وقد جاء عندى فى الأسماء ذلك ، وهو قولهم واو ثم قال : وقول ذى الرمة :

فيا لك من دار تحمل أهلها
أيادى سبا بعدى فطال احتيالها [4]

فقال أبو العباس : من قال : أيادى سبا ، فأضاف أيادى إلى سبا كان واضعا الكلمة فى غير موضعها . والقول فى ذلك لما قال ، لأنه فى موضع حال . ألا ترى أن قولك : ذهبوا أيادى سبا كقولك : ذهبوا متفرقين ؟ فاذا كان كذلك لم تصلح إضافته ، لأنك إذا أضفت إلى سبا — وهو معرفة — كان المضاف معرفة ، وإذا كان المضاف معرفة وجب ألا يكون حالا .

---

(١) البيت بتمامه : حييت من ضلل تقادم عهده أقوى وأقفر بعد أم الهيثم . وهو من معلقة عنترة .

(٢) كل من سلس وقلق فاؤه ولامه من جنس واحد ، ويد مثلهما ، إلا أن القاء واللام ياءان ، ولا نظير لذلك فيما يعلم من الأفعال .

(٣) شعر الجنين كثر شعره ، يريد أن يديت من اليد ، وهى اسم ذات كشعر من الشعر ، واستحجر من الحجر .

(٤) احتيالها : خلوها من أهلها حولا ، وأنها لم يصبها المطر . يقال : أرض محتالة : إذا لم يصبها المطر .

وحكم الكلمة فى قول من أضافه ، فجعل أيادى مضافا إلى سبا — أن يكون سبا قد زال عن تعريفه ، فصارت الكلمة لكثرة استعمالها جارية مجرى ما ذكرنا من النكرة ، فيكون بمنزلة علم نُكّر بعد تعريفه . والوجه فيها عندى ألاتقدر فيها الإضافة ، ولكن تجعل اسمين بمنزلة اسم واحد ، مثل حضر موت فيمن لم يضف وجعل نكرة .

فإن قلت : فلم لا تجعل سبا معرفة وتقدر فيه الانفصال كما تقدر فيها ، فتنصب على الحال إذا كان مضافا إلى معرفة ، كقيد الأوابد وعبْر[1] الهواجر ، وضارب زيد ونحوه؟ فإن هذا التقدير لا يصح فى أيادى. ألا ترى أنه ليس بصفة كما ذكرت من الصفات ، فيسوغ تقدير الانفصال فيه كما جاز فى الصفة ؟ .

على النجدى ناصف
عضو المجمع

---

(١) يقال : هو عبر أسفار : أى قوى عليها مطيق لها .

خصائص اللغة العربية في التعبير العلمي

للدكتور عبد الحليم منتصر

منذ أكثر من أحد عشر قرنا من الزمان وفى عهد الخليفة المأمون على التحديد تقاطر المترجمون على بيت الحكمة فى بغداد ، ينقلون الذخائر العلمية التى تركها الإغريق والفرس والهنود والسريان والقبط وغيرهم إلى اللغة العربية وشجع الخليفة العالم هذه الحركة العلمية العارمة ،فكان يولى العلماء عطفه ورعايته كما فتح لهم خزائن المال ، يغدق عليهم منها ، استحثاثا منه لهم على نقل هذا التراث إلى اللغة العربية. وكذلك تم نقل هذا التراث فى الطب والفلسفة والمنطق والأخلاق والسياسة والفلك والرياضيات والتشريح والنبات والحيوان وما إليها من علوم لم يكن للعرب بها عهد .

وليس من شك فى أن تلك كانت نقطة بدء رائعة للانطلاق وغدت بغداد مركز إشعاع علمى حضارى تاهت به على حواضر ذلك العصر ودانت الحضارة الانسانية لبغداد المأمون وغدا الخليفة المأمون رمزا للملك العالم وجمع حوله جمهرة من العلماء علّى بهم بلاطه وزين ملكة نقلوا روائع أبقراط وفيثاغورس وأفلاطون وأرسطو وبطليموس وجالينوس وديسقوريدوس وإقليدس وأبولونيوس وأرشميدس وغيرهم من علماء أثينا والإسكندرية .

وعرفت الأمة العربية طب أبقراط وفلك بطليموس وهندسة إقليدس وقرأوا مجسطى بطليموس ، وأصول إقليدس وجامع أورياسوس ومئات بل ألوف من كتب أرسطو وجالينوس وثاون وهيرون وغيرهم من رواد العلم العصرين الإغريقى والإسكندرى ووسعت العربية الجومطريا والاسطرونوميا والميتافيزيقا والأريثماطيقا والماثيماطيقا ومصطلحات التشريح والهندسة والفلك والطب والرياضيات وما إليها ، واستمرت الحركة العلمية فى النمو والازدهار وشملت الحواضر العربية كلها من بغداد إلى دمشق إلى القاهرة إلى مراكش إلى الأندلس فى الجامع المنصور والجامع الأموى والجامع الأزهرى وجامع القيروان وجامع قرطبة وفى بيت الحكمة ودار الحكمة ودار العلم فكانت هذه ، وتلك تؤدى ماتؤديه الجامعات ومعاهد العلم فى الوقت الحاضر. وكانت منازل العلماء

وقصور الخلفاء والأمراء والمساجد ودور الكتب تزدان بمجالس العلم والأدب . وامتدت الامبراطورية العربية الإسلامية من حدود الصين شرقا إلى حدود فرنسا غربا وأكب علماء المسلمين على التأليف بلغة عربية سليمة حتى كانت أعمال العالم منهم تعد لا بالآحاد ولا بالعشرات ولكن بالمئات ، وتاه هذا العصر بعشرات ومئات من العلماء العرب يقرنون إلى أعاظم العلماء فى كل عصر وآن . وهاهى ذى تآليفهم ومخطوطاتهم تزادن بها دور الكتب والمتاحف، مما يعد بمئات الألوف مما يحتاج تحقيقه وعرضه إلى جهود عصبة من أولى العزم من العلماء يعكفون على دراستها وتحقيقها وعرضها ملخصة ومخاصة. وقد أنصفنا بعض مؤرخى العلم حين قالوا: إن الحضارة الانسانية مدينة للعلماء العرب فى كل فروع المعرفة وأنه كان لابد من ظهور ابن الهيثم والصوفى والبيرونى والكندى لكى يتسنى ظهور جاليلو وكبلر وكوبرنيق، وأنه لولا أعمال العلماء العرب لا ضطر علماء النهضة الأوروبية أن يبدأوا من حيث بدأ هؤلاء ولتأخر سير المدنية عدة قرون، وأنه لولم يعوقنا المغول والتتار والترك والاستعمار لكانت هذه النهضة التى تفاخر بها أوروبا تكون من نصيب الأمة العربية وتكون لغتها هى العربية وتتقدم عليها فى التاريخ عدة قرون .

ولاشك أن القارئ لمؤلفات ابن سينا وابن الهيثم والبيرونى وجابر والخوارزمى والرازى وابن النفيس والزهراوى والصوفى وابن يونس وابن العوام وغيرهم ليتماكه الإعجاب والإكبار بأسلوبهم العلمى الأخاذ ولغتهم العربية السليمة التى كتبوا بها فى الفلك والرياضات والضوء والهندسة والجبر والطب والكيمياء . لقد طوعوا العربية لمصطلحات هذه العلوم الطبيعية المختلفة حتى قال المنصفون إن الينبوع الأول للعلوم الطبيعية إنما تفجر فى العصر العربى الإسلامى الذى ازدان بأمثال من ذكرنا .

ولكن الأيام دول كما يقولون، فضعف أمر الأمة العربية بعد أن قدمت لأوروبا زاد نهضتها العلمية عن طريق الأندلس التى سطعت فيها الحضارة العربية الإسلامية عدة قرون ، وعن طريق صقلية التى دانت لحكم العرب بضعة قرون وعن طريق الحروب الصليبية ثم عن طريق الامبراطورية العثمانية فى شرق أوربا. وظلت كتب من ذكرنا من العلماء العرب هى المراجع المعتمدة فى جامعات أوروبا طيلة قرون وأنشئت الجامعات الأوروبية على غرار جامعة الأزهر العتيدة وترجمت الكتب العربية إلى اللغة اللاتينية واللغات الأجنبية الأخرى وسطعت شمس الحضارة العلمية على أوروبا فى حين انحسرت عن الأمة العربية .

وفى أوائل القرن الماضى بدأت الاتصالات بين بعض الدول الأوروبية وبعض البلدان العربية كان هدفها الأول حربيا استعماريا لم يكتب لها فيها نصر ولم تتحق أغراضها منه، ولكنها تحققت اتصالات

علمية كان من نتائجها نقل العلوم الحديثة إلى البلدان العربية، وإنشاء بعض المدارس وإرسال البعثات العلمية إلى أوربا. وعاد هؤلاء المبعوثون ليقودوا نهضة علمية حديثة. ومنذ أوائل القرن التاسع عشر أنشئت فى مصر مدارس الطب والهندسة والمعلمين وغيرها من مدارس. وشارك علماء من أساتذة هذه المدارس من الأجانب والمصريين فى ترجمة الكتب العلمية إلى اللغة العربية، إن فى الطب أو الهندسة أو الزراعة أو الصيدلة أو الكيمياء وما إليها من علوم وفنون. وكان الحكام يلزمون طلاب البعثات بنقل هذه العلوم إلى اللغة العربية وأن تكون اللغة العربية لغة التدريس فى هذه المعاهد.

وفى أخريات القرن الماضى عاد الاحتلال ينشر ظله الثقيل مرة أخرى، وشيئا فشيئا جعل لغة التدريس هى الأجنبية ولم يكتف بأن يكون ذلك فى المعاهد العليا وحدها ولكن عمم ذلك فى المدارس الابتدائية والثانوية فاستقر فى أذهان الكثيرين أن هذه العلوم مستوردة هى الأخرى من الخارج وأنه لم يكن لنا بها عهد، وتناسى الكثيرون أنها بضاعتنا ترد إلينا، وأن العلماء العرب هم واضعو أسس هذه العلوم وهم مبتكرو كثير من أجهزتها وأدواتها بل ومصطلحاتها أيضا.

ومنذ أوائل القرن العشرين عادت للغة العربية مكانتها فى التدريس فى المدارس الابتدائية والثانوية، كما أنشئت فى مصر الجامعة الأهلية وكانت مقصورة على كلية الآداب، كما أنشئت معاهد عليا كبيرة: وفى أواسط عشرينيات هذا القرن أنشئت الجامعة المصرية الأميرية، وكانت تتكون آنئذ من أربع كليات هى الآداب والحقوق والطب والعلوم، وكانت العلوم هى وحدها التى أنشئت إنشاء فى ذلك التاريخ ولم تكن متحولة عن معهد أو مدرسة أخرى، وضمت إليها بعد ذلك كليات أخرى: ثم أنشئت فى أوائل الأربعينيات جامعة الإسكندرية ثم جامعة عين شمس فى سنة ١٩٥٠ وتتابعت الجامعات فى مصر بعد ذلك فى أسيوط وطنطا والمنصورة والزقازيق، كما تتابع إنشاء الجامعات فى كثير من البلدان العربية فى العراق فى بغداد والموصل وفى سوريا وفى دمشق وحلب وفى الأردن وعمان وليبيا وتونس والجزائر والمغرب والكويت والرياض وغيرها، كما أنشئت المجامع اللغوية فى القاهرة وبغداد ودمشق للمحافظة على سلامة اللغة العربية وجعلها مسايرة للنهضة العلمية.

ومن أسف أن اللغة العربية ماتزال وئيدة الخطو لتكون لغة التدريس فى الكليات العملية خاصة باستثناء جامعة دمشق.

وقد آمن الكثيرون أن التدريس إنما كان بلغة أجنبية ضرورة مؤقتة لم يكن معدى عنها، وإنهم ليرقبون اليوم الذى يعم

فيه اتخاذ العربية لغة العلم : فالعربية لم تقصر عن اللحاق بركب العلم وإنما قصر أبناؤها :

وفى أوائل الثلاثينيات صدرت فى مصر مجلة علمية باللغة العربية وفيها دعوة صريحة لتحقيق هذا الهدف، وكان العدد الأول يحمل استفتاء بين كبار أعضاء هيئة التدريس وكلهم يجمع على تحقيق ذلك الهدف ، وتكونت جماعة أطلقت على نفسها اسم جماعة أنصار اللغة العربية كان هدفها تحقيق هذا العلم وتدريب أعضاء هيئة التدريس والطلاب على معالجة الموضوعات العلمية بلغة عربية سليمة . يتناولون فى محاضراتهم ومقالاتهم أحدث الموضوعات العلمية من كيميائية وجيولوجية وطبية وصيدلية ونباتية وحيوانية ورياضية وهندسية وطبيعية بلغة عربية لاعجمة فيها . لقد حدث كل ذلك آنئذ فى كلية العلوم بالجامعة المصرية، وكان للإنجليز فى ذلك الوقت سلطان ودولة لافى السياسة فحسب بل فى العلم والتعليم كذلك ومع ذلك فقد توافر لدى الكثيرين من أبناء العربية من القوة والشجاعة ماجعلهم ينادون بتعريب العلم : وإنى لأسجد لله شكرا أن عشت حتى أرى فجر هذا اليوم يبزغ وما أشك فى أن ضحاه قريب مادمنا نحمل هذه القلوب القوية والعزمات الفتية ومادام أبناء العربية فى أرجاء الوطن العربى يستهدفون وحدته ورقيه وقوته ومنعته ليكون وطنا كريما يشعر أبناؤه ويشرفون بالانتساب إليه :

وهاهم العلماء العرب يتزايد عددهم يوما بعد يوم يحاولون أن يعيدوا مجد أسلافهم من أمثال من ذكرنا ، وهاهم أولاء يعقدون المؤتمرات الطبية والصيدلية والهندسية والعلمية العربية فى كل رجا من أرجاء الوطن العربى من أقص شرقه إلى أقصى غربه تحت راية لغة الضاد – ليعلن عن حيويته الكامنه وليقود الإنسانية مرة أخرى إلى رحاب العلم والرفاهية والسلام، وأنه على ذلك لقدير ما اتخذ من العلم هاديا وإماما ومارفع راية الضاد بجعلها من مقومات ثقافته وحضارته بل وكيانه. ولامراء فى أن أولى مراتب الثقافة الرفيعةعلم المرء بلغته وقدرته على التعبير والإبداع العلمى فيها فى كل مرفق من مرافق الحياة .

ولا مراء فى أن مجمع اللغة العربية بالقاهرة وقد عاصرته زهاء ثلاثين عاما ، قدأدى هذا المجمع أعظم خدمة لتعريب العلم إذ خصص جانبا غير يسير من وقته وجهده لترجمة المصطلحات العلمية إلى اللغة العربية بعدأن جند لها الخبراء من الأساتذة المتخصصين كان يجتمع بهم اعضاء المجمع فى لجان واجتماعات تعقد بصفة منتظمة لهذا الغرض ثم يعرض ما تقرره اللجان على أعضاء المجمع مجتمعين فى صورة مجلس، ثم تعرض مرة أخرى على

هيئة المجمع فى صورة مؤتمر حين يعقد المجمع مؤتمرة السنوى ليناقش ويقرما انجزه المجلس من أعمال طيلة العام، . فكان مرورالمصطلح والتعبير العلمى بهذه الخطوات جميعا كفيلا بصقله وحسن صوغه .

وقد أقر مجمع اللغة العربيةألوف المصطلحات والتعبيرات العلمية فى مختلف فروع العلم نشر منها حتى الآن خمس عشرة مجموعة تضم بضع عشرات من ألوف المصطلحات فضلا عن عدد غير قليل منها يتضمنه المعجمان اللذان يصدرهما المجمع وهما الوسيط والكبير.

وقد ذهب فريق من المشتغلين بهذه المسألة إلى أنه لابد من إيجاد جذور عربية للكلمات والمصطلحات المراد ترجمتها والتعبير عنها، وأنه لا ينبغى أن تدنس العربية بعجمة أو لكنة وإنما تبقى مصفاة مطهرة وقد يبدو هذا الرأى وجيها لولا ان – هناك استحالة فى تنفيذه أو الأخذ به على أية صورة. فالمصطلحات العلمية فى تزايد مستمر بل إنها لتتكاثر كما يتكاثر الإنسان والنبات والحيوان، فيزيد عددها يوما بعد يوم وسنة بعد أخرى حتى أضحى مجرد حصرها مشكلة تعترض الفنيين والمتخصصين – وأضحت دور النشر تخرج علينا بين حين وآخر بمعاجم تتفاوت حجوما وأشكالا وتختلف فى لغاتها وطرائقها، فمنها ما يصور بلغة واحدة ومنها ما يصور بلغتين ومنها مايجمع بين ست لغات أو أكثر. فلاحقة هذا التكاثر بلغة عربية أصيلة يبدو ومستحيلا لأسباب ليس أقلها شأنا أن العرب لم تكن تعرف هذه الموضوعات وأن هذه العلوم جديدة حتى على الغربيين، وأن الكثير منها إنما رأى النور وعرفته الإنسانية فى مطالع هذا القرن بل وبعد أن تنصف، فمن أين تأتى الجذور العربية لهـذه المستحدثات والمستعدنات والنظريات التى لم يكن للعرب بها علم ؟ إننا نكلف العربية شططا ونكلف أنفسنا جهدا لا طائل تحته إن نحن صممنا على التنقيب فى بطون المعاجم عن أصول عربية للميكرسكوب والترمومتر والالكترون والنيترون والميزون وما إليها مما يعد بعشرات الألوف، وإذا نحن وجدنا جذرا عربيا لهذه الكلمة أو تلك علينا أن نجد لعشرات الألوف، فما علينا إلا أن نبحث وندقق فإن أسعفتنا المراجع ببغيتنا ، فبها ونعمت ، وإلا فنى التعريب متسع لهذه الألوف المؤلفة من المصطلحات و التعبيرات العلمية فى كل علم وفن. ويسعنا ماوسع الأقدمين من استعمال أريثماطيقا وميتافزيقا وجو مطريا وأسطرو نوميا وغيرها .

وإذا نحن اتفقنا على الترجمة العربية لكلمة فلعله من الواجب توحيدها وتعميم استعمالها فى الأقطار العربية بل التزام هذا الاستعمال، وإذا ترجمنا ميكروسكوب فهل نستعمل مجهر بصيغة اسم الفاعل أو مجهر بصيغة اسم الآلة أو نقول مجهار على وزن مفعال ؟

وإذا نحن ترجمنا كلمة ترمومتر فهل نقول ميزان الحرارة أو نستعمل اسم الآلة فنقول محرار على وزن مفعال أو نبقى

على ترمومتر تقريبا ؟فهذا كما نرى أمر محير تختلف فيه الآراء وتتباين فيه الأذواق .

توحيد الترجمة العربية للمصطلحات :

وهناك أوجه خلاف بين الدول العربية والمثقفين العرب بشأن هذه المصطلحات فالعراق والأردن ومصر لونتهم الثقافة الإنجليزيةحينا فتأثروا بها،وسوريا ولبنان وتونس والجزائر ثقافتها فرنسية فتاثرت مصطلحاتهم العلمية بالأصول الفرنسية للكلمات ، فلابد لنا اذن من الترجمة ثم توحيد هذه الترجمة: ولنضرب بعض الأمثلة لهذا التباين فى التعبير العلمى فى بعض البلاد فعلم الطبيعة كما نعرفه فى مصر يسمى فى سوريا والعراق والأردن ولبنان «فيزياء» والأولى ترجمة والثانية تعريب ،على أن التعريب ليس كاملا فالصحيح هو « فيزيقا » كذلك استعمله العلماء الأقدمون كما استعملوا أرثما طيقا للحساب ، وماثياطيقا للرياضيات وجو مطريا للهندسة،وهكذا، فكلمة فيزياء لم تلتزم فيها العربية الفصحى ولا التعريب السليم ولاعيب فى كلمة طبيعة الا احتمال الشبهة مع (nature) التى تترجم بنفس الكلمة « طبيعة » :

ونحن نقول فى مصر كما يقول أهل العراق بؤرة العدسة،ولكن الأقطار الأخرى تقول « المحرقة » ونحن فى مصر نقول بندول الساعة تعريبا لكلمة pendulum وفى العراق يقولون رقاص وفى سوريا « نواس » وفى الأردن «خطار»، فينبغى أن تختار الدول العربية ترجمة واحدة للمصطلح الواحد :

وفى مصر والعراق تطلق كلمة « طحلب » لتدل على alga على حين أنهم فى سوريا ولبنان يقولون « أشنة » أما اشنة فنستعملها فى مصر لكلمة lichen، على حين تقول الأقطار الأخرى طحلب .

وكلمة endosperm عربت فى مصر إلى اندوسبرم وترجمت فى بعض البلاد العربية الأخرى إلى سويداء .

وكلمة ecology ترجمت فى مصر إلى علم البيئة وفى أقطار أخرى إلى « علم المحيط » وفصيلة » Rutaceae ترجمت فى مصر إلى سذبية نسبة إلى اسم النبات الذى اشتق منه اسم الفصيلة واستعملت الأقطار الأخرى ليمونية نسبة إلى أشهر نباتاتها :

وكلمة nucellus ترجمت إلى « جويزة » فى البلاد العربية وعربت فى مصر إلى « لويسلة » .

وكلمة micropyle ترجمت إلى نفير فى مصر وفى البلاد العربية العربية إلى « بويب » :

ونحن فى مصر نقول « جرام » تعريبا لكلمة gram الإفرنجية وغيرنا يقول غرام :

ونقول مغنطيسية تعريبا الكلمة magnetism فعربنا الجاف بالجيم حينا وبالغين حينا آخر ونحن نقول ابجروسكوبى وآخرون يقولون ابغيروسكوبى . . . وهكذا :

وليست الترجمة العربية للمصطلح جامدة أبدا، فما أيسر أن تبين ان هناك ترجمة أو تعبيرا أفضل أن نعدل عن الأول إليه. فلم تكن الترجمة جامدة أبدا، فقد كانت الترجمة تعرض فى المقالات والبحوث وللدراسات فيصقلها ويصححها الذوق العام والاستعمال ومن أمثلة ذلك ترجمة المصطلح الذى يدل على درجة تركيز ايون الأيدروجين ويرمز له بالإفرنجية بالرمز pH ، فقدسمى أولا ـ ا الجهد : الأيدروجينى ثم الأس الأيدروجينى ثم عدل أخيرا إلى « الرقم الأيدروجينى » :

وكذلك تلك الظاهرة التى سميت حينا « ادمصاص » ثم عدل عنها إلى التجمع السطحى، وهاهى ذى يقرها المجمع اللغوى والذوق العام بين المشتغلين بالعلم إلى « امتزاز » ترجمة لكلمة adsorption .

ومصطلح غروى اتخذ ترجمة لكلمة colloid ثم عدل عنها إلى شبه غروى ثم إلى غراوانى :

وكذلك كلمة alkaloid عربت حينا إلى قلويد ثم ترجمت إلى شبه قلوى ثم إلى « قلوانى » وهكذا :

مصطلحات فى علم الطبيعة :

وهناك مصطلحات متقاربة المعنى متفاوتة المدلول لابد من تعريفها تعريفا دقيقا ولابد من وضع الترجمة الصحيحة لكل مصطلح يتميز بها عن المصطلح الأخر فالممانعة ، والمعاوقة ، والمقاومة ، قريبة فى معناها ولكن مدلولاتها متفاوته فوضعت :

الممانعه ترجمة الـ Reluctance

والمقاومة « الـ Resistance

والمعاوقة « الـ Impedance

ثم المجاوزه والمهاودة والمسايرة قريبة فى فى معناهاولكن مدلولاتها متفاوته فوضعت:

المجاوزة ترجمة الـ Permittance

المهاودة « الـ Susceptance

والمسايرة « الـ admittance

ثم المفاعلة ، والمنافذة ، والمواصلة ، والمحاثة قريبة فى معناها ولكن مدلولاتها متباينة فوضعت :

المفاعلة ترجمة الـ Reactance

والمنافذة « الـ Permeance

والمواصلة « الـ Conductance

والمحاثة « الـ Inductance

ثم ابتكرت صيغ جديدة لم تكن تستعمل كثيرا كالمصدر الصناعى فنقول :

الممانعية ترجمة الـ Reluctivity

وهى مقدار قابلية المادة المغنطيسية لتوصيل الفيض المغنطيسى وهى مقلوب المنفذية

والمنفذية ترجمة لـ Permeability

وهى النسبة بين كثافة الفيض المغنطيسى المنتج فى وسط ما إلى القوة الممغنطة المنتجة له ؛

والمجاوزية ترجمة لـ Permittivity

وهى النسبة بين الإزاحة الكهربية لوسط ما إلى القوة الكهربية المنتجة له

والمقاومية ترجمة لـ Resistivity

وتعنى المقاومة الحجمية للمادة ، ويقصد بذلك مقاومة جرم من تلك المادة طوله الوحدة ومساحة مقطعه الوحدة تسمى ايضا المقاومة النوعية

والمتأثرية ترجمة لـ Susceptibility

وهى النسبة بين شدة التمغنط إلى شدة المجال المغنطيسى فى الدائرة المغنطيسية

والمفاعلية ترجمة لـ Reactivity

والمعاوقية ترجمة لـ Impedivity

والموصلية ترجمة لـ Conductiuity

وهى خاصية للمادة بفضلها تسمح للتيار الكهربائى بالمرور خلالها إذا كان هناك فرق جهد وهى مقلوب المقاومية .

وكذلك تتقارب معانى الانحلال والتدهور والفساد والتفتت والتخلل وقد ترجمت على هذا النحو :

انحلال — Degeneration

تدهور — Deterioration

هدم — Destruction

تفتت — Disintegration

تحلل — analysis

فساد — Decay

مصطلحات طبية :

وابتكرت صيغ قياسية كثيرة فى المصطلحات الطبية

كأن نقول عصاب ترجمة للمصطلح Neurosis وهو مرض عصبى وظيفى لاتصحبه علامات عضوية ومن أنواعه :

(ا) عصاب القلق anxiety neurosis

(ب) عصاب أصابى Teaumatic neurosis

(ج) عصاب قلبى Cardiac neurosis

(د) عصاب كلالى Fatigue neurosis

(ه) عصاب متأخر Neurosis tarda

(و) عصاب انحصارى قسرى Obsessive compulsive

(ز) عصاب مهنى Occupatinal neurosis

وكذلك نقول عن المرض الجلدى — جلاد Dermatosis

وعن مرض الصدفية ، صداف Psoriasis

ونقول بواغ الشعر Sporotrichosis

والوزام الذهمى Stratomatcsis

وفطار الشعر Trichomiyris

وعقاد الشعر Trichonosdis

والعراق المصن Asmidiosis

والعراق الفسفورى Phospheriodrosis

والطعام Cehunosis

وترجم إلى العمه الحسى مصطلح Agnesis وهو القصور عن تمييز الاشياء وانواعه

(أ) عمه سمعى Auditory agnosis

(ب) عمه بصرى Optic agnosis

(ج) عمه لمسى Tactile agnosis

وترجم إلى العمه الحرفى المصطلح Apratia وهو عدم القدرة على الاتيان بحركة ذات قصد .

وهناك عشرات من الأمثلة لهذه المجاميع من الكلمات أو المصطلحات التى تتقارب فى معانيها وتتفاوت فى دلالتها ومن أسف أن المراجع الأجنبية كثيرا ما تستعمل الكلمة الواحدة لأكثر من معنى ومدلول . فكان على المترجم أن يحتاط كذلك. ومن حسن حظ العربية أنها غنية جدا بالمترادفات ، وأن فقهها من أغنى لغات الأرض بالمدلولات والألفاظ والأقيسة ، وكانت الطريقة الوحيدة هى جمع هذه الأشياء وتسليط الأضواء عليها واستنباط المدلولات الحقيقية لها ، والغوص فى المعاجم لاستخراج الكلمة الملائمة ، وتعميم الاستعمال والتزامه .

الوحدات والرموز والثوابت :

وهناك صعوبة الوحدات والمواصفات والمقاييس واستعمال الرموز المناسبة لكل وحدة. وتميزت اللغات الأجنبية بالخطوط المتغايرة فالرومانى والإغريقى والايطالى والخفيف والثقيل والكبير والصغير لكل صورة مما جعلنا نحصل على مئات الصور — للحروف الأجنبية ومن حسن الحظ ان الخط العربى هو أيضا متعدد الصور فهناك النسخ والرقعة والثلث وما إلى ذلك فنجد مثلا هذه الصور :

الكاف — ك ك ك ،

الميم — م م م

النون — ن ن ن ن

الجيم — ج ج ج ج

السين — س س س س

القاف — ق ق ق ق

الياء — ى ى ى ى

الراء — ر ر ر ر

فكان علينا أن نؤلف بين هذه الحروف لنجد الرموز الكافية لمئات الوحدات والمقاييس والعناصر. فهناك رموز للثوابت مثل ثابت سرعة الضوء ثابت افوجادرو ، ثابت فراداى ، ثابت شحنة الإلكترونات ، ثابت الجاذبية وثابت لكتلة الإلكترون .

وهناك وحدات المقاييس من طول وعرض وارتفاع ونصف القطر والقطر والزاوية والمساحة والحجم .

ووحدات الوقت والزمن والتردد والسرعة وطول الموجة والتسارع والكثافة والعزم والشغل والقوة والوزن والضغط والطاقة والقدرة والكفاءة والشد والثنى والانحراف والالتواء والاحتكاك واللزوجة والولاء والتوتر والتيار والمقاومة والحث والسعة والفيض والجهد والمقاومة والممانعة والمجاوزة والمواصلة والإضاءة .

ثم معاملات الانكسار والانحراف ودرجات الحرارة والتمدد والموصلية والعدد الذرى والوزن الذرى والتكافؤ والتحلل والتأين .

ثم المتر والمليمتر والسنتمتر والميكرون والمليلتر والثانية والدقيقة والساعة والسيكل والكيلو سيكل والجرام والمليجرام والكيلو جرام .

والسعر والكيلو سعر والواط والفولط والأمبير والجول والقنديلة والكولومب والفولط كولومب والفولط أمبير والهنرى والفاراد والكورى والميكروكورى ، والبوصة والقدم والياردة والجالون والحبة والأوقية والباوند والباوندال والحصان . . إلخ .

هذه أمثلة لوحدات لاتجاوز المائة وهناك ثوابت غيرها لايتسع المقام لذكرها عدا أكثر من مائة من العناصر الكيميائية ينبغى أن يتفق على رموز من حروف عربية لها وقد قال قوم بالإبقاء على الوحدات والرموز الأجنبية إلا أن هذا الرأى قد رفض ورؤى التزام العربية والمعادلات الكيميائية روئى تعريبها هى الأخرى مادامت الرموز قد عربت جميعها .

وتتبين الصعوبة إذا عرفنا أن القدرة والقطر وقوة المجال المغنطيسى والقوة الدافعة الكهربائية والطاقة والدقيقة كل هذا وغيره كثير يرمز إليه بالحرف ق ولابد من التمييز بينها فقد يقع اثنان أوأكثر فى معادلة واحدة . كذلك المساحة والسعة وستوكس وغيرها يرمز لها بالحرف س . والشدة والشغل والشحنة ومعامل الانتشار وغيرها يرمز لهابالحرف ش والتردد والتيار والتورك (عزم الدوران) والوقت ومعامل الانتقال وثابت سرعة التفاعل يرمز لها بالحرف ت :

وعدد أفوجا درو والزمن وثابت الدوران وعدد اللفات وعدد الجزئيات والسعة الحرارية للجزئ وعدد الانتقال ووحدة نيوتن كل ذلك يرمز له بالحرف ن .

وهكذا من عشرات الأمثلة التى يرمز فيها الحرف الواحد لعدد كبير من الأحداث والثوابت والمعاملات وما إليها من وحدات ومقاييس عالمية مغيرة ينبغى أن توجد لها مقابلات بالأحرف العربية فضلا عن أن الحرف الواحد قد يرمز إلى أكثر من عنصر كيميائى واحد فالزئبق والأزوت والزرنيخ قد يكون رمزها جميعاً فضلا عن أن حرف ز نفسه يرمز به لعدد آخر من الوحدات مثل وحدة إزاحة التيار ومعامل الاسموز وما أشبه .

لذلك كان لا بد من اختيار صور مختلفة للحرف الواحد فضلا عن ضرورة الجمع بين حرفين أو أكثر منعاً للبس وكذلك الإبقاءفى بعض الحالات علىالحروف الإغريقية كرموز بعض الوحدات العالمية المعبرة أو الرموز الرياضية حيث بدأ صعبا أحياناً إيجاد رموز منحروف عربية موحدة ولا بد أن يمضى بعض الوقت حتى تتكامل طريقة سوية مبرأة من المآخذ بعدأن يصقلها ويصححها ويسبغها الرأى العلمى العام والذوق العام وبعد أن تعيننا المطابع والمسابك

على إيجاد الصور المطلوبة للحروف وقد جربت صور مختلفة لخطوط النسخ والرقعة والثلث والفارسى والكوفى بل وحروف التاج التى ابتدعت حيناً ثم عدل عنها .

وعلى الذين يقولون بالإبقاء على الرموز والمعادلات والحروف الافرنجية ويضربون أمثلة على ذلك باللغات الأوروبية المختلفة التى اتفقت على الرموز نفسها فى هذه اللغات فاتهم أن الحروف فى هذه اللغات جميعا متشابهة إلى حد كبير ، فضلا عن أنها تكتب جميعاً من اليسار إلى اليمين فإذا فرضناها فى كتاباتنا وبين سطورنا العربية جاءت نشازا .

وفى علوم الحياة أقر مجمع اللغة العربيه قاعدة موحدة للتصنيف كما وضع قواعد لترجمة وتعريب أسماء المواليد والأعيان من نبات وحيوان فأقر حلقات التصنيف الآتية :

عالم	Kingdom
عويلم	Sub-Kingdom
شعبة	Phylum
شعبية	Sub Phylum
طائفة	Class
طويئفة	Sub-Class
رتبة	Order
رتيبة	Sub-Order
فصيلة	Family
فصيلة	Sub-Faniły
قبيلة	Tribe
قبيلة	Sub-Tribe
جنس	Genus
جنيس	Sub Genus
نوع	Species
نويع	Sub-Species
ضرب	Variety
سلالة	Race
عترة	Strain
فرد	Indvidual

وقد أزالت هذه الأسماء التى اتفق عليها وأقرها مجمعنا الموقر أزالت حيرة كانت شائعة لدى مؤلفى كتب المواليد، وأصبح اليوم كل اسم عربى يدل اصطلاحيا على حلقة واحدة من حلقات التصنيف على غرار الأسماء الأعجمية المقابلة لها ، واضح أن أسماء حلقات التصنيف هذه تعد من أسماء المعانى، وأنها ترجمت إلى العربية ولم تكن الصعوبة فى الترجمة، ولكن فى تخصيص كل حلقة باسم عربى واحد راجح وهذا ما أقره المجمع : وهو قرار خليق بأن يتبع مهما يكن للبعض من آراء أخرى فى هذه المسميات وذلك لأن فيه خلاصا من فوضى تعدد الأسماء لكل حلقة واحدة من حلقات تصنيف المواليد :

وقد أقر المجمع القواعد الآتية فى ترجمة وتعريب أسماء المواليد والأعيان :

الأولى: ترجمة الألفاظ العلمية بمعانيها هو المجال الأوسع فى حلقات التصنيف العليا وهى الشعب والطوائف والرتب :

الثانية: أسماء القبائل والفصائل النباتية أو الحيوانية تكون عربية أو معربة على حسب اسم النبات أو الحيوان الذى تنسب إليه :

الثالثة: اجناس المواليد التى ليس لها اسماء عربية تعرب اسماؤها العلمية اذا كانت منسوبة إلى الأعلام وتترجم بمعانيها إذا أمكن ترجمتها فى كلمة عربية واحدة سائغة وإن لم يكن ذلك ممكنا رجح تعريبها .

الرابعة: لا مجال للتعريب فى الألفاظ العلمية الدالة على أنواع النبات لأن جميع ألفاظها أو معظمها نعوت أو صفات تترجم ترجمة فى جميع اللغات الحية .

الخامسة: يوجد مجال للترجمة أو التعريب جميعا فى الألفاظ الدالة على السلالات والأصناف أو الضروب :

السادسة : لا مجال للنحت ولا للتركيب المزجى فى تصنيف المواليد ولا حاجة إليهما وفى اللجوء إليهما تشويه للغة العربية :

ومع ذلك فقد رأى المجمع ضرورة الازدواج أى ذكر الأسماء العلمية اللاتينية فى الدراسات العليا وفى حالة احتمال أى لبس .

فمثلا لا مجال للتعريب فى الفقاريات والأسماك والبرمائيات والزواحف والطيور والثدييات فى رتب الحيوان : كذلك لا مجال للتعريب فى غشائية الأجنحة وحرشفيات الأجنحة وذوات الجناحين ونصفيات الأجنحة وما إليها من رتب الحشرات وكذلك للنباتات الزهرية واللازهرية وذوات الفلقتين وذوات الفلقة الوحدة وكاسيات البذور وعاريات البذور وما إليها :

فهذه جميعا ترجمات معقولة مقبوله مستساغة فلا معنى للتعريب هنا مطلقا، وكذلك نقول فى الفصائل النباتية النخيلية والنجيلية والزنبقية والنرجسية والسحلبية والخبازية ، وكذلك أسماء الأجناس كالقمح والشعير والخردل والقطن والورد وما إليها .

أما النوع ، فينبغى إن دل على صفة بعينها أن نردف الاسم المتفق عليه باللغة العربية بالاسم العلمى كاملا، ويتعين ذلك خاصة فى الحالات التى تختلف فيها المسميات. فالبطاطس فى مصر هى البطاطا فى سوريا والخوخ هو الدراق والكمثرى هى الإجاص . بل إن الديس والبوط والبردى أسماء مختلفة لنبات واحد، ولكنه يعرف بأسماء مختلفة فى الجهات المختلفة فى كل هذه الحالات وفى مجال البحث العلمى والكتابات العلمية يتعين الازدواج وذكر الاسم العلمى باللغة اللاتينية .

فى الجيولوجيا :

وفى المصطلحات الجيولوجية تسعفنا العربية بألفاظ تحدد الفروق الدقيقة بين درجات متفاوتة من النور والظلمة والعمق والضحاله والملوحة والعذوبة والبرى والتفتت والتشقق

والانفصال والانفصام وما إلى ذلك، فإذا بها معطاء كأجزل ما يكون العطاء :

فنجد النور والغسق والدغش والغبق والإظلام

كما نجد الضحل والغائر والعميق والسحيق

وفى مدى استجابة الصخور ورد الفعل فيها بالنسبة للحركات الأرضية :

فاصل وتفصل	Joint, jointing
صدع وتصدع	Fault, faulting
شق ، تشقق	Fracture, fracturing
دسرة ، ودسر	Thrust, thrustring
تفلق	Cleavage
إنزلاق	Slipping
تزحلق	Sliding
زحف	Creeping

وفى باب الطى

طية وطى	Fold, folding
ثنية وثنى	Pliating
تعرج	Corrugation
قبة ، تقبب	Dome, doming

وفى درجات ملوحة الماء نقول ،

ماء عذب	Fresh water
ماء مسوس	Brackish water
ماء ملح	Saline
ماء زعاق	Hypersaline water
ماء أجاج	Brine

وفى باب ما يشبه :

غراواتى	Colloid
بلورانى	Crystalloid
فلزانى	Metalloid
سكرانى	Saccharoid
كروانى	Spheroird
دلتانى	Deltoid

وفى موضوع البرى والسحج والتحات والتآكل نقول :

البرى أو السحج	Abrasion
التحات	Erosion
التأكل	Corrosion

ونقول

صواعد	Stalagmites

وهى أعمدة من كربونات الكلسيوم ترسبت فى أرضية الكهف بسبب بخر الماء متجهة إلى أعلى :

وهوابط	Stalactites

وهى أعمدة من كربونات الكليسوم مدلاة من سقف الكهف بسبب بخر الماء متجهة إلى أسفل، وهى صيغ عربية سليمة ما أظن أن الأقدمين قد استعملوها :

وفى مراتب ومراحل الزمن الجيولوجى نقول ؛ الدهر والحين والحقب والعصر والبرهة واللحظة

١ ــ الدهر Eon

أطول مرحلةمن مراحل الزمن الجيولوجى لا يقل مداها عن عدة مئات قد تصل إلى ألف أو أكثر من ملايين السنين .

٢ ــ الحين Era

أطول مراحل العصر فى الزمن الجيولوجى ويقاس مداها ببضعة ملايين من السنين (لا يتجاوز العشرة عادة)، ويتميز كل حين من الأحيان الجيولوجية بفصائل أجناس حيوانية ونباتية مميزة يبيد معظمها مع نهايته .

٣ ــ الحقب Period

المدة من الزمن ترسبت أثناءها صخور المجموعة ، وتقدر بمئات الملايين من السنين

٤ ــ العصر Age

أطول مرحلة من مراحل الحقب ويقاس مداها بعدد قليل من عشرات الملايين من السنين . ويتميز كل حقب برتب وفصائل حيوانية ونباتية تنقرض أغلبها أو تقل أهميتها الجيولوجية مع نهاية الحقب .

٥ ــ البرهة Hemera

مرحلة من الزمن الجيولوجى يقاس مداها بمئات الآلاف من السنين ويندر أن يبلغ مداها أكثر من مليون سنة . وهى أطول مرحلة ينقسم إليها حين من الأحيان الجيولوجية ويتميز بازدهار نوع معين أو عدة أنواع معينة من الحيوانات أو النباتات تنقرض أو تقل فى الأهمية الجيولوجية كثيرا مع نهايتها .

٦ ــ اللحظة Moment

أقصر مراحل الزمن الجيولوجى وأصغر وحداته ولا يتجاوز مداها بضع عشرات من آلاف السنين، ويتميز بسيادة نوع معين من الكائنات خلالها أو بمرحلة معينة من تاريخ هذا النوع .

ولم تسمح وسائل تقسيم الأحقاب إلى عصور إلا فى الأحقاب الثلاثة الأخيرة فقط التى تتبع دهر الحياة الظاهرة .

جهود مجمع اللغة العربية :

وإذا نحن عرضنا للهيئات التى كان لها الفضل فى هذه الحركة المباركة من تطويع للغة العربية للاستعمال فى التعبيرات والمصطلحات العلمية فإننا لنضع على رأسها مجمع اللغة العربية . فهو الذي يسر الأمر بجهود أعضائه وخبرائه من أساتذة الجامعات المتخصصين، فهم جميعا قوم عاكفون على صون اللغة وسلامتها وهى الضمان الوحيد للتفاهم الصحيح بين قطان الوطن العربى إذ أن العامية واللهجات المختلفة لا يستقيم بها تخاطب ولا تفاهم وإنما يكون ذلك باللغة العربية السلمية التى يحافظ عليها وينميها مجمع اللغة العربية بأعضائه ولجانه وخبرائه، وكانت حصيلة جهوده فى هذا المجال خمس عشرة مجموعة تضم عشرات الألوف من المصطلحات فى العلوم المختلفة .

المجمع المصرى للثقافة العالمية :

وأذكر بالتقدير المجمع المصرى للثقافة العلمية وقد عاصرته منذ إنشائه منذ نيف

وأربعين عاما لا أذكر أنى تخلفت عن محاضرة من محاضراته أو مؤتمر من مؤتمراته الا لعذر قاهر طارئ، لقد جعل من أهم أغراضه تعريب العلم ونشر الثقافة العلمية باللغة العربية، وقد حقق هذا الغرض كاملا بما نشر وأذاع من كتب ومحاضرات، وبما ترجم وعرب وناقش من موضوعات هى من صميم الموضوعات العلمية نشرها على الناس بلغة عربية سليمة. لقد استحق أعضاؤه ومؤسسوه كل تقدير أن أسهموا بأوفى نصيب فى خدمة اللغة العربية وتطويعها للتعبير العلمى .

ولا ننسى المؤتمرات العلمية العربية التى نظمها الاتحاد العلمى العربى والمؤتمرات العلمية العربية والمؤتمرات الطبية العربية التى عقدت فى العواصم العربية منذ عشرين عاما فقد عقد المؤتمر الأول فى الإسكندرية سنة ٥٣ وكان الثانى فى القاهرة سنة ٥٥ والثالث فى بيروت سنة ٥٧ والرابع فى القاهرة سنة ٦١ والخامس فى بغداد سنة ٦٦ والسادس فى دمشق سنة ٦٩ والسابع فى القاهرة سنة ١٩٧٣ . لقد عرضت من بين ما عرضت لموضوعات المصطلحات وأوصت من بين ما أوصت بضرورة الإسراع فى وضع معجم علمى عربى موحد أعد له نحو مائة ألف مصطلح روجعت جزازات نحو ثلثها ومن أسف أن توقف العمل فيه، وكان ذلك فى كنف وزارة البحث العلمى ثم أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا .

وكذلك عقدت مؤتمرات طبية عربية كثيرة كونت هيئة لترجمة المصطلحات كانت نواة لتأليف لجنة المصطلحات الطبية بمجمع اللغة العربية .

وينبغى أن نذكر بالشكر جهود أخرى بذلتها جامعة الدول العربية حين جمعت الإدارة الثقافية بها — جمعت المصطلحات العلمية التى تستعمل فى المدارس الثانوية وعملت على توحيد ترجمتها فى الأقطار العربية، فجمعت مئات المصطلحات مما يستعمل فى الرياضيات والكيمياء والطبيعة والنبات والحيوان وعرضتها على المختصين فى البلاد العربية، وقد أقرت الترجمة العربية الموحدة فى المؤتمرات العلمية .

خبير أجنبى :

ولعلنا أن نذكر فى هذا الصدد جهود خبير أجنبى هو السيد « جمبلت » الذى استقدم بمعرفة اليونسكو إبان انعقاد المؤتمر العلمى العربى الثانى سنة ١٩٥٥ وأمضى بمصر ستة أشهر عكف فيها على جمع نحو ألف وأربعمائة مصطلح فى علم الطبيعة جميعها وتعريفها من المعاجم المعيرة وفرقها فى جذاذات وزعت على المختصين لترجمتها ثم جمعت فى كتاب يقع فى جزأين عرضت بعد ذلك فى المؤتمر العلمى العربى الثالث فى بيروت، وقد أشار الخبير بمعالجة المصطلحات جملة حسب الموضوعات لا فرادى حسب الترتيب الأبجدى، كما أشار بإنشاء مكتب خاص للمصطلحات وباستعمال النظام العشرى العالمي فى تنسيقها وتبويبها .

مكتب تنسيق التعريب :

وها هو ذا مكتب التعريب يقوم بدوره فى هذا المجال وقد أخرج حتى الآن عددا من المجموعات التى تضم ألوف المصطلحات

ولعلنا أن نذكر كذلك عددا من المعاجم كان لها أثرها فى تذليل الصعاب مثل معجم شرف للمصطلحات الطبية والعلمية ومعجم المعلوف للحيوان ومعجم عيسى للنبات ومعجم الألفاظ الزراعية للأمير مصطفى الشهابى ثم معجم المصطلحات الفنية الذى يضم نحوا من خمسة وثلاثين الف مصطلح فى العلوم الميكانيكية والهندسة والرياضة والطيران والبحرية وما إليها :

وهناك المعجم العسكرى الموحد الذى أشرفت على إصداره جامعة الدول العربية ويضم نحو ثمانين الف مصطلح .

ولعله قد آن الأوان لتنسيق هذه الجهود جميعا والعمل على إصدار معجم علمى عربى موحد، وهو ما أوصت به المؤتمرات العلمية العربية المختلفة، وكذلك العمل على إصدار دورية علمية عربية تكون مدرسة لكبار المتخصصين لنشر الثقافة العلمية الرفيعة والموضوعات العلمية المتخصصة الدقيقة .

خاتمة :

وخلاصة القول أن اللغة العربية قد أثبتت قدرتها على التعبير العلمى وعلى نقل المصطلحات العلمية الدقيقة إليها، وانها قادرة على ملاحقة التقدم العلمى فى مختلف مجالاته، لولا هذا التعويق الذى يأتى عن طريق نفر من أبنائها لا يصبرون على لأوائها، يستسهلون استعمال اللغات الأجنبية فيظن شبابنا أن هذه العلوم مستوردة من الخارج مع أنها بضاعتنا ترد إلينا، ومع أننا نحن العرب أهل أصالة وأثالة فيها :

ومن الحق أن نقول إن التعليم فى كل بلاد العالم باللغات القومية لتلك البلاد ، فيما عدا قلة ضئيلة تلك التى تعددت فيها اللغات الإقليمية أو التى خضعت للاستعمار الأجنبى ردحا طويلا ، فاضطرت لاتخاذ لغة المستعمر لغة رسمية وتعليمية لها .

ونحن فى وطننا العربى لا نستطيع أن نحقق ديمقراطية التعليم مالم يكن باللغة القومية، ولست أدرى إذا لم تكن العربية هى لغة التدريس فى الجامعات العربية، فلماذا يتعين أن تكون الإنجليزية أو الفرنسية إن استعمال اللغة العربية فى التعليم الجامعى إنما هو وسيلة أكيدة للابداع العلمى وربط الجامعة بالمجتمع ورفع المستوى الثقافى والعلمى للأمة العربية ومنع الانفصال بين التفكير والتعبير . ولا مراء فى أن الدعوة إلى بناء المجتمع العربى تبقى ناقصة إذا أغفلت التركيز على اللغة العربية باعتبارها المقوم الرئيسى للوجود العربى. وليس معنى اتخاذ العربية لغة للتدريس فى الجامعات والمعاهد عدم العناية باللغات الأجنبية بل على النقيض ان ذلك ادعى لمضاعفة الجهد فى سبيل تقوية الطلاب فى اللغات الأجنبية

وذلك لمتابعة الاطلاع على المنجزات العلمية بلغاتها الأصلية .

وإذا كان قد غدا من العسير ملاحقة التقدم العلمى الهائل حيث ينشر أكثر من مليونين من البحوث العلمية المبتكرة سنويا فى أربعين لغة، فلا أقل من ملاحقة ماينشر باللغات الأجنبية الأكثر شيوعا كالإنجليزية والفرنسية والروسية والألمانية إلى جانب ألوف الكتب العلمية التى تنشر بهذه اللغات وإنما يكون ذلك بتقليد مافعله الرشيد والمأمون من إنشاء ديوان للترجمة فى بيت الحكمة فى العصر الذهبى للحركة العلمية [فى العصر الإسلامى :

والآن وقد ثبتت قدرة اللغة العربية على التعبير العلمى، فحبذا أن يوصى مؤتمرنا بالآتى :

١ — أن تكون العربية لغة التدريس فى جميع الجامعات والمعاهد العربية .

٢ — الإسراع فى إصدار معجم علمى عربى موحد :

٣ — إنشاء ديوان للترجمة تحشد له أرقى الكفايات العلمية لنقل البحوث والكتب العلمية إلى اللغة العربية :

٤ — تأكيد العناية بتدريس اللغة العربية واللغات الأجنبية فى المدارس والجامعات والمعاهد .

وبعد ، فإنه مما يشرف جيلنا أن ننفى عن العربية تهمة الجمود والقصور، وأن نجعلها لغة العلم كما فعل أسلافنا فى الزمن الماضى ، حين جعلوا منها لغة للنشر العلمى العالمى، وعنها نقل أهل أوربا علوم العرب وفنونهم . . ولولا هذه الإغفاءة التى طالت بضعة قرون لكان الحال غير الحال ، ولاستمر قصب السبق فى أيدينا ، ندل به على من نشاء ، وهانحن ننضوثوب الخمول ونركض نحو المجد وثبا نريد أن نستعيد مجد السلف وأن نلحق بالركب ونشارك فى بناء صرح المدنية والحضارة ونحن الألى أسسنا بناءه وأقمنا دعائمه فى سالف الأزمان ونمد نهر المعرفة برافد من أعذب روافده وأغزرها مادة وأسلسها أسلوبا وأفصحها بيانا ، إنها معرفة علمية صيغت بلغة الضاد يقرؤها مائة مليون من الأنفس هم قطان الوطن العربى نريد لهم وحدة قوية عزيزة ، محاطة بسياج من العلم ، سداها العلم ولحمتها العلم ولغتها العربية الفصحى والله ولى التوفيق والسلام ،،،

عبد الحليم منتصر
عضو المجمع

معنى (كاد) في الإثبات والنفى

للدكتور أحمد الحوفى

يتردد الفعل (كاد) مثبتا تارة

ومنفيا تارة ، فما معناه فى الحالين ؟ أوثر ألا نتعجل الجواب ، بل نستأنس أولا بآراء النحاة ، ثم نعتمد على القرآن الكريم وعلى الشعر القديم فى تعرف الدلالة الحقيقية للفعل كاد فى الإثبات وفى النفى .

اولا (فى النحو) :

١ – قال جمهور النحاة إن كاد وكرب وأوشك وضعت للدلالة على قرب الخبر ، وإن كان قربه لا يستلزم وقوعه ، بل قد يستحيل وقوعه كما فى قوله تعالى : « يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار » .

فإذا قال قائل : كاد زيد يبكى ، فمعناه قارب زيد البكاء ، أى أن مقاربة البكاء ثابتة ، ولكن البكاء نفسه منتف .

وقد عَبَّر الفراءُ والأزهرى عن هذا بأن إثبات كاد نفى ، أى نفى لوقوع الخبر ، لأنك إذا قلت : كدت أبلغ إليك ، فمعناه أنك قاربت البلوغ ولم تبلغ .

٢ – أما كاد المنفية نحو قولنا : لم يكد الثمر ينضج ، فمعناه عند الجمهور أنه لم يقارب النضج ، أى أن المقاربة منفية ، والنضج نفسه منتف انتفاءً أبعد من قولنا : كاد الثمر ينضج ، وبهذا فسر الأخفش قوله تعالى : « إذا أخرج يده لم يكد يراها » بأنه لا يراها .

على حين أن الفراء والأزهرى يذهبان إلى أن نفيها إثبات ، فإذا قلت : ما كدت أبلغ إليك ، فمعناه أنك قد بلغت[1] .

---

(١) شرح الأشمونى ٢ / ٩١ – ١٠٣ وشرح ابن يعيش ٧ / ١٢٤ ولسان العرب مادة "كيد" .

ثانيا (كاد فى الاثبات) :

(١) فى القرآن الكريم

١ ـ قال تعالى : « ولما رجع موسى إلى قومه غضبانَ أَسِفًا قال : بئس ما خَلَفْتمونى مِنْ بَعْدِى ، أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ ربكم ؟ وأَلْقَى الألواح ، وأَخذ برأس أخيه يَجُرُّهُ إليه ، قال : ابنَ أُمَّ إنَّ القوم استضعفونى ، وكادوا يقتلوننى ، فلا تُشْمِتْ بى الأعداء ، ولا تجعلنى مع القوم الظالمين [1] » .

فما معنى كاد هنا ؟

المعنى أننى لم آل جهدا فى معارضتهم ووعظهم وإنذارهم ، لكنهم غلبونى على أمرى ، ولم يبق إلا أن يقتلونى ، وقد قاربوا ذلك .

٢ ـ وقال سبحانه : « لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتَّبعوه فى ساعة العُسْرة مِنْ بَعْدِ ما كاد يَزِيغُ قلوبُ فريقٍ منهم ، ثم تاب عليهم إنه بهم رءُوف رحيم [2] » .

فقد كان المسلمون فى غزوة تبوك فى ضيق شديد ، لأن رواحلهم قليلة ، وأزوادهم ضئيلة ، وكان ماؤهم نَزْرا ، حتى إنهم نحروا الإبل واعتصروا فروثها ، وكان الحر شديدا ، ولهذا كادت قلوب بعضهم تنصرف عن ثباتها على الإيمان ، أو تنصرف عن اتباع رسول الله فى الخروج معه فى تلك الغزوة .

ومعنى هذا أن قلوب هذا الفريق لم تزغ ، بل قاربت أن تزيغ .

٣ ـ وقال تعالى : « وإن كادوا لَيَفْتِنونك عن الذى أوحَيْنا إليك لتَفْتَرِىَ علينا غيره ، وإذاً لا تَّخذوك خليلًا . ولولا أن ثَبَّتناك لقد كِدْتَ تَرْكَنُ إليهم شيئا قليلًا [3] » .

وذلك أن ثقيفا أو قريشا عرضوا على النبى صلى الله عليه وسلم أن يسلموا لكنهم اشترطوا شروطا ، ولولا أن الله تعالى ثَبَّت النبى وعصمه لقارب أن يميل إلى الرضا بشروطهم ، لشدة رغبته فى إسلامهم .

٤ ـ وقال سبحانه : « وقالوا اتَّخذَ الرحمنُ ولدا . لقد جئتم شيئا إدًّا ، تكاد السماوات يتَفَطَّرْنَ منه ، وتَنْشَقُّ

---

(١) سورة الأعراف ١٥٠

(٢) سورة التوبة ١١٧

(٣) سورة الإسراء ٧٣ ـ ٧٤

الأرضُ ، وتَخِرُّ الجبال هَدًّا ، أنْ دَعَوْا للرحمن ولدا »[1] .

أى أن نسبتهم ولدا إلى الله تعالى كلمة شنيعة فظيعة ينكرها العقل السليم ، وتبرأُ منها الجمادات ، وتوشك أن تنفطر وتنشق وتخر من هول هذه الفرية وبطلانها .

٥ ـ وقال تعالى : « الله نورُ السماوات والأَرض ، مَثَلُ نورِه كمِشْكاةٍ فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجةُ كأَنها كَوكَب دُرِّىٌّ يُوقَدُ منْ شجرةٍ مباركةٍ زيتونةٍ لا شرقيةٍ ولا غربيةٍ يكاد زيتها يضيءُ ، ولو لم تمسَسه نار ، نورٌ على نور ، يَهدِى الله لنوره من يشاءُ ، ويَضْرِبُ الله الأَمثالَ للناس ، والله بكل شىءٍ عليم »[2] .

أى أن الزيت بسبب صفائه وبريقه ولمعانه يقارب أن يضىء من غير نار .

٦ ـ وقال سبحانه : « أَلم تر أَن الله يُزْجِى سحابا ، ثم يُؤلِّف بينه ، ثم يَجْعَلُهُ رُكاماً ، فترى الوَدْقَ يَخْرُج منْ خلالِه ، ويُنزِّلُ من السماءِ من جبال فيها مِنْ بَرَدٍ ، فيصيب به مَنْ يشاءُ ، وَيصْرِفُه عَنْ مَنْ يشاءُ ، يكاد سَنَا بَرْقِه يَذْهبُ بالأَبصار »[3] .

ومعنى هذا أن ضوء البرق يقرب من أن يخطف الأَبصار ، ولا يخطفها .

٧ ـ وقال تعالى : « وإذا رأَوك إنْ يتَّخذونك إلا هُزُوًا . أَهذا الذى بَعَثَ اللهُ رسولا ؟ إنْ كاد ليُضِلُّنا عن آلهتنا لولا أَنْ صَبَرْنا عليها ، وسوف يَعْلمون حين يرون العذابَ مَنْ أَضلُّ سبيلاً »[4] .

ويتبين من الآية أَن النبى عليه الصلاة والسلام بذل أَقصى جهده فى دعوتهم إلى الإسلام ، مع عرض المعجزات عليهم حتى شارفوا أَن يتركوا دينهم ويسلموا ، لولا فرط لجاجهم واستمساكهم بعبادة آلهتهم .

٨ ـ وقال سبحانه : « وأَصبح فؤادُ أُمِّ موسى فارغا ، إنْ كادتْ لتُبْدِى به ، لولا أَنْ ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين »[5] .

---

(١) سورة مريم ٨٨ ـ ٩١ (٢) سورة النور ٣٥ (٣) سورة النور ٤٣
(٤) سورة الفرقان ٤١ ـ ٤٢ (٥) سورة القصص ١٠

أى أن أم موسى لما سمعت بوقوع موسى فى يد فرعون طار صوابها من شدة الجزع حتى قاربت أن تجهر بأن موسى ابنها ، لولا أن الله تعالى ألهمها الصبر لتكتم الخبر ، ولتكون من المصدقين بوعد الله لها فى قوله « إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين » .

أو أنها حينما سمعت أن فرعون عطف عليه وتبناه كادت من شدة فرحها تبوح بأنه ابنها ،لولا أن الله ثبتها وألهمها الصبر.

(٢) فى الشعر :

١ ــ قال أبو صخر الهذلى :

تكاد يَدِى تَنْدَى إذا ما لمستُها
وينبت فى أطرافها الورق النّضْر[1]

فهو يصور سعادته إذا لمستها يده بهذه الصورة ، وهى أن يده تقرب من الإيراق الجميل .

٢ ــ وقال قيس بن ذَرِيح :

وَعَّذبه الهوى حتى براه
كَبْرِىِ القَيْنِ بالسَّفَنِ القِداحا
وكاد يذيقه جُرَعَ المنايا
ولو سَقَّاه ذلك لا ستراحا[2]

أى أن الحب هزله وقارب أن يسقيه جرع الموت ، وهو لم يسقه إياها ، لأنه لو شربها لاستراح ، وما قال ولو سقاه ذلك لاستراح .

٣ ــ وقال رجل من بنى جَعْدة :

إذا دعا باسمها داعٍ ليَحْزُننى
كادتْ له شُعْبَةٌ من مهجتى تَقَعُ[3]

أى أوشكت وقربت أن تقع .

٤ ــ وقال رجل من قيس :

وفيهن مِنْ بُخْتِ النساءِ رِبَحْلَةٌ
تكاد على غُرِّ النساءِ تَرُوقُ[4]

فهى فى نظره لم تفق النساء الحسان ، بل قاربت أن تفوقهن ، وهو بهذا التعبير صادق ، لأنه يعلم أنها لم تفق النسوة الحسان جميعا .

ثالثا (كاد فى النفى) :

(١) فى القرآن الكريم

١ ــ قال تعالى : « قالوا الآنَ جئْتَ بالحق. فذبحوها ،وما كادوا يفعلون »[5] :

أى أن قوم موسى تباطأوا فى ذبح البقرة ، وتلكأوا ، وأطالوا فى أسئلتهم

(١) الأمالى ١ / ١٤٩
(٢) الأمالى ١ / ١٦٢ القين : الحداد . السفن جلد أو حجر ينحت به الشىء ويسحج القدح .
(٣) الأمالى ٢ / ٢٧٣ . (٤) الأمالى ١ / ١١٨ بخت وربحلة : المراد ضخمة ممتلئة. (٥) سوره البقرة ٧١

عن صفاتها ، وهم يقصدون التهرب من ذبحها ، حتى إن حالتهم كانت تدل على أنهم لم يقاربوا الاستجابة والطاعة ، ثم بعد هذا كله اضطروا إلى ذبحها .

فى الآية الكريمة معنيان ، لكل منهما حاله وزمانه .

وأغلب الظن أن الذين ذهبوا إلى أن نفى كاد إثبات فهموا أن قوله تعالى « فذبحوها وما كادوا يفعلون » تصوير لحالة واحدة فى زمان واحد ، أى أنهم ذبحوا البقرة فعلا ولكن بعسر ومشقة .

والحق أن الإثبات لم يفهم من قوله تعالى « وما كادوا يفعلون » بل فهم من قوله سبحانه « فذبحوها » فالنفى الداخل على الفعل كاد ما زال نفيا ، ويحسن أن استأنس هنا بما قاله الطبرى والزمخشرى .

أما الطبرى فإنه قال : وما كادوا يفعلون ، أى أنهم كادوا لا يفعلون ، لأنهم لم يكادوا يفعلون ما أمرهم الله به من ذبح البقرة ، لغلاء ثمنها ، ولخوف الفضيحة على أنفسهم حينما يظهر قاتل القتيل الذى اختصموا فيه [1]

وأما الزمخشرى فقال : وما كادوا يفعلون ، استثقال لاستقصائهم واستبطاء لهم ، وأنهم لتطويلهم المفرط وكثرة استكشافهم ما كادوا يذبحونها ، وما كادت تنتهى أسئلتهم ، وما كاد ينقطع خيط إسهابهم فيها وتعمقهم [2] .

٢ – وقال تعالى : « قل كلٌّ مِنْ عند الله ، فما لهؤلاء القومِ لا يكادون يفقهون حديثا [3] » .

وذلك أنهم زعموا أن ما أصابهم من خير ونعمة منسوب إلى الله ، وما أصابهم من قحط وشر منسوب إلى رسول الله ، وهم مبطلون فى زعمهم ، لأن الله تعالى هو الفعال ، وهو الذى يبسط الأرزاق ويقبضها ، فما بالهم لا يقاربون أن يفهموا فيعلموا هذه الحقيقة ؟ وليس المراد أنهم فهموها بعسر .

٣ – وقال سبحانه : « واستفتحوا وخاب كلُّ جبارٍ عنيد ، مِنْ ورائه

---

(١) تفسير الطبرى ١ / ٢٨١
(٢) تفسير الزمخشرى ١ / ٧٥
(٣) سورة النساء ٧٨

جهنم ، ويُسْقَى مِنْ ماء صديد ، يتَجَرَّعُه ولا يكاد يُسيغه ، ويأْتيه الموتُ مِنْ كل مكان ، وما هو بمَيِّتٍ ، ومِنْ ورائه عذابٌ غليظ[1] » .

أي أنه يتجرع الصديد ولا يقارب أن يسيغه ، فكيف تكون إساغته إذن ؟

ويفهم من الآية أن الإساغة لم تقع مهما يكن عسرها .

٤ ـ وقال تعالى : « حتى إذا بلغ السَّدَّيْن وجد مِنْ دُونِهما قوما لا يكادون يفقهون قولا[2] » .

أى أن ذا القرنين لما بلغ ما بين السدين وجد من دونهما قوما لا يقاربون أن يفهموا الكلام ، ولهذا يتم التفاهم معهم بالإشارة ونحوها ، فهم مثل البكم ، لأن لغتهم غريبة على ذى القرنين ، ولأن لغته مجهولة لهم .

٥ ـ وقال سبحانه : « والذين كفروا أعمالُهم كسراب بقِيعة ، يَحْسَبُهُ الظمآن ماءً ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، ووجَدَ اللهَ عنده فَوَفَّاه حسابه ، واللهُ سريعُ الحساب . أو كظلمات فى بحر لجِّيٍّ يَغْشاه موجٌ مِنْ فوقه موجٌ مِنْ فوقه سحاب . ظلماتٌ بَعْضُها فوق بعض ، إذا أخرَجَ يَدَه لم يَكَدْ يراها ، ومَنْ لم يجعل اللهُ له نوراً فما له مِنْ نور[3] .

فى هاتين الآيتين وصف لظلمات متراكمة ، إذا أحاطت بإنسان وأخرج فيها يده لم يقارب أن يراها .

وهذا هو الذى يتناسب والظلمات الموصوفة ، وهو أبعد فى نفى الرؤية ، لأن الذى لا يرى قد يقارب أن يرى ، أو يرى رؤية ضعيفة ، ولكن الذى لا يقارب أن يرى لا يرى شيئا ما ، وهذا هو المراد من الآية الكريمة ، ويعززه تشبيه أعمال الكفار بالسراب ، فإن السراب لا حقيقة له ، ثم شبهت أعمالهم بالظلمات المتراكمة التى لا تهدى إلى شىء ولا يمكن أن يُرَى فيها شىءٌ .

٦ ـ وقال سبحانه على لسان فرعون : « أم أنا خيرٌ من هذا الذى هو مَهِينٌ ، ولا يكاد يُبين[4] » .

---

(١) سورة إبراهيم ١٥ ـ ١٧ (٢) سورة الكهف ٩٣

(٣) سورة النور ٣٩ ـ ٤٠ (٤) سورة الزخرف ٥٢

فقد زعم فرعون لقومه أنه خير من موسى عليه السلام ، ووصفه بالضعف والحقارة وبالعجز عن الإبانة .

(٢) فى الشعر :

١ ـ قال ذو الرُّمَّة :

إذا غَيَّر النأْىُ المحبين لم يَكَدْ
رسيسُ الهوى من حب مَيَّةَ يبْرَح (١)

يريد أنه إذا أضعف الفراق الحب فى قلوب المحبين فإن حبى لم يقارب الضعف والتغير .

وهذا أدل على ثبات حبه من أن يقول لم يبرح حبها قلبى ، فقد يكون حبها باقيا فى قلبه وهو ضعيف أو قريب من الزوال ، ولا يطاوعنا الأسلوب إذا أردنا أن نفهم البيت على أن النفى إثبات ، لأن المعنى يصير حينئذ إذا تغير المحبون جميعا تغيرت ، وهذا غير ما قصده الشاعر .

٢ ـ وقال قيس بن ذُريح أو قيس المجنون :

وما كاد قلبى بعد أيامَ جاوزَتْ
إلىَّ بأجراع الثُّدىِّ يَرِيعُ (٢)

أى أن عقله بعد رحيل محبوبته لم يقارب العودة إليه ، وليس المراد أنه عاد ، لأن عودته مهما تكن عسيرة لا تتفق والصورة الغزلية التى يقصدها .

٣ ـ وقرأ أبو على القالى على أبى بكر بن دُرَيدْ :

وقد لان أيامُ اللِّوَى ثم لم يكد
من العيش شىءٌ بعدهنَ يَلِينُ (٣)

فهو يصف الحياة فى أيام اللوى باللين ، ويصفها بعد أيام اللوى بالقسوة والجفاف وبأنها لم تقارب اللين ، ولا يريد أنها لانت مهما يكن لينها ضعيفا ، وهذا هو الذى يلائم ضيقه بالحياة بعد أيام اللوى .

٤ ـ وقال المرَّار بن مُنْقذ :

وإذا تمشى إلى جاراتها
لم تكد تَبْلُغُ حتى تَنْبَهِرْ (٤)

---

(١) رسيس الهوى : ثابته .
(٢) الأمالى ١ / ١٣٦
(٣) الأمالى ١ / ١٦١
(٤) المفضليات ١ / ٨٩

أى أنها ذات جسد ممتلىء ، وذات نعيم ، فإذا مشت من دارها إلى دارجارتها تلاحق نفسها سريعا ، وأدركها الإعياء قبل أن تصل .

رابعا (النتائج) :

تبين من الآيات القرآنية الكريمة ومن النصوص الشعرية ما يأتى :

١ ـ (كاد) فعل يدل فى حالة الإثبات على مقاربة الخبر ، ولا يدل على وقوعه فى أية صورة من الصور .

٢ ـ أما (كاد) الفعل المنفى فإنه ينفى مقاربة الخبر ، ولهذا كان الخبر المنفى بعده أبعد من المنفى بدونه ، فقولنا : لا أكاد أصدق هذا الخبر أوغل فى نفى التصديق من قولنا : أكاد أصدق هذا الخبر .

وهذا يخالف ما ذهب إليه الفراء والأزهرى فى قولهما إنك إذا قلت : ما كدت أبلغ إليك ، فمعناه أنك قد بلغت ، ويؤكد ما ذهب إليه الأخفش وغيره فى فهم ما بعد نفى كاد على أنه أوغل فى نفى الخبر منه بغيرها .

٣ ـ أما دخول النفى على خبر كاد نحو قضيت أياما فى بلد كاد فيه المطر لا ينقطع ، فإننى لم أجده فى نص موثوق به ، ولكن النحاة أجازوه ، والقياس لا يمنعه ، والمعنى حينئذ أن المطر قارب ألا ينقطع ، فالنفى منصب على الانقطاع لا على مقاربة الانقطاع .

وقد روى بيت زهير بن أبى سلمى :

صحا القلب عن سلمى وقد كان لايسلو

وأقفر من سلمى التَّعانيق فالثّفل

بوضع كاد بدلا من كان .

وجاء فى تفسير الطبرى قوله : عن ابن عباس فذبحوها وما كادوا يفعلون ، يقول كادوا لا يفعلون[1] .

والفرق بين قولنا : ما كاد المطر ينقطع وقولنا : كاد المطر لا ينقطع ، أن النفى فى الجملة الأُولى منصب على مقاربة الانقطاع ، أما النفى فى الجملة الثانية فهو منصب على الانقطاع نفسه ، ولهذا كان النفى فى الأُولى أوغل من النفى فى الثانية .

ومعنى هذا أن الخبر المنفى بنفى يسبق كاد أبعد من الخبر المنفى بنفى يجىء بعدها

احمد الحوفى
عضو المجمع

---

(١) تفسير الطبرى ١ / ٢٨١

ثلاث قصائد تاريخية

للدكتور إسحاق موسى الحسينى

شهد العالم الإسلامى ، فى القرن الرابع الهجرى، أحداثا جساما ضعضعت كيانه ، وأذوت البراعم التى تكوّنت فى القرنين الثانى والثالث . من هذه الأحداث اشتداد نفوذ الأعاجم فى الدولة العباسية ، وعبثهم بالخلفاء ، والافتتات على سلطانهم، حتى أضحوا كالدمى لا تضرّ ولا تنفع . ومنها الانشقاق فى المجتمع الإسلامى بسبب تصارع النزعتين السنّية والشيعية . ومنها القتال الذى استعر أواره بين الروم والمسلمين على الثغور ولا سيما إمارة حلب .

ومن الطبيعى فى مثل هذه الأحوال أن ينعكس الصراع فى الأدب العربى . فقد كانت ألسنةُ القومِ أشبه بسيوف لا تقع معركة إلا خاضت فيها ، كما تخوض الرماح والسيوف . وقتال الألسنة لا يقلّ خطرا عن قتال السيوف ، لأنها كانت تزيد نيران البغضاء اضطرابا ، فيشتدّ الصراع عنفا .

وقد نشرت أخيرا ثلاث قصائد تاريخية ذات لون خاص فريد . فهى تصور المعركة التى احتدمت بين المسلمين والروم فى القرن الرابع الهجرى ، وتكشف النقاب عن أثر الدين فى المعركة ، ومبلغ ما وصل إليه الخلاف الدينى من استحكام .

أولى القصائد ، وبداية الشرّ ، قصيدة أرسلها نقفور بن الفقاس ، الملقب بالدمستق ، المتوفى سنة ٣٥٢هـ = ٩٦٣ م والذى تولى قتال المسلمين باسم رومانوس بن قسطنطين ، ملك الروم ، أرسلها إلى الخليفة العباسى المطيع لله المتوفى سنة ٣٦٤ هـ = ٩٧٤ م . وفى أيامه

تولىّ الديلم زمام الحكم ، ولم يكن له من رسم الملك سوى الخطبة .

والقصيدة تقع فى اثنين وخمسين بيتا ، مطلعها :

من الملك الطهر المسيحى رسالة
إلى قائم بالملك من آل هاشم

وبعد المقدّمة القصيرة يعيرّ نقفور المسلمين بضعفهم وانكشاف ثغورهم . ثم يعدّد الثغور التى فتحها الروم مثل : جند قنّرين ، وملطة ، وسميساط ومرعش والرها . . . إلخ . ثم ينتهى عند فتح حلب ، وهنا يقف وقفة طويلة فيصف سبيهم الحرائرَ من النساء المسلمات ، وفتكهم بالمسلمين وسوقهم الأسرى سوق البهائم . ثم يهدد بفتح أنطاك (أنطاكية) ودمشق ومصر وبغداد والقدس ومكه واليمن . وفى أثناء ذلك يعيرهم باستسلامهم للحاكم الديلمى ووقوفهم منه موقف العبيد ، ويأمرهم بالعودة إلى منبت عودهم — بلاد الحجاز .

فعودوا إلى أهل الحجاز أذلّةً
وخلو بلاد الروم أهل المكارم

ثم يُبين أسباب هزيمتهم ، فيذكر :

(١) جور السلطان .

(٢) التعامل بالمنكرات .

(٣) بيع القضاة القضاء .

(٤) شهادة الشيوخ بالزور .

(٥) شيوع البرطيل .

ثم يختم قصيدته بالتوعد بنشر دين الصلب وذم الرسول صلوات الله عليه .

سأفتح أرض الشرق طرا ومغربا
وأنشر دين الصلب نشر العمائم

ومن البدهى أن القصيدة ليست من نظم نقفور الأرمنى ، ولا من نظم أحد من أهل القسطنطينية . ولكنها من نظم أحد المسلمين المرتدين الذين أسرهم الروم ونقلوهم من ديارهم إلى القسطنيطينية ، واستطاعوا أن يحملوهم على نظم هذا الكلام . ولم يفت ابن كثير فى البداية والنهاية الانتباه إلى هذه الحقيقة ، فذمّ الناظمَ وقال : « إنه ممن كان قد خذله الله وأذله وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة وصرفه عن الإسلام وأهله . وفى الوقت نفسه لم تفته الإشارة إلى تمكن صاحبها

من النظم فقال : « ونفس ناظمها تدل على أنه شيطان مارد » .

ونقفور هذا هو الذى قاتل سيف الدولة فى حلب ، وهو الذى هزمه سيف الدولة فى سمندو سنة ٣٣٩ هـ فقال المتنبى :

رضينا والدمستق غير راض
بما حكم القواضب والوشيج
فإن يقدم فقد زرنا سمندو
وإن يحجم فموعدنا الخليج

وهو الذى أسر أبا فراس الحمدانى سنة ٣٥١ هـ .

وانتهت حياة نقفور نهاية بشعة . فقد عاد سنة ٣٥٢ هـ من حلب إلى القسطنطينية فوجد ملكها رومانوس قد توفى عن صبيين ، فحدثته نفسه بالاستيلاء على الملك عن طريق الزواج من الملكة . ولكن التاج لم يستقرّ على رأسه طويلا إذ سرعان ما دبرت الملكة قتله فقتل غيلة .

تصدّى للردّ على قصيدة نقفور عالمان جليلان من علماء المسلمين ، أحدهما شاعر معاصر لنقفور هو محمد بن على ابن إسماعيل القفّال الشاشى المتوفى سنة ٣٣٦ هـ ـ ٩٤٧ م ، أى قبل وفاة نقفور بنحو ستة عشرعاما . والثانى عالم الأندلس فى عصرعلى بن أحمد بن سعيد ابن حزم الظاهرى المتوفى سنة ٤٥٦ هـ ـ ١٠٦٤ م ، أى بعد وفاة نقفور بنحو مائة سنة .

تقع قصيدة القفّال فى أربعة وسبعين بيتا من القافية والبحر نفسيهما ، كال فيها الصاع صاعين ، كما يقال ، وأجاد إجادة استرعت نظر أحبارالقسطنطينية يومذاك فسألواعن الشيخ القفّال من هو ؟ ومن أى بلد هو ؟ وتعجبوا من قدرته على النظم .

بدأ القفّال القصيدة بقوله :

أتانى مقال لامرئ غير عالم
بطُرْق مجارى القول عند التخاصم

ثم برأ نقفور من طهر المسيحية فقال :

تسمى بطهر وهو أنجس مشرك
مدنّسة أثوابه بالمداسم

وقال مسيحى ، وليس كذا كمُ
أخو قسوة لايَحْتذى فِعْلَ راحم

وليس مسيحيا جهولا مثلثا
يقول لعيسى جلّ عن وصف آدم
وما المَلك الطُّهْرُ المسيحِىُّ غادرا
ولا فاجرا ركّانةً للمظالم

وفى هذا القول براعة ، فقد طعن خصمه دون أن يقدح فى دينه . فالمسيحية فى رأيه تبرأ مما يتصف به نقفور من غدر وفجور . ثم يوازن بين حروب نقفور المتسمة بالغدر وحروب المسلمين المتسمة بالرحمة اتباعا لوصايا الرسول عليه السلام .

ولكن كَرُمْنا إذ ظَفِرنا وأنتم
ظَفِرتم فكنتم قُدْوةً للألائم

ثم يحاجه فى قوله إن المسلمين هزموا لتفشى الظلم وفساد القضاة بأن ذلك إقرار بصحة الدين .

ثم يستخف بتهديده بفتح بلاد المسلمين ، ويتطرق إلى عقيدة التثليث فينقدها ، ويرى المسيح عليه السلام رسولا كريما ، والله تعالى خالق المسيح وغيره من الأنبياء . ثم يلمح إلى أن ارتداد نفر من المسلمين عن الإسلام لا يضير الإسلام فى شىء ، فقد دخل الإسلام هند وصين وأتراك .

أما التعيير بحكم الديلمى فجوابه أن للحقّ أنصارا يذودون عنه مثل سيف الدولة الحمدانى ومنصور بن نوح :

هما أمّنا الإسلام من كل هاضمٍ
وصانا بناء الدين عن كلّ هادم

ثم يتوعده بغزو الخراسانيين بخيول مسومة .

ويختم قصيدته بدعوته إما إلى حرب تجر عليهم الويلات ، وإما إلى إسلام فيه السلامة .

وإن تُسْلموا فالسلم فيه سلامة
وأهنأُ عيش للفتى عيش سالم

أما قصيدة ابن حزم فطويلة تقع فى ١٣٧ بيتا على غرار القصيدتين السابقتين وزنا وقافية .

يردّ ابن حزم هزيمة المسلمين إلى ضعف الخلافة . ولو كان الخليفة فى صفات جدوده لجرع الأعداء سموم الأراقم . يضاف إلى ذلك انشغال الخلفاء بالقضاء على فتن الأتراك والديلم الذين كفروا بنعم المنعم عليهم . وانتهز الروم انشغال الخلفاء فوثبوا على ديار المسلمين .

ثم عدد ابن حزم البلاد التى فتحها المسلمون كالشام ومصر والقَيْروان والأندلس حتى لم يبق بأيدى الروم إلا رومة وقسطنطينية . أما مااستردوه فيما بعد فسيعود إلى المسلمين . ولابُدَّ من أن تستردَّ الخلافة نورها ، وأن تعود إلى المسلمين أيام الظفر كما حدث فى ماضى الأيام زمن هرقل وقيصر . أما التهديد بفتح بلاد المسلمين مثل بغداد والرملة ودمشق والحجاز فأمانى دونها ضرب يُلقِّى الرومَ كلَّ مذلة . ويطيل ابن حزم فى وصف قوة المسلمين وشجاعتهم وما سيلاقيه الروم من قتلٍ ودمارٍ وهزيمة ، كما يطيل فى ما بعدّه كل بلد من دفاع واستبسال . ومن ذلك قوله :

وجمع كموج البحر ماض عرمرم
حمى سرة البطحاء ذات المحارم

ومن دون قبر المصطفى وَسْطَ طَيْبَة
جموع كمسودٍّ من الليل فاحم

يقودهم جيش الملائكة العُلا
كفاحاً ودفعاً عن مُصَلٍّ وصائم

فلو قد لقِينا كم لعدتم رمائماً
بمن فى أعالى نجدنا والحضارم

ثم يكرّ عليهم ويتوعدهم بفتح بلادهم حتى يصل المسلمون أرض الصين والهند

إلى أن يرى الإسلام قد عم حكُمه
جميعَ البلاد بالجيوش الصوارم

ثم يصل إلى الجدل الدينى ويوازن بين العقيدتين فيركّز على التثليث وانتحال الأناجيل والصلب ، وما يقابلها من توحيد وصدق رسالة وقوة برهان . ويعد آراءهم افتراء وضلة بحق السيد المسيح عليه السلام .

ولكنه عبد بنىّ مُكرم
ولكنه عبد نبىّ مُكرم
من الناس مخلوق ولا قول زاعم

وبلغت أبيات هذا الجدل أكثر من ثلاثين بيتا . وهنا يصل إلى ختام القصيدة وينتهى بالبيتين التاليين :

أتيهم بشعر بارد متخاذل
ضعيف مبانى النظم جم البلاغم
فدونكها كالعقد فيه زمرد
ردىّ ويا قوت بإكام حاكم

ونلاحظ : أولا أن هذه القصائد الثلاث تكوّن موضوعا جديدا فى الشعر العربى ، يمكن أن نسميه « الهجاء الدولى ».
ثانيا : أنها أقدم ما نعرف من شعر عربى فى

هذا الباب فى العصر الإسلامى . ثالثا : أن شاعر الروم أقذع فى ختام قصيدته حتى إن التاج السبكى ناشر القصائد فى طبقات الشافعية الكبرى ـ الجزء الثالث ، الطبعة الأولى ١٩٦٥ ص ٢٠٩ ـ لم يستجز إثبات الأبيات الثلاثة الأخيرة ، واثبتها ابن كثير فى البداية والنهاية . وكان موقف الشاعر القفال معتدلا فلم يطل الجدل الدينى . أما ابن حزم فقد أخذته الحميّة الدينية فأطال فى هذا الموضوع الشائك .

رابعا : إن نفس ابن حزم الطويل يدل على قدرة فى النظم لا سيما وقد التزم البحر والقافية فكان عليه أن يتقيد بما فرض عليه من نظام . وعى قدرة لا نذكر أنّ أحدا من مؤرخيه نصّ عليها . فقد برّز الشيخ بنشره وعلمه حتى عدّ عالم الأندلس فى عصره وأحد أئمة المسلمين .

وأخيرا كم فى بطون المخطوطات من آثار طواها عنا الزمن ! ولو كشفت لنا جميعها لبان لنا أنّا عرفنا عن الحضارة الإسلامية والأدب العربى شيئا وغابت عنا أشياء .

اسحاق موسى الحسينى
عضو المجمع من الأردن

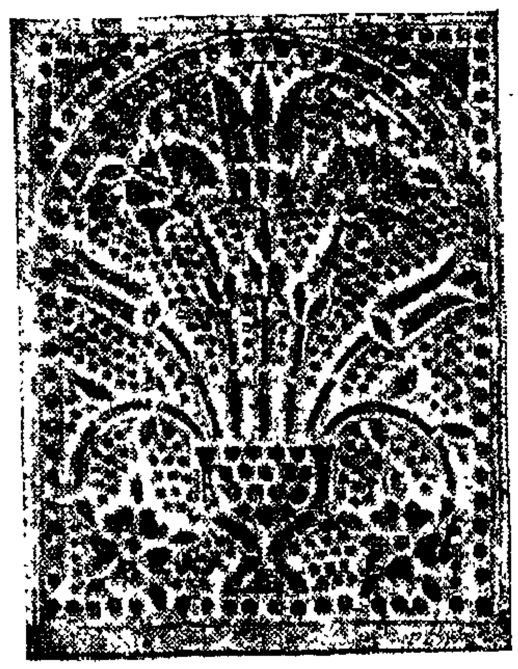

مكتبة الأسكوريال بأسبانيا تحت رقم ٥٧٢ بالمخطوطة الوحيدة لكتاب الجيم : ويغلب على الظن أنه إلى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى كانت هناك بعض نسخ أخرى من كتاب الجيم : وقد كان كتاب الجيم مصدرا من مصادر مرتضى الزبيدى (المتوفى سنة ١٧٩١ م) فى معجمه « تاج العروس » الذى ألفه فى مصر :

وصف المخطوطة رقم ٥٧٢ بالاسكوريال وتاريخها :

تضم المخطوطة ٢٨٦ ورقة ، وهى على ورق ، وعدد الأسطر فى الصفحة يتراوح بين ٢٠ ، ٢٥ سطراً . جرى الناسخ على الاقتصاد فى الإعجام أو الشكل فى الألفاظ الشائعة ، وعلى العكس من ذلك حيث نجد كلمات الأصول حافلة بالشكل : وعلى هامش النسخة دونت ملاحظات عديدة ، أكثرها بخط الناسخ :

وليس بالمخطوطة تاريخ أو اسم الناسخ ، وقد أرخها « ديرنبرج » فى كتابه عن المخطوطات العربية بالأسكوريال باريس سنة ١٨٨٤ بالقرن السادس أو السابع الهجرى (الثانى عشر أو الثالث عشر الميلادى) ، وذهب « كرنكو » إلى أن المخطوطة أقدم بكثير مما ذهب إليه « ديرنبرج » لأن قاعدة الخط تدل على ذلك ، ففيها الحروف التى تقرب من الكوفى وفيها تؤدى الألف الممدودة بألفين متتابعين ، وفى الأفعال المضارعة الواوية اللام يكتب ألف الوقاية فى آخر الفعل المفرد ، ونرى صورة الألف فى الخط تميل فى أسفلها ناحية اليمين وهذا معروف فى الخط الكوفى . وفى الجملة فإن الاعتبارات التى ذكرناها ومقابلة خط المخطوطة بالمخطوطات غير القرآنية يجعل تاريخها فى القرن الرابع أو الخامس الهجرى (العاشر أو الحادى عشر الميلادى) :

ملكية المخطوط :

كتب على صفحة العنوان ملكيات مختلفة للكتاب : « لعبد الله بن يوسف بن هشام

الأنصارى عفى الله عنه ، ثم صار لولديه محمد عفى الله عنه » :

« ملك على بن محمد القابونى الحنفى عامله الله بلطفه الغالى والخافى فى شهر ربيع الأول سنة أربع وأربعين وثمانى مائة » .

« محمد بن أحمد خطيب داريا عفى الله عنه »

وواضح أن المخطوطة دخلت فى ملكية النحوى ابن هشام (٧٠٨ — ٧٦١ هـ ١٣٠٨ — ١٣٦٠ م) الذى كان يعيش فى مصر ، وورثه بعد وفاته ابنه محمد . وتملكها أيضاً بعده اللغوى محمد بن أحمد وهو خطيب داريا (٧٤٥ — ٨١٠ هـ ١٣٤٤ — ١٤٠٧ م) ومن مؤلفاته شرح لألفيته ابن مالك : ثم أصبحت المخطوطة ملكاً لعلى بن محمد القابونى الحنفى المتوفى سنة ٨٤٤ هـ (١٤٤٠ م) . ولما كانت داريا وقابون من القرى القريبة من دمشق ، فمن المرجح أن المخطوطة وجدت فى مصر وسورية مدة قرن أى من منتصف القرن الرابع عشر حتى منتصف الخامس عشر الميلادى :

وعلى صفحة العنوان فى الهامش الأيسر كتب اسم ابن فضل الله واسم محمد بن محمد العمانى ولم نتوصل إلى معرفتهما والكشف عن شخصيتهما :

وفى ورقة ٩٢ ا وورقة ٢٠٢ ا وكل من الصفحتين عنوان لجزء من الكتاب اسم محمد ابن عبد الرحمن بن أحمد العاصى وقد كتب بالخط المغربى مما يدل على أن المخطوطة كانت فى أسبانيا أو فى شمال إفريقية . ويذكر السيوطى فى « بغية الدعاة فى طبقات اللغويين والنحاة » عالماً نحوياً ولغوياً باسم محمد بن عبد الرحمن بن أحمد ، وذكره ابن الأبار فى التكملة لكتاب الصلة ، والصفدى فى الوافى بالوفيات : ولد فى فلنسيا وعاش فى أواخر حياته فى ألميريا Almeria ، وتوفى بعد ابن أبار الذى توفى سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م) ويقول السيوطى إن محمد ابن عبد الرحمن توفى بعد سنة ٥٣٠ هـ (١١٣٥ م) أى لسنتين قبل ابن هشام وهو الذى تلاه فى امتلاك النسخة : ومما يستحق الذكر أن أبا عبيدى البكرى (٤٣٢ — ٤٨٧ هـ ١٠٤٠ — ١٠٩٤ م) وهو من علماء الأندلس ذكر فى كتابه سمط اللآلئ فى شرح الأمالى للقالى ، موضعاً من كتاب الجيم (فى باب الحاء) : وقد عاش البكرى بعض الوقت فى ألميرا ، حيث عاش بعده محمد بن عبد الرحمن بن العاصى صاحب مخطوطة الأسكوريال :

وعلى هذا نرجح أن مخطوطة الأسكوريال وجدت فى ألميرا منذ القرن الحادى عشر الميلادى ، استخدمها البكرى فى كتابه السمط » ثم ظلت فى ألميرا حيث دخلت فى ملكية محمد بن عبد الرحمن بن العاصى :

وأنه من المحتمل أن المخطوطة نسخت حوالى سنة ١٠٠٠ ميلادية فى العراق ، ثم وصلت الأندلس ، ونقلت فى القرن الثانى عشر أو الثالث عشر الميلادى إلى شمال إفريقية فمصر

ثم سورية ، وفى القرن السادس عشر أو السابع عشر الميلادى عادت إلى أسبانيا واستقرت فى مكتبة الأسكوريال :

مقدمة المؤلف :

يذكر القفطى فى « إنباه الرواة على أنباه النحاة » عبارة نتبين منها أنه كان لكتاب الجيم مقدمة » وصنف أبو عمرو كتاب الحروف فى اللغة وسماه كتاب الجيم وأوله الهمزة ولم يذكر فى مقدمة الكتاب لماذا أسماه الجيم » . ونسخة الأسكوريال تنقصهامقدمة الشيبانى التى نتوقع أن يتحدث فيها عن مصادره ومنهجه ونقرأ فى الصفحة الأولى (١ ١) بعد العنوان « هذا الجزء الأول من كتاب الجيم فى اللغة بل الكتاب الكامل وفيه بقية الأجزاء أيضاً » مقدمة للناسخ الذى لم يذكر اسمه عن النسخة التى نقل عنها : « اقتفيت بهذه النسخة نسخة أبى موسى الحامضى فاستدركت بها أكثر شكوكى ووجدت فيها ما ذكر السكرى أنه سقط عليه من ورقة ووجه ورقة ، فتنقلته فكان زائدا على ما ذكر أنه سقط عليه بضعفه وقد بينت ذلك فى مواضعه وعلامتى على كل ما صححته « ضاد » لأنه المشهور من لقب الحامضى ، وتبقى على شكوك فى الزيادات فإن أبا موسى لم يكن فى كتابه شئ منها والحمد لله كثيراً .

ووجدت فى حرف الفاء ورقتين زائدتين على نسخة السكرى فنقلتهما وبينت موضعهما»

ومن تعليقات الناسخ يتضح لنا أنه كان تحت يده نسختان من كتاب الجيم : نسخة بخط أبى موسى الحامض (المتوفى سنة ٣٠٥ هـ) وهو تلميذ ثعلب ونسخة أخرى من نسخ السكرى (٢١٢ ــ ٢٧٥ هـ) . وإذا نظرنا فى تاريخ حياة الناسخين ، تأكد لنا أنهما لم يعرفا كتاب الجيم فى حياة الشيبانى .

ومن حسن الصدف أن ناسخ كتاب الجيم قابل النسختين مقابلة دقيقة ، وأشار فى الهامش إلى اختلاف القراءة ، وهذا يدل على أن كتاب الجيم كان شائعاً فى أكثر من نسخة .

ونسخة الأسكوريال لها قيمة لا تعوض ، لأنه أتى بقراءة السكرى بالرغم من سقوط بعض المواضع فى نسخة السكرى ، وأهميتها تفوق نسخة الحامض :

وفى أكثر من باب كتب الناسخ ما ورد فى نسخة الحامض وقابلها بنسخة السكرى وفى مواضع أخرى ذكر ما جاء فى نسخة السكرى من زيادات :

ويخيل إلينا أن السكرى أتى بزياداته من نسخة أخرى للشيبانى لأن نسخة الحامض لم تذكرها . ويقول ناسخ كتاب الأسكوريال عبارة « كذا فى النسختين » أو « لم أجده فى النسخة الأخرى » :

ومما يذكر أن ناسخ مخطوطة الأسكوريال أشار إلى أنه وجد فى نسخة الحامض المواضع

التى قال عنها السكرى إنها سقطت . وقد صرح السكرى فى خمسة مواضع ما سقط فى كتاب الجيم :

١ ــ فى أوائل حرف الجيم قال : «سقط من هنا ورقة أو أكثر ــ ما وجدت شيئاً سقط » .

٢ ــ فى نهاية حرف الجيم « هذا آخر ما وجد من حرف الجيم بخط السكرى وذكر فى آخر الجيم أنه قد بقى منه ، ولم يوجد » .

٣ ــ فى أول حرف الفاء (ورقة) « قال أبو سعيد : سقطت الورقة الأولى » .

٤ ــ فى أول حرف القاف (ورقتان) : ذكر السكرى أنه من نسخة أبى عمرو كان قد بيض فى أوله صفحتين ذهبتا » .

٥ ــ قبيل نهاية حرف الميم (صفحة) : « وجدت فى كتاب الحامض فى باب الميم شيئاً سقط على السكرى من أصل كتاب أبى عمرو وذكر أنه صفح ورقة سليمانى وهو الذى أثبته وهو قريب ورقتين بعد قوله : « وكل شئ أحرقته فقد محشته » وروى الحامض » أمحشته :

وواضح أن الناسخ نقل ما سقط من الفاء والميم فى الأصل من نسخة الحامض وهى فى نسخة السكرى ورقة ونصف ، وفى مخطوطة الأسكوريال بلغت ورقتين أما ما سقط من نسخة السكرى فى بابى الجيم والقاف فقد ضاع نهائياً . وأدرك ما سقط من باب الفاء فأضافه آخر باب القاف يقول الناسخ : « وجدت هذه الزيادات فى كتاب الحامض فى أول باب الفاء فكتبته حتى اتصلت بأول باب الفاء من نسخة السكرى.

ومن هذا نرى أن مخطوطة الأسكوريال لا تشمل كتاب الجيم ، أضف إلى ذلك أن الأبواب تختلف طولا وقصراً فالصاد والضاد والطاء والظاء تقع فى ٢٧ صفحة ؛ بينما نجد العين تقع فى ٧٠ صفحة . ولو قدرنا أن الأبواب يجب أن تكون متناسبة ، وهذا يدل على أن الأبواب القصيرة مختصرة ، وذلك فى نسخة الشيبانى الأصلية التى نسخها السكرى ، وليست من تصرف السكرى .

ورقات من مخطوطة اخرى :

وتضم نسخة الأسكوريال بعض ورقات (١٤٥ ــ ١٥٠) من نسخة أخرى لكتاب الجيم أقل حجماً وبخط مخالف ونصها يوافق نص نسخة الاسكوريال من زرفة ١٣٥ إلى ١٣٨ . وعلى هامش ورقة ١٤٥ نقرأ عبارة من يد متأخرة نصها : « هذه الألفاظ التى استدركت وقعت فى نفس الكتاب وقد أعلمت على مكانها بالحمرة » . ونلاحظ أن الورقات من المخطوطة الثانية أقل دقة من نسخة الأسكوريال ، وأن التهميش الذى فى النسخة الثانية ذكر على هامش نسخة الأسكوريال ، أما الهوامش التى على نسخة الأسكوريال فلم تدون فى النسخة الثانية . ومن الملاحظ أن النسخة الثانية اتخذت قراءة واحدة فى حين ذكرت نسخة الأسكوريال عدة قراءات

أحيانا للفظة واحدة مثال ذلك ورقة ٣٦ ب « وقال المحراف الميل الذى تنقش به الشجة » وجاء فى الهامش : حفظى : تنقش به : فى نسخة : تنقش كما فى الأصل — وقال : المحراف الميل الذى تقاس به الشجة .وهذا يرجح أن النسخة الثانية اعتمدت على نسخة الأسكوريال أو على نسخة اعتمدت عليها نسخة الأسكوريال ، ثم ضمت النسخة الثانية إلى نسخة الأسكوريال متأخراً :

ترتيب كتاب الجيم وتسميته :

جمع الشيبانى فى كتاب الجيم جميع الألفاظ التى تبدأ بفاء الفعل فى باب واحد : وفى مخطوطة الأسكوريال عشرة أجزاء متساوية تقريبا مرتبة على الأبجدية العربية : وليس بصحيح ما ذهب إليه « كرنكو » من أن كتاب الجيم انتهى عند حرف الجيم :

وبهذا الترتيب يقع كتاب الجيم فى المعاجم العربية القديمة موقعا خاصا : فهو لم يتأثر بترتيب كتاب العين ، وكان هو المثل الذى حتذاه مؤلفو المعاجم الذين ألفوا على ترتيب الأبجدية للحرف الأول من الكلمة . ألف أبو حنيفة (المتوفى ٢٨٢ هـ) معجمه فى النبات على ترتيب الحرف الأول من أصول الكلمة وكذلك جمهرة ابن دريد (المتوفى ٣٢١ هـ) المجمل ومقاييس ابن فارس (المتوفى ٣٩٥ هـ) وكان الشيبانى يسترسل حين يعرض المادة فى مناسبات ، مثلا يذكر فى باب الألف بيتا من الطويل شاهداً على عبارة أتى بكفيه ويشرحها ، أى أنشب كفيه فى الأرض يعنى الضب ، وبمناسبة الضب انتهز الفرصة فترك لقلمه الاسترسال فى أمثلة وقصص عن الضب . وكان من طريقته أن يضيف أخبارا أثناء شرح المادة ويستشهد بالشعر شارحا ومعلقا للألفاظ الصعبة ويستشهد على الشرح بالشعر ، وقد يأتى فى الشرح بالمرادف أو الضد ؛ مثال ذلك فى مادة ب و ص : البوصر ثمر الأرائن قد بوض فإذا حبب فهو القرزح قد قرزح ، وثمر القرظ البلت ثم السنف والقلقل حبه الذى يكون فيه .

وقد تنتج عن ذلك فقرات طويلة، ويذكرنا ذلك بكتاب الغريب المصنف لأبى عبيد : وقد استرعى نظرى كثرة الشواهد الشعرية فى كتاب الجيم ، تعدها ٤٣٠٠ بيت أو يزيد ، حتى خيل إلى أن الشيبانى إنما ألف كتاب الجيم ليكون بمثابة المعجم للألفاظ التى وردت فى دواوينه . أو عرض لمقتطفات من دواوينه :

ومن الملاحظ أن الفصول الطويلة تنقسم عادة فى كتاب الجيم إلى ثلاثة أجزاء متداخلة : ففى الجزء الأول يأتى بنصوص معجمية وفيه شواهد لم يذكر قائلها ، ثم ترجح كفة الرجز فى الجزء الثانى ، وفى الجزء الأخير يأتى بشواهد شعرية يقل أو ينعدم فيها الشرح . أما الفصول القصيرة فينقصها هذا التقسيم .

وعند دراسة فصول الراء والعين والفاء والقاف ، وجدنا كثيرا من الشعر الذى

أتى به كشواهد من دواوين سبعة عشرة شاعراً كان يقدم منها شواهده على الترتيب الآتى تقريبا : كعب بن زهير ، زهير بن أبى سلمى ، لبيد ، تأبط شراً ، أبو النجم ، أوس بن حجر ، عمرو بن شاس ، طفيل ، عمرو بن معد يكرب ، عدى بن زيد ، امرؤ القيس . النابغة الذبيانى ، أبو دؤاد الإيادى ، عبيد ، أمية بن أبى الصلت ، بشر ، أبو ذؤيب . وقد يسقط أحيانا الاستشهاد بشاعر أو أكثر من هذا الترتيب ، ومرجع ذلك أن الشيبانى لم يجد عند الشاعر ما يوافق المجال .

ولم يصل إلينا ما يبين كيفية التأليف عند العلماء وبخاصة عند أصحاب المعاجم . ولا يمكن أن نتخيل أن الشيبانى دون هذه المادة الغزيرة فى كتاب الجيم من الذاكرة . وأغلب الظن كان تحت يده جزازات وكراريس وملاحظات دونها ، ثم رتبها أبجديا واستعان بها فى تأليف كتاب الجيم . ولعل أقدم ما ورد فى الكتاب استقاه من الرواة ثم من دواوينه .

وإذا لاحظنا أن الشيبانى فى كتابه أتى باستطرادات وأقوال الرواة ومختارات من الشعر ، يعن لنا السؤال : هل نعد كتاب الجيم من المعاجم بالمفهوم الحقيقى للمعجم أى عرض مرتب للألفاظ ؟ وإذا لاحظنا مضمون الكتاب وقصر منهجه الذى اتبعه ، خطر على ذهننا أن كتاب الجيم يشبه كتب النوادر الأولى وأخص بالذكر كتاب نوادر أبى مسحل الأعرابى المتداخل فى عرضه دون تقسيم واضح :

فهل كان الشيبانى ينوى أن يعيد كتابه الجيم ويرتبه ترتيبا أبجديا دقيقا ، وأن ما بين يدينا إنما هو مشروع كتاب ؟ نحن نميل إلى أن كتابه كان تجميعاً لمادة يؤلف منها معجما واضح المعالم ، ويدعونا إلى الأخذ بهذا الرأى ما نجده من نقص واضح فى مواد الكتاب . فقد يختار من الدواوين بقوله : وقال طفيل فى التفشغ : وقد سمنت حتى كنّ مخاضها — تفشغها ظلع وليست بظلع » وواضح أنه لم يفسر المثال ، وقد لا يأتى به ويخيل إلينا أن الشيبانى إنما أراد أن يدون الشاهد الشعرى المناسب أولا ، ويؤجل شرحه وتكملة الكلام فيما بعد . ويعزز ماذهب إليه ، أن الشيبانى يأتى أحيانا ببعض مشتقات الكلمة فى غير أصولها ، فنجد مثلا فى باب الألف : أتابيب (ن ب ب) ، إحريد (ح ر د) ، إحرنباء (ح ر ب) ، أشكلة (ش ك ل) ، ألكنى إلى فلان (ل و ك) ؛ وفى باب التاء : توادى (و د ى) ، تترى (و ت ر) . ونجده أحيانا يعالج ألفاظا فى غير أبوابها ، فهو يتكلم عن « بدح » فى باب الألف مثلا ، ولاحظ الناسخ هذا الخلط فكتب على الهامش فى بدح : « هذا من باب الباء » .

هذه الأمثلة التى سقناها لا تدل على أن الشيبانى لم يكن يعرف التصريف ، ولكنها تدل على أنه انزلق فى بعض الهنات وأنه كان

يجمع مادته ليضبطها عند مراجعتها ويصلحها ويخرجها فى شكل كتاب . ومما يؤكد لنا أن الشيبانى لم يراجع كتاب الجيم ليخرجه كتابا للناس ، الحقيقة المعروفة أن الشيبانى كتم كتاب الجيم عن الناس فى حياته ، لأنه على ما يخيل إلينا وجده غير ناضج أو لم يجد الفرصة لصياغته صياغة متكاملة. يقول أبو الطيب فى مراتب النحويين « فأما كتاب الجيم فلا رواية له لأن أبا عمرو بخل به على الناس فلم يقرأه عليه أحد » ، وهذا يعلل ما نعرفه من أن الكتاب لم يتداول فى التدريس ، لأن صاحبه لم يجزه .

ومن العسير أن نقرر الشكل النهائى لكتاب الجيم الذى أراده له الشيبانى ، لأنه لم يفصح عنه :

الزمن الذى نشأ فيه كتاب الجيم :

كتب كتاب الجيم بطبيعة الحال قبل وفاة صاحبه الشيبانى أى قبل سنة ٢١٣ هجرية . ولا نعرف متى بدأ الشيبانى فى تأليفه ، لأننا لم نجد أية إشارة إلى ذلك فى كتابه ، ولم تصل إلينا أية رواية عن ذلك . ومادة الكتاب تدل على أن تدوينه حدث على مرحلتين : الأولى ما أخذه عن الرواة وهى المرحلة الأقدم ، والثانية هى المختارات الشعرية ، أى أن الزمن الذي احتاجه الشيبانى فى تدوين هذا الكتاب لم يكن قصيراً . ولا يمكننا القول أيضا إذا كان البدء فى جمعه حدث قبل أو بعد منقولة الليث بن المظفر (المتوفى سنة ١٨٠ هجرية) لكتاب العين للخليل . ومما يستحق الذكر أن الشيبانى ورد اسمه عده مرات فى نسخة العين للمظفر (بعد صفحة ٢٦٠ من نسخة برلين) ، وربما لايدل ذلك على شئ لأننا نعرف أن هناك زيادات أدخلها النساخ على كتاب العين . ولم يذكر الشيبانى اسم الخليل فى كتاب الجيم . وهناك سؤال قد يتبادر إلى الذهن : هل كان كتاب العين حافزاً مباشراً لنشأة كتاب الجيم ؟ اختلف المستشرقون فى الرد على هذا السؤال فذهب « كرنكو » و « هيوود » إلى ترجيح أثر العين على الجيم ، وأنكر « ويلد » وقوع هذا التأثير : اعتمد كل من « كرنكو » و « هيوود » على المنافسة الشديدة بين مدرسة البصرة ممثلة فى الخليل ومدرسة الكوفة ممثلة فى الشيبانى :

والواقع أن كتاب الجيم هو تطور طبيعى لكتب النوادر التى لم تتبع ترتيبا دقيقا ، وهو مرحلة من التطور للمعاجم العربية ، بخلاف كتاب العين الذى اتبع مؤلفه ترتيبا أجنبيا (قد يكون هنديا) .

حول تسمية كتاب الجيم :

كان عنوان كتاب الجيم هدفا لكثير من تأويلات القدماء . وقد أرجعه العلماء فى الأغلب إلى الترتيب . وقد ذهب البعض أن اسم كتاب الجيم أتى قياسا على كتاب العين الذى تبدأ بالعين وأن كتاب الجيم لا بد أنه كان يبدأ بحرف الجيم . وكان ذلك قبل أن

يصل الكتاب إلى أيدى العلماء . وكتاب الجيم كما نعرفه يبدأ بالألف لا بالجيم .

وقد أشار المستشرق « ديرنبور » فى كتابه المخطوطات العربية الجزء الأول (صفحة ٣٩٦) إلى أن اسم الكتاب يمكن أن يوضح من عبارة وردت فى المخطوطة « هذا آخر ما وجد من حرف الجيم بخط السكرى وذكر فى آخر الجيم أنه قد بقى منه ولم يوجد » . وقد فهم « ديرنبور » من هذه العبارة بخط الناسخ أن النسخة التى وقعت للسكرى تنتهى بحرف الجيم ومن هذا أخذ الكتاب هذه التسمية . وهذه العبارة المكتوبة فى ورقة ٣٢ ب من مخطوطة الأسكوريال ، لا تشمل الكتاب كله ولكنها تشير إلى باب الجيم الذى ضاع منه جزء عند السكري ، وبالتالى لا يمكن الأخذ بها فى تفسير سبب التسمية. وكذلك لا يمكننا أن نأخذ بمحاولة « هيوود » فى تفسيره لاسم الكتاب : وهو القائل بأن الكتاب سمى فى الأصل من واقع ترتيبه : ألف باء جيم ، ثم اختصر العنوان إلى جيم ، ولسنا نفهم كيف جاء هذا الاختصار ، وهو غير مألوف عند العرب .

وذهب الفيروزبادى فى القاموس أن الجيم عند الخليل : الجمل المغتلم ، وعند الشيبانى : ديباج . ويقول الفيروزبادى فى « بصائر ذوى التميز فى لطائف الكتاب العزيز » : وله (أى الشيبانى) كتاب فى اللغة سماه بالجيم كأنه شبهه بالديباج لحسنه . أما معنى الديباج فيقول صاحب القاموس : جيم سمعته من بعض العلماء نقلا عن أبى عمرو الشيبانى . ولم ينص صاحب القاموس على أن الشيبانى سمى كتابه بهذا الاسم ، وإنما جاء ذلك فى معنى الجيم فقط وهناك من العلماء من ألف كتبا بهذا الاسم : النضر بن شميل (توفى سنة ٢٠٣ هـ) وهو معاصر للشيبانى ، ذكره الفهرست . وشَمِير بن حمدويه (توفى سنة ٢٥٥ هـ) وهو من جيل لاحق للشيبانى . ولم يصل إلينا من هذين الكتابين شىء . فكتاب النضر لم نعرف عنه شيئا ، وكتاب شَمِير غرق فى فيضان ، وكان عند الأزهرى منه بعضه من الأول ، ويصفه الأزهرى فى تهذيب اللغة بقوله : على غاية الكمال. وكان شَمِير قد أتى بشواهده من الحديث والقرآن على الأغلب .

ويخيل إلينا أن شَمِير أخذ عنوان كتابه من كتاب الشيبانى وشميل لأنه تتلمذ على زملائهما كما جاء فى التهذيب . وكان كتاب الجيم لشَمِير مرتبا ترتيباً أبجدياً ولم يبدأ بحرف الجيم .

وعلى هذا فإن تسمية كتاب الشيبانى بالجيم لا تزال معلقة للدرس والبحث .

مراد كامل
عضو المجمع

اللغة العربية
هل هى
لغة عصرية ؟

للأستاذ محمد بنشوقى أمين

— ١ —

فى الجزء الخامس والعشرين من مجلة «ديوجين — مصباح الفكر» التى تصدرها مجلة رسالة اليونسكو ومركز مطبوعاته ، وهو الجزء المؤرخ ٥ مايو سنة ١٩٧٤ — بحث الأستاذ «أنطوان مطر» مترجم بقلم الأستاذ «على أدهم» ، عنوانه : «اللغة العربية والظروف الحاضرة ، وما ينتظر تحقيقه من آمال فى مستقبل عالم المتكلمين بها» .

وقد عرض الباحث فى بحثه لقضايا ومشكلات وثيقة الصلة باللغة العربية ومدى كفايتها العلمية ، مستخلصا مما عرض نتائج وأحكاما تثير الانتباه ، وتقتضى المراجعة .

وإن الغيرة الراشدة ، والحفاظ المستنير على لغتنا العزيزة ، حقيقان أن يبعث كلاهما على الترحيب بالنقد والملاحظة أكثر من الترحيب بالتنويه والإعجاب :

— ٢ —

فصارى البحث أن اللغة العربية ليست لغة حديثة ، وهى لا تستطيع بحالتها الراهنة أن تستخدم باعتبارها وسيلة صالحة لثقافة تقدمية ، إنسانية أو تقنية ، وأن الإعلام الجماهيرى — مثل الإذاعة والصحافة — قد أنقذها فى تردد وجزئيا من جمودها ، وذلك بأن أرغمها على قبول تطور إيجابى ، ولكنه ليس كافيا ، لأنه لا يؤثر إلا فى القليل نظم القضاء والأدب ، مع استبعاد المجالات العلمية والتقنية .

ويقدم البحث أسبابا لعدم إمكان استعمال العربية ، وهى أن لها طابعا دينيا ، وأن ليس للعرب لغة قومية علمانية ، وأن العربية مرتبطة بالقديم ، فكأنها للتعبير عن التاريخ ، وأن التطور الاجتماعى تجاوز العالم العربى . ويبنى على هذا أن العربية محرومة المصطلحات الفنية اللازمة لتقدمها . ويضيف إلى ذلك أن وسائل الاتصال بالتقدمية الحديثة لا تتأتى فى مجتمع يكتب لغة لا يتحدث بها ، أو يتكلم بعدة لهجات ينشأ عنها لغات قومية لا تكتب .

ويمضى البحث ناعيا على اللغة العربية أن بها إمكانيات مثل أسماء الأسد البالغة تسعين اسما ، وأسماء الله الحسنى الزائدة على هذا

العدد ، فى حين أنه لا يوجد بها مساعد لغوى لتصورات ومفاهيم أولية لا يستغنى عنها ، وأن الثغرة الخطيرة المكونة من نقص المصطلحات العلمية موضع إهمال :

ويتناول البحث منطق العربية، فيذكر أن تطور معانى الكلمات فيها ضعيف ، وأن (نعم) و « لا » لهما قيمة تختلف عما لنظيريهما فى اللغات ، وأن درجات التأكيد متعددة ، والصور البلاغية البسيطة مفقودة ، وأن زمن الأفعال مختزل ، وأن الحروف ساكنة تتحرك أواخرها تبعا لوظيفة الكلمة فى الجملة ، ومعنى الجملة يتوقف على نطق الكلمة عليها حركتها ، وحروف الآلة الكاتبة أكثر منها فى نظائرها اللاتينية ، والكلمات تكتب من اليمين إلى الشمال على عكس الأعداد.

ويقدم البحث إحصائية لليونسكو يبين جدولها أن نسبة الإنتاج العلمى فى انجلترا ٢٢١ ٪ وهى أعلى نسبة ، وفى فرنسا ٩ ٪ ، وما انخفض عنها موزع فى الإيطالية والإسبانية والصينية والاسكندينا فية . فأما الإنتاج العربى فليس بشىء تقريبا ، فالعربية ليست ذات إنتاج علمى له قيمة فى كل علم نظرى وتطبيقى وعلم اجتماعى ، بسبب بطء تقدمها .

ويطالب البحث بجعل التربية ملائمة للحياة الحديثة ، ويذكر أن ما يتلقاه الطالب من اللغة قد تنحى عن حاضره الجارى ، ويشير إلى أن تجديدات الاتصال الجماهيرى فى المصطلحات لا تقل نفاسة عما تقدمه مجامع اللغة العربية الثلاثة الرسمية .

ويرى الباحث أن العربى حفظ الكلاسيكى للوراثة الثقافية، وحماية لغة المسلمين المقدسة . وهذا لا يمنع من دراسة لغة اختيارية علمانية سهلة التداول باتخاذ خطوات ، هى فصل العربى الأساسى عن العناصر التى تعوق تقدم اللغة ، وتعليم الطفل التعبير بالأساليب اللغوية الحديثة المتضمنة لمصطلحات العلم الحديث ، مع تحاشى التعدد اللغوى بين المتحدثين بالعربية وقيام الجماعات العلمية بإعداد معاجم تختار المصطلحات الموجودة المعبرة فكريا ومفهوما أو المنبعثة من الاشتقاق والتأليف ، أو المنقولة صوتيا من اللغات الأخرى .

— ٣ —

ولعل أول ما يلاحظ فى هذا البحث أنه بالغ الجسارة فى التصريح بتقريرات قطعية وإصدار أحكام حتمية ، لا تعبر عن حاضر ولا يشهد لها واقع . فهل العرب ليس لهم حقا لغة قومية علمانية ؟ وهل العربية ذات طابع دينى ، وصبغة مقدسة ، تعبر عن تاريخ الوراثات الثقافية ؟ وهل هى محرومة مصطلحات العلم ، فقيرة فى المساعدات اللغوية للمفاهيم العلمية الأولية ؟

لو أن هذه التقريرات والأحكام جرى بها قلم باحث عربى أو أجنبى منذ قرن أو أكثر من قرن ، لوجدت للمساغ قبولا أو شبه قبول . أما اليوم فإنها لا تمثل حقيقة اللغة العربية ونشاطها العلمى والحضارى فى بلاد العروبة .

وما أحسب أن أجنبيا — بله العربى — يستطلع من بعيد أفق الحياة الثقافية فى بلاد العروبة ، يستطيع أن يجد إلى الاطمئنان بهذه التقريرات والأحكام سبيلا . ففى البلاد العربية العدد الكبير من الكليات والمعاهد والجامع والمجالس والأندية التى تمارس الحياة العلمية الطليقة فى أدق مجالاتها ، وأرفع درجاتها ، وصميم اختصاصاتها . واللسان الذى ينطق بهذه الحياة العلمية ويعبر عنها فى معظم المجالات والدرجات هو اللسان العربى ، والمطبعة العربية تخرج فى كل يوم بل فى كل ساعة من الزاد العلمى والثقافى ما يتناول ضروب المعرفة بنسب متدرجة ، وفى العرب الألوف من الدارسين العلميين المتخصصين الذين جمعوا بين اللغات المتعددة والثقافات المتنوعة ، وقد فتحت أمامهم النوافذ على الصعيد العالمى يحصاون ويعلمون ويؤلفون ويترجمون بالعربية ، وفى المعجمات الثنائية لمختلف اللغات ما يؤكد احتواء العربية لأمهات المصطلحات العلمية ، وتعبيرها عن أكثرها من مادة الفصحى ، ونقلها للأقل بأصواته الأصلية . والصحافة العربية التى تزيد نشراتها على المئات تخرج للأمة العربية صباح مساء مصورة أحداث الحياة وشئون الدنيا وما يدور فيها من وجوه الأنشطة ، وذلك بلسان عربى ينتقل إلى أذهان القراء العرب فى كل مكان. فأين خصوصية الطابع الدينى وخصوصية التعبير التاريخى فى ذلك كله ؟ وكيف يكون مدلول اللغة القومية العلمية أو اللغة الحديثة العصرية إن لم يكن ذلك الواقع المشهود الذى لا ترقى إليه شبهات الجدال ؟

— ٤ —

والملاحظة الثانية التى تبرز فى البحث أنه عرض لنظريات لغوية ، واستخلص مشكلات للعربية فى النحو والكتابة وبعض الأوضاع واقترح أخيرا ما اقترح من حلول وعلاجات ، وقد ساق البحث نظرياته ومشكلاته ومقترحاته على نحو يشعر بأنه أنشأها إنشاء ، أو اكتشفها اكتشافا وهى لا جديد فيها ، إذ أشار إليها باحثون من قبل ، من الوجهة العملية حينا ومن الوجهة النظرية أحيانا ، ولكل منها مكانه من الدراسة والتحليل والتعقيب قبولا أو رفضا ، فأجملها البحث إجمالا ، ودفع بها لتكون قذيفة تنفجر بها نتيجة حاسمة ، هى أن العربية ليست لغة عصرية ، وأنها لا تصلح لثقافة تقدمية .

ومع أن المقدمات غير مسلمة على إطلاقها ، وبهذا لا تكون النتيجة منطقية مسلمة ، فإننا نفترض جدلا أننا سلمنا بتلك المقدمات كل التسليم ، فرفعنا تلك المشكلات فوق المناقشة والإنكار ، فهل تكون مقدمات صالحة لا ستنتاج ما يكرره البحث من عجز العربية عن أن تكون لغة عصرية لثقافة تقدمية ؟

أئذا بقيت العربية على حالها بمشكلاتها لا تكون لغة علمية ؟ فماذا نسمى إذن ما تجرى به الأقلام وتنطق به الألسنة فى النطاق العلمى اليوم ، وماعسى أن تجرى به وتنطق من بعد؟

أئذا خلت العربية من مشكلاتها المعروضة فى البحث تصبح لغة علمية صالحة لثقافة تقدمية بمجرد هذا الخلاء المنشود ، وبسببه وحده ؟

إن المشكلات التى عرضها البحث ، كانت هى وغيرها مما لم يعرضه ، قائمة بهذه الدرجة أو أشد ، يوم خرجت العربية من عهد البداوة إلى حياة جديدة لا عهد لها بها ، فواجهت على الرغم من تلك المشكلات مستحدثات المعانى والمسميات فى حكمة الهند ، وفلسفة يونان ، وحضارة فارس ، وتجلت عبقريتها وفراهتها فى العواصم ، فى بغداد ودمشق ، وفى القاهرة وقرطبة ، لاستيعاب المعرفة الإنسانية علما وفكرا بوجه عام ، وحفظتها حتى نقلتها أمانة مزيدة نامية إلى العالم المتعطش إليها فى شرق وغرب :

— ٥ —

ومما يلاحظ فى البحث أنه وصف العربية بأوصاف مشوبة لاتتنكب عن لبس وإبهام، فهى ذات طابع دينى ، لغة كلاسيكية للوراثة الثقافية ، لغة للمسلمين مقدسة . والذى يسبغ على هذه الأوصاف اللبس والإبهام أن البحث يجعلها فى مقابل: لغة الحياة، اللغة العصرية ، اللغة العلمانية :

لقد كانت اللغة العربية ، خلال أربعة عشر قرنا ، موصولة بالدين كصلتها اليوم أو أقوى، وبخاصة فى عصور الازدهار الأولى: ولم تكن مع ذلك إلا لغة قومية عصرية علمانية حية بالنسبة لتلك العصـــور الخوالى ، وبالنسبة لعصرنا الراهن :

إن الناطقين بالعربية يأبون هذه الأوصاف التى يراد بها الفصل بين لغة ولغة ، أو التمييز بين أولى وأخرى ، فهم لا يتقبلون القول بأن هناك تفرقة بين لغة كلاسيكية ولغة عصرية أو أن هناك لغة يفهم بها التراث الثقافى ولغة يفهم بها العلم الحديث، أو أن هناك لغة ذات طابع دينى ولغة بعيدة عن المجال الروحى : ولعلى لا أغلو إذا قلت بأن هذه التفرقة والتمييز فيهما ما يحدو — بحق أو بغير حق — على التشكك وإساءة الظن بمن يلجئون إليها ، وربما أوحت إلى النفوس القول بأن ثمة خبيئة نفس عند من ينادون بها ، وأن وراء السطور من النعرات الطائفية ما وراءها :

لا يرى الناطقون بالعربية إلا أن هناك لغة عربية واحدة ، يرجع كيانها لفظا وتركيبا وأسلوبا إلى معجم واحد ، وإن اختلفت مدلولات اللفظ حقيقة ومجازا ، وتطورت معانيه فى عصور متعاقبة ، وتعددت تعريفاته فى مجالات متعددة ، ولكنهم إلى جانب ذلك مؤمنون بأن هنالك أساليب تتنوع بين علمية وأدبية ، وصحفية وإذاعية ، وأن بينها درجات من يسر التعبير وسهولته، أو جودته والتأنق فيه ، طوعا لبلاغة الأداء ، وما يحتويه من عناصر الدقة المنطقية ، أو الوضوح العلمى ، أو سعة الخيال وما يستتبعه

من صور بيانية موحية . بيد أن تنوع الأساليب ، وتفاوت التراكيب ، هو عند العرب لغةعربية واحدة ، لغة للدين وللحياة ، لغة للمسلم وغير المسلم ، لغة للكتابى ولغير أهل الكتاب ، لغة لمطالب العقل والجسد والروح ، لغة للعلم والفن والأدب والحضارة على السواء :

لا تفرقة فى العربية بين لغة عصرية ولغة غيرعصرية ، بهذا المفهوم الانفصالى القاطع ، فهى أداة ألفاظها متعددة الدلالات ، وعباراتها متفاوتة التراكيب ، وفى أساليبها تنوع بحسب مجالات التعبير ومقتضياته : لغة نفهم بها تراثنا الثقافى ، ونعبر بها عن حاضرنا العصرى ، ونعمل على تنميتها وتطويعها لمقاصد الحياة فى ركبها العالمى مع الأيام إلى أمام :

— ٦ —

وفيما يلاحظ أن البحث يردد ما لاكته الألسن من الإشارة إلى سعة اللغة فى بعض موضوعات وضيقها فى بعض ، ويضرب لذلك ما ضربته تلك الألسن من مثل الأسد الذى قاربت أسماؤه الأصلية أو الوصفية المائة ، ويقابل ذلك يفقد المساعد على التصورات الأولية ونقص المصطلحات العلمية . فهل يعد ذلك — على فرض وجوده — ضعفا فى طبيعة اللغة وأصالتها وما لها من مرونة وقدرة على سد الحاجة إلى التصور أو الاصطلاح العلمى ؟

إن اللغة التى سمت الأسد بأوصافه عشرات الأسماء لا تعجز أن تسمى غير الأسد من التصورات أو المصطلحات . وليس أدل على قدرتها من أن المصطلح العلمى الواحد ، يجد اليوم على أقلام الباحثين والمترجمين العلميين ألفاظا شتى تدل عليه ، منها ما يترجم أصله ، ومنها ما يترجم معناه ، ومنها ما يتخذ فنونا من الوسائل بإحياء لفظ قديم أو اشتقاق صيغة جديدة ، ومنها ما يلمح فى الوضع سمة ظاهرة ، أو وظيفة عاملة : وهذا كله برهان طواعية اللغة للتشمير ، ولبانها لضروب التعبير :

ونحن حين ننوه بهذا الدليل لا نباهى به ، فما أحوجنا إلى الحرص على توحيد اللفظ العربى للمصطلح العلمى ، وإنما نقدمه فى مواجهة النعى على العربية بأنها فقيرة فى هذا الجانب من المواضعة والاصطلاح ، لندل على أن غنى العربية وخصبها كفيل أن ينفق على من يستثمر مادتها وأوضاعها فى الوفاء بمطالب الحياة العصرية والحضارة الحديثة فى تقدمهما العلمى والإنسانى :

— ٧ —

وفيما يلاحظ أن البحث يكرر موقف العربية من الاصطلاح العلمى ، ولايبالى أن يصرح بأن العربية محرومة المصطلحات العلمية اللازمة لتقدمها : وهذا الإطلاق يجافى ماهو قائم فعلا فى الحياة العربية . فإن عصر النهضة الذى نيف على مائة سنة قد

تتابعت فيه الجهود لتنمية المصطلح العلمى ، فترجم الطب والهندسة وغيرهما فى مطالع العصر ، بل لقد كان تدريسها بالعربية أول الأمر ، وأذكر أن الدكتور « فارس نمر » الصحفى اللبنانى الأصل ، المولود فى منتصف القرن الماضى ، كان يحدثنا أنه درس الطبيعة والرياضة وغيرهما بمصطلحات عربية ، وكان يذكر فى هذا الصدد اسم « فانديك » واسم « وارتبات » من الأساتذة والمؤلفين . وفى هذا العصر ترجمت شوامخ العلم والفلسفة والفن والأدب ، من أمثال أرسطو وداروين وفرويد وشكسبير ، وألفت كتب فى الفروع العلمية كافة ، وتولى تدريسها بالعربية علميون مختصون .

وما كان ذلك ليتسق لو كانت العربية قد خلت من كلمات عربية تقوم مقام المصطلحات الأجنبية على تعدد لغاتها .

إن العربية العريقة ذات تجارب فى الأداء العلمى أصيلة ، وقد أعانتها تلك التجارب على أن تطاوع ماتراد عليه من تأدية المعانى الاصطلاحية ، ولم تكن المشكلة عندها نقل المعانى المجردة والأوصاف والشروح ، بل نقل أسماء الجواهر والذوات والأعيان وبعض المسميات ، وعلى الرغم من ذلك اتسعت لها بالوضع فى الأكثر ، وبالتعريب فى الأقل .

ولسنا نقول ذلك من فراغ ، فبين أيدى قراء العربية ماتتابع خلال المائة السنة الماضية من معجمات ثنائية ، حافلة بالألوف من مصطلحات المعرفة الحديثة عامة ، نذكر منها تمثيلا لاحصرا : معجم شرف الطبى ، ومعجم عيسى النباتى ، ومعجم مظهر العلمى ، ومعجم الشهابى الزراعى ، ومعجم المعلوف الحيوانى ، ومعجم الجامعة العربية العسكرى ، ومعجم إلياس العصرى ، وكذلك المورد والمنهل وغيرهما من عشرات المعجمات .

— ٨ —

ومما يلاحظ أن البحث قد شاء أن يغفل — لاعن غفلة — جهد المجامع اللغوية فى القاهرة ودمشق وبغداد ، إلا حين أشار إلى إسهام الاتصال الجماهيرى فى التطور اللغوى وتجديداته فى المصطلحات ، فقد ذكر أن هذه التجديدات لاتقل نفاسة عما تقدمه تلك المجامع .

بهذا يتجاهل البحث أن هذه المجامع قد جعلت لغة العلم أساسا لعملها ، ولم تكن جهودها فى نشر التراث العربى أو تيسير أوضاع اللغة وتوسيع أقيستها ووسائل الاشتقاق فيها ، أو التخطيط لدراسة الكلمات وقبولها ، إلا ركائز ودعائم لتنمية لغة العلم وتزكيتها .

إن أنظار قراء العربية ترتع فى نحو عشرين مجلدا أخرجها مجمع القاهرة ، ولا محتوى لها إلا مصطلحات العلوم والفنون والآداب ، مقرونة بمقابلها الأجنبى ، مدروسة ممحصة بفضل من قاموا عليها من أعضاء وخبراء تسنموا فى كل فرع من الفروع العلمية أعلى مستويات

الاختصاص . وهذه المجلدات التى هى ثمرة الكفاح فى عشرات من السنين تشمل ألوفا من المواضعات العلمية الحديثة ، وقد بادر إليها مؤلفو المعجمات الثنائية فتناهبوها—مشكورين— لتضمها معجماتهم التى تتوالى طبعاتها ، وكذلك بادر إليها المؤلفون والمترجمون والمدرسون لتكوين سندهم فى التأليف والترجمة والتلقين .

وفى سيرة صاحب البحث أنه أسهم فى وضع معجم عربى فرنسى موحد ، وقد حوى من المصطلح العلمى العربى ما حوى ، واليقين أن صاحب البحث هو ومن معه من مؤلفى المعجم رجعوا إلى من سبقوهم إلى التأليف المعجمى ، وما أحسب أنهم قد زهدوا فى الرجوع إلى الجهد المجمعى .

ولا بد لنا من أن نراجع البحث فيما عمد إليه من الفصل بين الاتصال الجماهيرى أو الإعلام الجماهيرى من : إذاعة وصحافة ونشر وبين المجامع اللغوية . فأى فاصل بين وجوه النشاط الإعلامى ووجود النشاط المجمعى ، وكلها أنشطة متداخلة متعاملة ، يستقى بعضها من بعض ، ويتداخل فيها بعض وبعض ، وهى تتجاوب أصداؤها فيما تقترح من الكلمات وما تشيع : فالصحفى أو الإذاعى أو الكاتب بوجه عام إذا أراد التعبير عن المسميات العلمية والحضارية رجع إلى المتخصصين العلميين أو اللغويين يستعينهم عليها ، أو استخبر المعجمات الثنائية لتهديه إلى ما يعبر به عند الحاجة .

وليست مهمة المجامع خلق الكلمات وافتعالها ، وإنما يخلق الكلمة أو يرتضيها من يختصون بموضوعها من العلماء والفنانين وصناع الحضارة فى بيئاتهم العلمية والفنية والصناعية . وغاية ما تقوم به المجامع هو الإعداد والتنظيم وجوهر عملها المراقبة والإشراف ، فهى أداة تسجيل أو ترشيح ، وهى جهاز تنقية وتزكية وتوثيق . فعلاقتها بالإعلام الجماهيرى أنها منه وإليه ، بينهما تبادل وتعامل ومؤازرة ، لا تباعد بينهما ولا انفصام .

وعلى رأس ما تعنى به المجامع العمل على توحيد المصطلح العلمى أو الحضارى ، لتعميم استعماله فى العربية على تراحب أصقاع الناطقين بها ، تفاديا من التعدد والفرقة اللذين ينتهيان إلى بلبلة على طريق التواصل والتفاهم الثقافى بين الكاتبين والقراء .

ولا أظننى أعدو الصواب حين أعد المجامع اللغوية قبلة الذين يرجون للعربية أن تتعمق صلتها بالتعبير العلمى الحضارى ، رعيا لما يتوافر فى هذه المجامع من أدوات التحرى والترجيح ، ومن عوامل التأثير الإيجابى فى البيئات العلمية المختلفة .

— ٩ —

يضاف إلى ما يلاحظ أن البحث تحدث فى مشكلة الفرقة بين لغة الكتابة والتدوين ، ولغة المشافهة والحديث . وعرج من ذلك على تعدد العاميات بين المتحدثين بالعربية ، وتساءل ما هى فرص البقاء للغة مكتوبة لا يتحدث بها كاتبوها ؟

وليس منا من لا يعرف أن العاميات والفصحى فى صراع موصول ، وأن لهذا الصراع وشائج

من غلبة الجهل بالقراءة والكتابة بالنسبة لمجموع أهل العربية . وليس منا من لايلمس الجهود التى تبذل لعلاج ذلك بنشر الوعى الثقافى وتقوية وسائل الاتصال الجماهيرى بين العرب لتذويب الفوارق بين العاميات من ناحية وبينها وبين الفصحى من ناحية أخرى ، وذلك إلى جانب الجهود الجادة لخفض نسبة الجهل بالقراءة والكتابة . ولكننا لا نعرف لماذا يعرض البحث لهذه المشكلة فى صدد ما يندد به من فقر العربية فى المصطلحات الفنية ، وحرمانها أن تكون لغة العلم العصرى ، وأنها ليست لغة حديثة ؟ فهل يتوقف الخلاص من ذلك على الخلاص من تلك المشكلة المتعددة الجوانب ؟ وهل نقف مكتوفى الأيدى على مضض الانتظار حتى تمحى العاميات وتتوحد الفصحى لكى تكون لنا لغة علم ؟ وهل يرفع توحيد اللغة نسبة قابليتها لاستيعاب الإنتاج العلمى؟ أليس الملايين ممن يعلمون العربية قدرا كافيا لجعلها أداة عامية إن لم تكن؟ إن هؤلاء الملايين لهم لغتان متقاربتان إحداهما الفصحى الموحدة والأخرى العامية الخاصة ، وهم يتبادلون الثقافة بالأولى . ومن الميسور أن نفترض البعد كل البعد بين لغة الخطاب ولغة الكتابة ، دون أن يستتبع ذلك عجز اللغة الكتابية عن الاستيعاب العلمى ، وليس بمستنكر أن تتعدد فى المثقف لغاته ، ولكل لغة مجالها فى حياته . فلتكن الفصحى لغة الكتابة عند العربى ، وإن كانت العامية لغته المستعملة فى غير النطاق الكتابى .

ولولا مخالفة التطويل لأفضت فى القول بأن الفروق بين الفصحى والعامية وبخاصة المصرية مغالى فيها ، فهما لغة واحدة فى الجملة ، يفارق الإعراب وبعض الأوضاع التعبيرية فى الألفاظ والتراكيب ، وفينا من سمى لغة الحديث والخطاب : العامية الفصحى .

ولئن قلنا ذلك إننا لا نقوله غافلين عن سوء أثر التعدد اللغوى ، وعن ضرورة مواصلة السعى لتذويب العاميات ومكافحة الجهل بالقراءة والكتابة . وإن كنا نرفض الذهاب إلى أن هذه المشكلة عامل أساسى فى نقص المصطلحات الفنية وضعف الإنتاج العلمى ، وأنها عقبة كئود تعوق العربية عن أن تكون لغة علم حديث وحضارة تقدمية .

وإذا ألقينا نظرة على الماضى فى موضوع الفصحى والعامية : أطلتنا على التاريخ وهو يرينا أن العامية ليست حديث العهد ، ومن الباحثين من يرجع بنشأتها إلى العصر الجاهلى . أما الثابت الذى لايحتمل نزاعا فهو أن العامية عاشت فى أزهى عصور العربية : علما وفكرا وثقافة ؛ وكان أهل العربية فى تلك العصور أقل منهم الآن عددا وأوفر تأليفا وأغزر إنتاجا ، مع عسر الوسائل والملابسات وطرق المواصلات . ففى الوقت الذى كانت فيه تترجم روائع الفكر العالمى فى القرن الهجرى الثانى وما يليه ، كان للعامية وجودها فى المجتمع العربى بين المثقفين خاصة وغير المثقفين عامة . ويخضرنى الساعة ما عزاه صاحب «الأغانى» إلى «الموصلى»

من شعر ملحون هو أقرب إلى ما نعرف باسم « الزجل » ، ومنه قوله :

أنا جيت من بلاد موصل
أسقى قلل خمريا

وكذلك بحضرتى مانقله « الجاحظ » فى بخلائه من قول « النظام » : « إن كنت سبع» دون إعراب ، وتنبيه الجاحظ » فى غير موضع إلى أن حكاية النوادر والنكات والأفاكيه يجب أن يراعى فيها لفظها ولهجتها ، فإن ردها الحاكى إلى الفصاحة وألزمها الإعراب خرجت باردة لا طلاوة عليها ولا تأثير لها :

ويخلص لنا من ذلك أن اللغة وتعليمها أو تعصيرها وتحديثها ، لا يتوقف على أن تكون لغة كتابة وحديث معا ، ويكفى فى مساوقتها لركب العلم والحضارة أن يستطيع أهلوها إجراءها على أقلامهم فى سهولة ويسر

— ١٠ —

وفيما يلاحظ أن البحث تناول موضوع الحروف العربية وتعدد صورها وعلامات ضبطها ، وذكر أن الفهم مطلوب لإمكان القراءة ، وأن الخطأ فى النطق يغير معنى الجملة ، ولذلك خطره فى التفاهم الجماهيرى.

والبحث فى هذا كله يتلقط ماأفاض فيه الباحثون وأهل الرأى من قبل ، ومنه ماعولج بطريقة أو بأخرى ، ومنه ماتبين الغلو فى تقدير أثره :

فأما تعدد صور الحروف فى الطباعة العربية فقد كثرت المقترحات فى حل مشكلاته ، وانتهى العمل إلى اصطناع مادعا إليه « مجمع اللغة العربية » فى القاهرة من اختصار الصور إلى أقل عدد ، مع الاحتفاظ بطبيعة الخط العربى وفنه الجمالى .

وفى الصحف اليومية السائرة نماذج من هذا الاختصار .

وأما علامات الضبط فهى مغفلة حقا فى معظم ماينشر ، وإغفالها لايقوم سدا فى سبيل التفاهم إلا فيما ندر من كلمة أو كلمات : على أن الكاتب العلمى وغير العلمى يكتب ما يكتب وإن كان غير محسن لقواعد العربية وضوابطها ، ومايكتبه فى شهور يستطيع مراجع وراءه أن يسد خلله فى يوم وليلة ، والناس يقرءون الصحف والكتب عارية عن الضبط والإعراب ، وربما كان فيها من الخطأ مافيها ، فيفهمون فى الأغلب الأعم لايتعثرون. ولقد أصبح من المبالغ فيه القول بأن الإعراب شرط المعنى ، ففى سياق الجملة غنية وكفاية فى معظم الأحوال : وبين اللغويين المحدثين من يتكهن بأن العامية صائرة إلى عربية غير معربة ، وفى القدامى من العلماء الأثبات من يرى أن البناء وترك الإعراب لايخل بمعانى الكلام ، والدارسون للهجات العربية يعلمون أن الوقف بالسكون مطلقا لغة لبعض العرب ، وأن إسكان المنصوب لغة لبعض من العرب

آخرين ، وفى المأثور من الكلام العربى ماهو موقوف غير معرب ، لإجراء الوصل مجرى الوقف ، أو لإعطائه حكمه .

وما نبغى بما نبسط من ذلك أن ندعو إلى ترك لإعراب ، أو نجنح إلى الاستخفاف به ، بل نقصد بذلك أن الأمر الواقع فى ترك الضبط بالحركات لايمثل مشكلة تباعد بين العربية وبين مواتاتها لحاجات الحياة العلمية والحضارية ، وفى ذلك رد كاف على ما يعنيه البحث من وراء ترديد تلك الظواهر فى ضبط الكتابة ، للقول بأنها هى الحاجز عن أن تكون العربية لغة علم حديث .

— ١١ —

وفيما يلاحظ أن البحث تكلم فى موضوع النفى والإيجاب بنعم ولا ، وفى موضوع زمن الأفعال للماضى والحاضر والمستقبل ، مقارنا بين العربية واللغات الأخرى ؛ والبحث يجرى فى هذا على شاكلته من التعرض لمسائل نظرية سبق إليها بعض المستشرقين ، ودارت حولها مناقشات وردود ، فالبحث يبتغيها من مرقدها ليتخذ منها تكأة لما يقرر من أن العربية ليست لغة علمية حديثة :

ولا أنسى أن ما تكلم فيه البحث كان مدار حوار خصيب منذ عشرين سنة أو نحوها فى مجلس علمى لغوى ، حاضر فيه « عباس محمود العقاد » وناقش فيه دارسون ذوو اختصاص بفقه اللغات وعلم الأصوات ، منهم الدكاترة إبراهيم أنيس وتمام حسان وكمال بشروعبد الله درويش ؛ وفيما قيل يومئذ أن العربية تستطيع التعبير عن الأزمنة السبعة جميعا ، وإن لم تكن بها صيغ اصطلاحية لها . وهل تعاب العربية بأنها منطقية فى تحديد الزمن والتعبير عنه بأفعال معينة ، توافق ماقاله أحد النحاة الإنجليز فى كتابه « أصول الأجرومية » إذ يقول : « الزمن ينقسم إلى جزئين : ماض ومستقبل ، وبينهما حد الانفصال وقت حاضر كأنه النقطة الهندسية التى لاطول لها ولاعرض ولاارتفاع ، ولكنها على الدوام منسوبة للمستقبل » :

ومهما يكن الرأى ، فالنقاش نظرى لمقارنة اللغات ، فما هو بمشكلة عملية فى ترجمة أو تأليف . وفقدان الأداة فى بعض مدلولات النفى والإيجاب أو بعض أزمان الأفعال لا يلزم منه فقدان القدرة على التعبير العلمى المرضى . والسؤال هو : فيم الخصومة والشقاق ، والعربية تتعوض بما فيها من أفانين التعبير عما ليس فيها من أدوات تقابل مافى سواها من بعض اللغات؟

وهل فى مكنة البحث إثبات أن الكاتبين أو المترجمين قد تطاعوا إلى التعبير عن معانى النفى والإيجاب أو درجات الزمن فوقفت الأداة غصة فى أقلامهم فلم يستطيعوا أن يعتصروا بشىء من أساليب العربية كما يعتصر الغصّان بالماء ؟

—١٢—

وفيما يلاحظ أن البحث ، حين جعل هذه المشكلات التى عرضها ذريعة للقول بأن اللغة فى حاجة إلى تزويدها بأدوات التفكير العلمى ، استند ن ذلك إلى حقيقة جاءه بها إحصاء « اليونسكو » الذى قدم جدولا بان منه أن العربية لم تعد بين اللغات التى لها إنتاج علمى . ونسبته فى إنجلترا أعلى نسبة وهى ٢٢ مم وفى فرنسا أدناها وهى ٩ . ومن اللغات التى انخفضت عن ذلك الإيطالية ، أما الإنتاج العربى فليس بشىء تقريبا :

ويبدو أن البحث قد استشاط غضبا لهذا الإحصاء الأليم ، فأثار غبار تلك المشكلات ليوجه إليها الاتهام ، وليس من شك فى أن ذلك الإحصاء يكشف عن حقيقة مؤسفة ، ويدق أجراس التحذير من استمرار الحال على هذا المنوال ، وينبه القوّام على الثقافة إلى ضرورة تنمية التأليف والترجمة فى المجال العلمى .

ونحن إذ نلتزم جانب الأناة والروية فى الفهم والتحليل لما كشف عنه الإحصاء اليونسكى ، يتضح لنا أن السر فيه لايرجع بقدر يذكر إلى صعوبة العربية أو قصورها ، وأمامنا الإيطالية التى أخرجها الإحصاء من جدول النسب ، وما ذلك عن صعوبة أو قصور فى بنيتها اللغوية بالإضافة إلى لغة إنجلترا التى زادت النسبة فيها على العشرين فى المائة : أليست النسبة إذن نسبة جهد وعمل ونشاط ، لا نسبة يسر وسهولة ومرانة واقتدار ؟

وفى ظنى — بدرجة ما — أن الإحصاء كمى عددى ، لانوعى كيفى ، أعنى أنه يقوم على تعداد وحساب للمؤلفات والمترجمات قلة وكثرة . فإن العربية — بين أيدينا — فيها نماذج كثيرة من أنواع المعارف والعلوم تأليفا وترجمة ، يدرسها أو يقرؤها الملايين من أهل العربية ، ولكنها فى غلبة الظن لا تبلغ فى العد والحساب ما بلغت اللغات التى سما بها الإحصاء إلى الصفوف الأولى .

—١٣—

ويسعنا فوق ما تقدم أن نرد السر فى الإحصاء الذى تخلف بالعربية دون النسب العالمية للغات إلى أسباب شتى ، نشير منها هنا إلى أن ثمة اتجاها بين العلميين العرب يتحمس له بعض منهم ، وهذا الاتجاه يرى أن الوقت لم يحن بعد للعدول عن تدريس العلوم باللغات الأجنبية ، ومن الخير العمل على تقوية المتعلمين فى تلك اللغات ، لكى يتابعوا تحصيلهم للعلوم بها ، ولكى يتسنى لهم أن يلاحقوا التقدم العلمى السريع فيها ، بالاطلاع الدائب على ما يجدّ من البحوث والدراسات . وفيما يستند إليه أصحاب هذا الاتجاه أن الانصياع إلى التدريس بالعربية فى المجال العلمى التقنى يحرم الدارس العربى هذه المتابعة والملاحقة التى تحقق المشاركة الإيجابية

على نحو مقبول : ولكن هذا الاتجاه — على وجاهته — لايدعونا إلى الاستسلام له ، دون أن نمضى قدما فى تزويد العربية بالمؤلفات والمترجمات العلمية ، حتى نتدانى إلى المستويات العليا من التقدم العلمى العالمى :

بيد أن هذا كله لا يتصل باللغة من حيث اقتدارها على استيعاب الفكر الحديث ، فإن لها من الطاقة والدربة والطواعية حظا غير منقوص ، وهى لا تعيا بالترجمة عما يدور فى العقل الإنسانى العصرى. وفى ميدان التعليم العربى كليات للغات ، ومعاهد للترجمة الفورية ، تمارس نشاطها مستعينة بالجهود الفردية والجماعية والجمعية لإثراء اللغة بالمواضعات والمصطلحات : وها نحن أولاء الآن نناقش من نافذة العربية هذا البحث الذى يصطنع المنهج العلمى العصرى ، ويأنس بالمعطيات الحديثة من الآراء والدراسات ، وقد حرره صاحبه بغير العربية ، فاستطاع الناقل أن يترجمه اليها دون حائل ، والعربية على حالها بمشكلاتها التى لم يدخر البحث جهدا فى تجميعها ، والإغراق فى استعظام تأثيرها .

حقيقة المشكلة التى كشف عنها إحصاء اليونسكو أنها مشكلة تعليم وتقييم؛ لا مشكلة عجز أو صعوبة فى اللغة ، مشكلة جد واجتهاد مادى أو طباعى أو فنى ، مشكلة تنشيط وحفز للبيئة العلمية فى التأليف والترجمة والنشر . مشكلة جزاء مضى عنه للتفرغ للعمل بأيدى المتخصصين من ذوى الجدارة والامتياز، فى كل فرع من فروع العلوم والفنون . وليس من ينكر أن التأليف العلمى جهد رهبانى ، وأن الترجمة العلمية ليس لها من الجزاء المقدور ما يفى بما يبذل فيها من كد وعنت ، وأن النشر العلمى مغامرة سوقية لا يؤمن فيها الخسار: وتلك هى المشكلة الخليقة حقا بالبحث والدرس والمواجهة ، ومتى ظفرت بالمساعى الجادة لتذليل مصاعبها كان ذلك خطوات فساحا على طريق التقدمية والعصرية دون جدال :

— ١٤ —

بقى مما يلاحظ فى البحث أنه يضع خطة لترقية العربية الحديثة : ويدعو إلى اتخاذ إحدى طرق ثلاث للتنفيذ ، وهى استعمال اللفظ العربى إن وجد ، أو اللجوء إلى الاشتقاق والتأليف ، أو النقل صوتيا من اللغات الأخرى. وليطمئن صاحب البحث إلى أن هذه الطرق الثلاث هى بأعيانها الأسس التى نادى بها البصراء من العلماء اللغويين والمصلحين من المفكرين منذ استهلال القرن الحاضر ، وقد صاغها «مجمع اللغة العربية» القاهرى فى قرارات محددة منذ أربعين سنة ، فإن منهجه العملى المنصوص عليه هو :

أولا — تفضيل الاصطلاح العربى القديم على الجديد إلا إذا شاع .

ثانيا — قبول ما استعمله المولدون مما جرى على الأقيسة من مجاز أو اشتقاق ، مع إجازة الاشتقاق من أسماء الأعيان فى لغة العلوم :

ثالثا ـ إجازة استعمال بعض الألفاظ الأعجمية للضرورة .

وعلى هذه الأسس جرى عمله فى وضع المصطلح العلمى على مدى تلك السنين الأربعين ومازال .

وهكذا ينقشع غبار البحث عن جو مصفى، تلتقى فيه النتائج التنفيذية بآراء عملية مطبقة، وحسينا من ترديد هذه النتائج أنها تذكير بضرورة العمل على تزكية لغة العلم العربية ، والقصد إلى تنمية الإنتاج العلمى فيها . وهذا فضل للبحث وصاحبه يذكر فلا ينكر، ويشكر فلا يكفر . ومن ثم يطيب لى أن تكون خاتمة النقد والرد تحية للكاتب وما كتب .

محمد شوقى أمين
عضو المجمع

ثراء اللغة العربية
بأصول المصطلحات الجيولوجية

للدكتور محمد يوسف حبش

بينت في بحث سابق[1] كيف بزَّ العرب في عصور النهضة العلمية الإسلامية من سبقوهم من يونان ورومان، في سكِّ المصطلحات الجيولوجية من أصول لغتهم الزاخرة بها ، وكيف أن هذا يرجع إلى طبيعة البيئة التى عاش فيها المجتمع العربى قبل ظهور الإسلام وإبّان ظهوره .

وقد كان العربى ، بتأثير تلك البيئة ، يعنى بابتكار الألفاظ واشتقاق المعانى أوصف معالمها المتباينة الممتازة بالمظاهر الطبيعية الأرضية من جبال ووهاد ، ومن مفاصل[2] وتِلاع ، ومن شعاب وجُدَد بيض وحمر مختلف ألوانها ، ومن حصى ورمال ، ومن جرولٍ[3] وحصيم[4] ، ومن فُهُور[5] وجلاميد . وكان يميِّز من الصخر المختلف : المرو والأعبل[6] والغربيب[7] والظِّرِّ[8] والصّوان والمرمر والبَلَنْطَ[9] والرخام . ومن المعدن والجوهر : الدُّر والياقوت[10] والطَّلْق[11] . والجَزْع والعقيق .

---

(١) مجلة مجمع الله العربية ، الجزء (٣٢) سنة ١٩٧٣ .
(٢) المفصل : ما بين الجبلين من رمل وحصى صغار .
(٣) الأرض ذات الحجارة .
(٤) صغار الحصى .
(٥) الفهر : القطعة من الحجر ملء الكف .
(٦) الصخر أو الجبل الأبيض الصلب .
(٧) الشديد السواد ، توصف به خاصة الحجارة والجبال .
(٨) الحجر المضرس له حد كحد السكين .
(٩) حجر كالرخام ، إلا أنه دونه فى الهشاشة واللين والرخاوة .
(١٠) سيد المعادن بعد الماس ، وهو من الألفاظ القرآنية ، ورد فى سورة الرحمن : « كأنهن الياقوت والمرجان » . وقيل إنها فارسية أو يونانية معربة ، ولكن العرب تكلمت بها قبل الإسلام ، ويقول أحمد محمد شاكر فى شرح « المعرب للجواليقى » : « الظاهر أنه عربى من مادة أميتت كما أميت كثير من المواد » ص ٤٠٤ ، سنة ١٩٦٩ .
(١١) حجر براق شفاف ذو أطباق يطحن فيكون مسحوقا أبيض .

ومن الأرض : الهِرْشَمُ [1] والمَرْمَريس [2] والرَّواهِص [3] والخَبار [4] . ومن الماء : الجارى والخرخار [5] والحسَوِى والحشرج [6] ومن العيون : البارد والحَنِيذ [7] . ومن غير ذلك كثير كثير .

ولما انتشر الإسلام واتسعت رقعة الأرض العربية من حدود الهند والصين شرقا ، إلى أسبانيا وحدود فرنسا غربا ، ازدادت هذه الألفاظ وتلك الاشتقاقات تشكلا وخصبا فى هذا المجال بفضل ماتغصُّ به تلك المنطقة من العالم من ظواهر جيولوجية شتى ، ومن جبال وأنهار وأودية ، ومن معادن بِلورٍ وخامات وأحجار .

وغنى عن التأكيد والبيان ماقام به مشاهير الجغرافيين والمعدِّنين العرب فى تلك العصور من أسفار طويلة فى أرجاء تلك الأرض الواسعة سطّروا من نتاجها أسفارًا ضخمة ، تعجّ بالمصطلحات الفنية العربية الخالصة فى تقويم البلدان ، ووصف الأماكن والمياه ، وفى البحث عن المعادن والأحجار والجواهر .

أما الفرنجة فى غرب أوروبا إبان عصر النهضة وإحياء العلوم فإنهم لما نهلوا من علوم الشرق ، جعلوا اللغة اللاتينية لغة العلم عندهم . ولما بدأوا يمارسون لغاتهم الأصلية بعد ذلك فى هذا المجال ، اضطروا إلى الإسراف فى الاستعارة من الأصول اللاتينية واليونانية وحتى من الأصول العربية [8] لسك المصطلحات العلمية ، وذلك لقصور لغاتهم عن استيعاب المعانى العلمية الجديدة ، وتقديم الأصول المناسبة للمتغيرات اللانهائية فيها .

---

(١) الرخو النخر من الجبال .
(٢) الأرض الصلبة لا تنبت شيئا لصلابتها .
(٣) الصخور المتراصة الثابتة .
(٤) ما لان واسترخى من الأرض وساخت فيه قوائم الدواب .
(٥) الماء الجارى جريا سريعا .
(٦) الماء فى الأباطح لا يغطن له فاذا حفر عنه مقدار ذراع جاش . (٧) الماء الساخن .
(٨) فى الرياضة قالوا : Algebra للجبر ، وفى الفلك والساحة قالوا Azimuth للسموت ، وفى الجيولوجيا قالوا : Erg للمراق و Seif dunes للكثبان السيفية ، وقالوا : Gravel للجراول ، وقالوا Adobe للطوب .. إلخ .

أما كتابات العرب فى عصور النهضة العلمية الإسلامية ، ككتابات الجاحظ والكندى والبيرونى والقزوينى وابن سينا والكتبى « الوطواط » وابن الأكفانى وإخوان الصفا والتيفاشى وغيرهم ، فتضم زاخرا من المصطلحات الجيولوجية فى أوصاف الجبال والطبقات والعيون والأحجار والمعادن والجواهر وفى نظريات قيام الجبال وتاكلها ، وتحركات البر والبحر ، ومن مصطلحات الصناعة الجيولوجية والاستكشاف فى تخليص المعادن من خاماتها وقطع الجوَاهر والبِلَّور وصقلها وفى تمييز الحر والزائف منها ، وغير ذلك مما يشهد بأن اللغة العربية لم تقصر عن استيعاب طموحهم والإحاطة بآفاق كشوفهم بتقديم المادة الصالحة لكل ما ابتكروه أو نقلوه .

وفى عصر النهضة العلمية العربية الحديثة ، وبفضل جهود مجمع اللغة ، ودأب القائمين عليه فى التشجيع على البحث والاستنباط فى نقل المصطلحات ، مازالت اللغة العربية تثبت جدارتها فى تحقيق المهمة ، ومازلنا نلمس ثراءها التليد ونبعها الفياض فى تزويد الاصطلاحيين بكل ما يطلبون من أصول ، حتى بلغ ما نقله أعضاء المجمع وخبراؤه فى مجال المصطلحات الجيولوجية ماينيف على الخمسة آلاف من المصطلحات : جلها من أصول واشتقاقات عربية أصيلة .

ويهدف هذا البحث إلى التدليل على أن بحر اللغة العربية مازال زاخرا بالأصول البكر الصالحة للاستعمال والاشتقاق الجيولوجى ، والتى تفى بكل حاجات المشتغلين بهذا العلم من نقل مصطلحات أجنبية إلى العربية أو ابتكار مصطلحات جيولوجية جديدة أصلا ، وأنه سيظل يواقينا بمدد فياض من هذه الأصول .

وقد ضربت فى بحث سابق[1] بعض الأمثلة على قدرة اللغة العربية على الإحاطة بكثير من المتسلسلات الإصطلاحية الجيولوجية فى الموضوع الواحد . وهذا مثال جديد من أروع الأمثلة فى هذا

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ، (الجزء ٣٢) سنة ١٩٧٣ .

الباب : مسلسلة من خمسة عشر لفظا ليس بينها إلا لفظ واحد معرب ، غير أنه دخل معاجم العربية من قديم وليس عن طريق التعريب العلمى على أى حال . أما المقابلات الإنجليزية لهذه المسلسلة فإنها تضم ستة ألفاظ غير إنجليزية ، ولكن من أصول لاتينية أو إغريقية ، — أى أنك إذا اطلعت على معجم عربى متوسط لوجدت فيه ضالتك فى كل معانى هذه المسلسلة من الألفاظ العربية الأصلية ، ولكنك تفتقد ستة منها فى المعجم الإنجليزى ، ولابد لك من البحث عنها فى المعاجم الإنجليزية الكبرى التى تهتم بالمصطلحات العلمية وتعنى بذكر الأصول اللاتينية والإغريقية .

وهذه هى المسلسلة المشار إليها ، وهى فى الأنواع المختلفة من المواد الطينية ، مرتبة حسب الترتيب الهجائى العربى : —

المصطلح العربى	أصله	معناه	المصطلح الإنجليزى
١ — البَصْر — البَصْرة	بصر	الطين العلك الجيد فيه حصى .	Boulder clay
٢ — البُصرة	بصر	الأرض الطيبة الحمراء	Laterite *
٣ — الجُلاهِق (١)	—	الطين المدوَّر الأملس	
٤ — الجَنَد	جند	حجارة تشبه الطين	Mudstone - Slate
٥ — الحَمَأ	حَمِىء	الطين الأسود المنتن	Saprolite *
٦ — الخُثّ	خثّ	غثاء السيل إذا خلفه ونضب عنه حتى جفّ .	Peat

(١) فارسى معرب قديم .

(*) كلمات غير انجليزية .

تابع جدول المصطلحات

المصطلح العربى	أصله	معناه	المصطلح الإنجليزى
٧ – الرَّدَغ – الرَّزَغ	ردغ– رزغ	الطين المبتل لا يسيل	Ooze
٨ – الصَّلْصَال	صلصل	الطين اليابس يصلصل	Clay
٩ – الطُّفَال	طَفْل	طين يابس فيه مادة الطَّفْل الرخص الناعم الدقيق	Shale
١٠– الطمى	طَمَا	ما يحمله السيل ويستقر على الأَرض	Alluvium *
١١– الطَّمْلَة	طمل	الطين الرقيق (يترسب فى موسم أَو فى مدة قصيرة)	Varve *
١٢– الطَّيْس	طاس	دِقاق التراب	Loess *
١٣– الطِّين	طان	التراب المختلط بالماء	Mud
١٤– الغَرِين	غَرِن	الطين يحمله السيل	Silt
١٥– الغَضَار	غَضُر	الطين اللزج الأَخضر الحر (ومادة الخزف عموما)	Kaolin

ومن يراجع المعاجم العربية لا يعدم أَن يجد فى كل مادة تقريبا أَصلا أَو أَكثر يصلح للتعبيرات الجيولوجية أَو لاشتقاق المصطلحات الخاصة بالأَرض أَو الماء أَو الحركات الأَرضية أَو الصخور وما تحوى من معادن وخامات وبنيات هندسية وغير ذلك .

(*) كلمات غير انجليزية

وليس من سبيل فى مقال أو سلسلة قصيرة من مقالات أن يحاط بكل ما تقدمه لغة الضّاد من مادة صالحة للاستعمال فى مصطلحات الجيولوجيا . لكننا فى هذا البحث سنقدم عينات من هذه الأُصول ومشتقاتها فى الأحرف السبعة الأُولى فقط من المعجم على سبيل المثال لا الحصر ، لندلل بها على ثراء هذه اللغة بأُصول تلك المصطلحات .

ورب قائل يقول : هذا نبشٌ عن الخَبْء فى أجداث الألفاظ البائدة ، واستحاثة لما ضاع منها فى رغام المعاجم القديمة . لكن هذا قول مردود ، فما نقدمه هنا من ألفاظ تكلمت بها العرب ، وهى مدوّنة فى معاجمهم الآن . وغرابة الكلام تنشأُ من عدم استعماله ، وما زالت اللغة العربية حية والحمد لله ، بل لها مكان فى الصدارة بين اللغات العالمية . وهل فى استعمال المصطلحات اللاتينية والإغريقية بأحرفنا العربية ونطقنا العربى سهولة أو بعدًا عن الغرابة وهى مستقاة من هاتين اللغتين البائدتين ، اللتين تشتق منهما معظم المصطلحات فى اللغات الأُوروبية الحية ؟ فلماذا نأتى نحن اليوم لنستعير ألفاظها كما هى أو نعربها تعريبا ، وعربيتنا أولى بإحياء أُصولها العريقة ؟ !

وهذه مختارات من الأصول الصالحة الاستعمال الجيولوجى فى الأحرف السبعة الأولى من المعجم :

حرف الهمزة :

الأصل	الاشتقاق	الغرض الاصطلاحى	المقابل الانجليزى
أَبَنَ	إبَّان الشىء : أوانه	أزمنة الحفريات وأعمار الحوادث الجيولوجية الصغيرة .	Chron
أَبَدَ	الأَبد : الدهر آبدة وجمعها أوابد : بقيت زمنا طويلا .	الزمن الجيولوجى كله . الحفريات التى لم يطرأ عليها تغير يذكر أزمانا جيولوجية طويلة .	Geloogical time Conservative Fossils
أثر	الأثارة : العلامة وبقية الشىء	الحفرية تذهب وتبقى آثارها فى الصخور ، العلم المختص بدراستها (علم الأثارات ، وهو غير علم الآثار المعروف) .	Trace fossils Ichnology
أَثَلَ	الأَثلة : الأصل	الموارد الإقليمية القديمة للصهارة . أصول السلاسل الحفرية .	Stocks
أَجَج	الأُجاج : ماء يلذع الفم بمرارته أو ملوحته .	لوصف البيئة البحرية الزائدة الملوحة .	Hypersaline
أَجُن	ماء أجين : فسد وتغير لونه وطعمه ورائحته	وصف للمياه المحتبسة غير المهواة وصف للبيئة المائية غير الصالحة للحياة	Foeted waters Euxinic enoironment
أَدَم	الأديم من الأرض مايلى وجهها .	الصخور المتفككة البالية فوق صخر الأساس .	Regolith Mantle rock
	الإيدامة	أرض صلبة بلا حجارة ، جمعها أياديم .	Stoney desert Hamada

الأصل	الاشتقاق	الغرض الاصطلاحى	المقابل الانجليزى
أسِىَ	الآسية : الدِّعامة والأسطوانة والبناءُ المحكم أَسه	لوصف العمود الوسطى فى المرجان والحلزون وأعمدة التقوية فى درقات بعض القنافذ البحرية .	Collumella Buttrusses
أفَك	المؤتفكات : الريح تختلف مهابها . أئتفكت الأَرض : انقلبت بمن عليها .	لوصف الطيات والصدوع المقلوبة	Reverse faults Recumbent folds
أكَرَ	أكر الأَرض حرثها ، وأَرض أَكيرة (قياس). الأَكْرة : حفرة تعمق ليتجمع فيها الماءُ .	أكير : لأَرض المثالج بعد زوال الجليد عنها . لمصارف المناجم .	Till Tillite
أَمَت	الأَمت : المكان المرتفع وصغار التلال والاختلاف فى المكان ارتفاعا وانخفاضا ورقة وصلابة .	لنوع من الطوبوغرافية السيئة تنشأُ من فعل العوامل الطبيعية على جيولوجية غير متجانسة .	Badlands
أنِفَ	الآنف : الماضى القريب	يصلح اسما لآخر الأَزمنة الجيولوجية فهو قد انقضى وليس جزءًا من الحاضر وبعضهم يسمية الزمن الحديث أَو الحاضر (خطأً) .	Recent period
أهَب	الإِهاب : الجلد المغلف لجسم الحيوان قبل أَن يدبغ .	لوصف الطبقات الخارجية من هياكل المراجين وما شابهها	Theca

حرف الباء :

الأصل	الاشتقاق	الغرض الاصطلاحى	المقابل الانجليزى
بتَكَ	بتْكة : قطعة وهو مبتَّك والقطعة منه بتْكة	للأَرض المقطعة بالسيول أَو التصدع الشديد أَو غيره	Diseeted land Highly faulted
بتَل	البتيل : المسيل فى أَسفل الوادى .	يصلح لوصف درجات الأَنهار ومراتبها ومواقعها	
بثَر	الباثر : الماء البادى من غير حفر .	فى الجيولوجيا المائية ويجوز استعماله فى جيولوجيا النفط.	
بثَن	البثنة : الأَرض السهلة اللينة .		
بجْبَج	البجباج من الرمل ؛ المجتمع الضخم منه	التجمعات الرملية العظمى	Sand sheets Sand seas
بَرَض	البُراض : البئر القليلة الماء .		
بَرَق	البرقاء : أَرض غليظة فيها حجارة ورمل وطين	لرواسب الأَنهار القوية القديمة البائدة وتكون أَحيانا معادن للعناصر الثمينة كالذهب والأَلماس	Placers Placer deposits
برْقَش	نقش بأَلوان شتى وزيَّن.	لوصف الزخارف اللونية والتركيبية فى أَصداف الحيوان ، ولوصف الصخور ذات المساحات المختلفة الأَلوان	Ornamentation Mottled rocks

(تابع) حرف البـاء :

الأصل	الاشتقاق	الغرض الاصطلاحى	المقابل الانجليزى
بَرَهَ	البرهة مدة من الزمان.	يمكن أن يطلق على مدى معين من الزمن الجيولوجى (*) .	
بَسَق	البسقة : الأرض ذات الحجارة السود .	يمكن استعماله لوصف الأصقاع المكونة فى أساسها من الصخور البركانية القاعدية .	Trappes
	بساقة القمر : معدن أبيض صاف يتلألأ		Moonstone
بَصر	البُصْر والبُصْرَة :	الأرض الطيبة الحمراء .	Laterite
	البَصْرة :	الطين العلك الجيد فيه حصى .	Boulderclay
بَلَنْطَ	حجر كالرخام	إلا أنه دونه فى الهشاشة واللِّين والرخاوة	Semicrystalline Limestone
بَلْوَر	بِلَّوْر جوهر أبيض شفاف وقيل هو نوع من الزجاج .	السليكا المتبلورة – بلورات المرو	Crystalline Quartz
باح	الباحة : الساحة	معالم جيومورفولوجية مستديرة تحدثها المثالج عند منابعها .	Circus
		ومساحات محددة فارغة فى أصداف بعض الرخويات	Hinge area Cardinal area etc
بَيَن	البيون : البئر الواسعة العميقة	يصلح فى علم الجيولوجيا المائية وجيولوجيا البترول .	

(*) يلزم الاصطلاح فى تحديد المدى الزمنى الجيولوجى لكل من الأصول المختلفة الخاصة بالإمتدادات الزمنية فى اللغة .

حرف التـاء :

الأصل	الاشتقاق	الغرض الاصطلاحى	المقابل الإنجليزى
حَبَبَ	التَّحباب : عرق الفضة ونحوها فى حجر المعدن		
تخَّ	تخَّ العجين ونحوه : لان واسترخى لكثرة الماء فيه .	يصلح لوصف ما ينتاب أنواع الطين بالاختلاط بالماء .	يصلح فى الجيولوجيا الهندسية وجيولوجيا المناجم
تَرُصَ	تَريصٌ : محكم ومضبوط.	لوصف الصخور ذات الحبيبات الشديدة الانضغاط ؛ فلا تترك بينها مسافات يمر فيها الماءُ .	Compact grains
تَلَعَ	التلعة : ما ارتفع من الأرض ومسيل الماء من أعلى إلى أسفل وما اتسع من فم الوادى .	يصلح لرواسب الطمى فى السيول الشديدة الانحدار عن سفح الجبل	alluvial fans
تلف	التلفة : الهضبة المنيعة يخشى التلف على من علاها .	يصلح فى وصف معالم النحت فى مجال الجيومورفولوجيا	Precipitous Scarps
التيهور	جرف الرمل .		
تهم	التهامة : أرض منخفضة بين ساحل البحر وسلسلة جبلية على امتداده .	لتسمية هذا المَعْلَم فى علم الجيومورفولوجيا	

حرف الثـاء :

الأصل	الاشتقاق	الغرض الاصطلاحى	المقابل الانجليزى
ثبق	النهر امتلأ وأسرع ماؤه	فى الفيضان وتجدد شباب الأنهار بالرفع عند المنبع .	Rejuvenation
ثلّ	الثُّلّة : الجماعة من الناس	يستعار للحيوان والحفريات	Association
ثلم	الثُّلمة : والثَّلْم : الانكسار أو الشق أو إزالة جزء من الشىء	يستعار للمراحل الضائعة من السجل الجيولوجى .	Diastem

حرف الجيم :

الأصل	الاشتقاق	الغرض الاصطلاحى	المقابل الانجليزى
جدد	الجَدَدُ : الأرض المستوية		Peneplain
جذّ	الجُذاذة : الحَجَرَةُ من حجارة الذهب	كسارة المرو لحامل الذهب .	Gold-bearing Quartz
	الجُذَاذ : المقطَّع أو المكسَّر	الصخور الرسوبية المهشمة المكونة أصلا من كسارة صخور سابقة .	Breccia
جَرش	الجريش : الشىء يدق ولا ينعم دقه .	طحين الصخر فى أعمال المناجم .	
جسّ	جسُّ الأرض : وطوها وبحثها وفحص ما فيها .	أعمال الاستكشاف الجيولوجية المختلفة .	Exploration

(تابع) حرف الجيم :

الأصل	الاشتقاق	الغرض الاصطلاحى	المقابل الانجليزى
جفر	الجُفْرة : الحفرة الواسعة المستديرة .	الحفر الواسعة الناشئة من فوهات البراكين الخامدة .	Caldera
جَند	الجَنَدُ : حجارة تشبه الطين .	اسم للطين المتحجر أو المتحول .	Mudstone-Slate?
جَمّ	المَجَمُّ : مستقر الماء	فى الطبقات الحاملة الماء الجوفى .	Aquifer

حرف الحـاء :

الأصل	الاستقاق	الغرض الاصطلاحى	المقابل الانجليزى
حبس	وعاء حابس للماء	الصخور الحاجزة للماء	Water retaining
حث	الحُثُّ : المدقوق من كل شىء .	الصخور المهشمة تهشيما شديدا بطرق التحول الحركى العنيف .	Pulverised rocks
حثل	الحثالة : الردىء من كل شىء والنفاية .	المعادن غيرذات القيمة الاقتصادية فى الخامات والتى لا يستعمل الخام من أجلها .	Gangue minerals
حدّ	المحَادَدَة : المشاركة فى الحدود .	لوصف التكاوين والطبقات المشتركة فى الحدود .	Boundary Contacts
حَسَى	الحِسى وجمعها أحساءٌ	السهل من الأرض يستنقع فيه الماءُ ؛ ورمل تحته صلابة يحجز الماء .	

الأصل	الاشتقاق	الغرض الاصطلاحى	المقابل الانجليزى
حَشْرَج	الحَشْرج : الماء فى أباطح الأَرض لا يفطن له فإذا حفر عنه مقدار ذراع جاش .		Vadose water
حصل	المُحَصِّل : الذى يخرج تراب الفضة من حجارة المعدن والذى يخرج تراب المعدن ـ التحصيل : هذا الفن .		Ore dressing
حصم	الحَصِيم : صغار الحصى للصخور المكونة من الحصى الدقيق		Grit
حقب	الحقب : المدة الطويلة من الدهر ، جمعها حقَبٌ وأحقاب . الحقْبة المدة لا وقت لها أو السنة ، جمعها حقَب وحقوب .	لمصطلحات الجيولوجيا التاريخية	Era Epoch
حكّ	الحُكَاكة . ماتساقط من الشىء عند الحك .	فى مجال اختبار المعادن والكشف عنها .	Streak
	المحَكُّ : ما يحك به من حجر وغيره .	لوح للكشف عن المعادن بالحك	Streak plate
	الحَكَكُ : حجارة رخوة بيض تحك بها الأَرجل .	بعض الصخور البركانية الفقاعية الخفيفة الحمضية .	Pumice
حمأ	الحمأ : الطين الأَسود المنتن	الصخور الطينية الناشئة فى قعور المستنقعات .	Saprobelic Saprolite

(تابع) حرف الحـاء :

الأصل	الاشتقاق	الغرض الاصطلاحى	المقابل الانجليزى
حمم	الحمَّة : عين ماءٍ حارة تنبع من الأَرض . حَمَمَةَ وجمعها حُمَمٌ . كل ما احتر من النار	صفة للصخور الرسوبية الناشئة من أصل بركانى .	Hot spring Pyroclastic rocks
حنذ	الحَنذ : الماءُ الساخن واللحم المشوى يقطر منه الدهن	يستعار للمياه الجوفية الحارة والصخور التى تعرضت للحرق أَو الحرارة العالية فكادت أَن تتحول .	Hydrothermal waters Baked rocks
حنو	الحِنْو : منعرج الوادى		Meander
حاث	أَحاث الارض : أَثارها وطلب ما فيها .	البحث بالطرق المختلفة عن مكامن الثروات المعدنية (علم الاستحاثة) .	Prospecting

حرف الخـاء :

الأصل	الاشتقاق	الغرض الاصطلا حى	المقابل الانجليزى
خبب	الخَبُّ : سهل بين حزنين .	مادة لمصطلحات علم الجيومورفولوجيا	
خبر	الخبار : مالان من الأَرض واسترخى وساخت فيه قوائم الدواب .		

(تابع) حرف الخاء :

الأصل	الاشتقاق	الغرض الاصطلاحى	المقابل الانجليزى
خثَّ :	الخُثُّ : غثاءُ السيل إذا خلَّفه ونضب عنه حتى جف .	يستعار للرواسب النباتية الأَصل التى لم تتفحم بعد أَو أَصابها تفحم بسيط .	Peat
خثر	الخَثَار : فضلة الشىء وبقيته .	تستعمل فى التحاليل الكيميائية للصخور الرسوبية وفى وصف الرواسب المتبقية من غيرها .	Insoluble residue Residual deposits
خَدب	الخادِبة : الشجَّةَ الشديدة جمعها خوادب.	لوصف الشقوق الكبرى بالجليد وبعض الصخور الطباشيرية .	Crevasses
خرب	الخَرْبة : الثقبة الواسعة المستديرة .	لوصف ما تحدثه رواسب الملح المنضغطة فى الصخور الرسوبية التى تعلوها فتثقبها ؛ ولوصف اختراق طبقات اللب للطبقات المطوية الضعيفة .	Diapir structures
خَرْخَر	الخرخار : صفة للماء الجارى جريا سريعا .	يستعار لوصف مجارى الأَنهار الشابة عندما تتقدم مراحل تأكل المساقط المائية .	Rapids

والبحث الدقيق المستأْنى فى المعاجم العربية يمكن أَن يزود الباحث الجيولوجى بمعجم وافٍ من الأُصول العربية والأَغراض الجيولوجية التى يمكن استعمالها فيها أَو استعارتها ، لتأْدية معناها . فاللغة بخير ، والعلم العربى بخير ، مع الاجتهاد ، والتوفيق من عند الله .

محمد يوسف حسن

التطور اللغوى
بين القوانين الصوتية والقياس

للدكتور رمضان عبد التواب

أرانى فى بداية حديثى ، مضطرا إلى تأكيد أمور ، فرغ منها المحدثون من علماء اللغات ، منذ فترة طويلة ، وهى تعدّ عندهم الآن من البديهيات ، على حين يجادلنا فيها بعض الدارسين العرب ، ممن بقى فى الكهوف القديمة ، يردّدون قولتهم المشهورة : ليس فى الإمكان أبدع مما كان .

وأول هذه الأمور أن اللغة كائن حى ؛ لأنها تحيا على ألسنة المتكلمين بها ، وهم من الأحياء ، وهى لذلك تتطور وتتغير بفعل الزمن ، كما يتطور الكائن الحى ويتغير . واللغة العربية الجاهلية ، ليست بدعا بين اللغات ، فهى حلقة فى سلسلة حلقات طويلة ، من التطور والتغير ، أى أنها لم تكن كما يتخيل بعض الناس ، بصورتها التى رويت لنا ، منذ أن خلق الله الأرض ومن عليها .

وإننا لنبتسم لسذاجة من روى لنا شعرا عربياً ، على لسان قحطان بن هود عليه السلام ، يسلى به بعض ما كان بأبيه هود - من الكآبة والجزع والغم والحزن ، على قومه عاد ، فقال :

إنى رأيت أبى هودا يؤرّقه
حزن دخيل وبلبال وإسهاد

لا يحزننك أن طاحت بداهية
عاد بن لاوى فعاد بئسما عاد[1]

بل لقد رووا لنا أن آدم عليه السلام ، قال شعرا عربيا فى رثاء ابنه « هابيل » حين قتله « قابيل » وقالوا : إن أول

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام للأصمعى ص ٤

من أقوى فى الشعر ، هو آدم عليه السلام ، وهو يقول فى قصيدته تلك :

تغيّرت البلاد ومن عليها
فوجهُ الأرض مغبرٌّ قبيحُ
تغيّر كلُّ ذى حسن وطيب
وقل بشاشةُ الوجهِ المليحِ (١)

والحقيقة الثانية أن مانسميه نحن بالعربية الفصحى ، يشتمل فى الكثير من ظواهره ، على بعض حلقات التطور ، أى أننا نلاحظ فى هذه اللغة أحيانا ، صورتين أو أكثر لظاهرة لغوية واحدة ، وبعض هذه الصور يمثل فترة تاريخية ، أقدم من الصور الأخرى . وسأضرب هنا بعض الأمثلة ، لكى تتضح هذه القضية :

يظن بعض الناس أن السين وسوف ، أداتان مختلفتان للدلالة على الاستقبال ، وُضعا هكذا وَضْعًا ، منذ أن خلق الله العربية . وقد خُدع بذلك نحاة البصرة ، وحكّموا المنطق العقلى ، فى أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ؛ فقالوا : إن سوف تدل على الاستقبال البعيد ، والسين تدل على الاستقبال القريب .

وليس فى نصوص اللغة مايشهد لتكلفهم هذا ؛ فقوله تعالى مثلا « فسيكفيكهم » ، ليس معناه تحقق هذه الكفاية فى الغد ، كما أن قوله تعالى : « ولسوف يعطيك ربك فترضى » ، ليس معناه تأخر الإعطاء عاما أو عامين .

بل إن الحقيقة أن سوف أقدم من السين ، والسين جزء مقتطع منها . ومن الحقائق المقررة عند المحدثين من علماء اللغات ، أن كثرة الاستعمال تُبلى الألفاظ ، وتجعلها عرضة لقص أطرافها ، تماما كما تبلى العملات المعدنية والورقية ، التى تتبادلها أيدى البشر .

ومن الألفاظ التى تعانى هذا القص ، وذلك البلى ، هى الأدوات التى تدور كثيرا فى الكلام ، وكذلك كلمات التحية التى يرددها الناس صباح مساء . ويكفى أن نتذكر هنا عبارة « عمْ صباحا » المتطورة عن : « أنْعِمْ صباحا » و « مُ الله » المأخوذة من : « أيمُن الله » ، وقولنا مثلا : « سلخير » بدلا من : « مساء الخير » ، بل إن

(١) الدرر اللوامع على همع الهوامع ٢ – ٢٠٩ .

كلمة : « للساعة » بمعنى · « للآن » ، أصبحت فى مصر : « لِسّه » وفى شمالى إفريقيا : « لِلسَّعْ » وفى السودان : « للساتى » ، وعبارة : « رايح أعمل كذا » تطورت إلى « حاعمل كذا » . والناس فى نجد يقولون : « سَمْ » بمعنى : « نعم » ، وهى مقتطعة فيما نعتقد من : « سمعا وطاعة » ، كما يقولون : « أبى كذا » وهى متطورة عن : « أبغى ». وغير ذلك من الكلمات الكثيرة .

وهذا هو ماحدث بالضبط لكلمة : « سوف » القديمة ، التى توجد فى بعض اللغات السامية الأُخرى ، كالآرامية فهى فيها : (Sawpā) ، وهى اسم معناه فيها الغاية والنهاية . هذه الأداة التى أصبحت تدل فى العربية القديمة ، على الاستقبال فى الأفعال ، كانت قد بدأت تعانى قصا لبعض أجزئها ، فى الفترة التى سبقت نزول القرآن الكريم ؛ فقد ورد أن العرب « قالوا : سويكون ، وسوف يكون ، وسايكون ، وسيكون [1] »: وعند ما جاء القرآن الكريم ، سجل لنا إحدى صور التطور فى « سوف » ،

أو قل المرحلة الأخيرة منه ، مع الأصل الذى كان لايزال يعيش معه جنباً إلى جنب ، كما روى لنا اللغويون صور التطور الأُخرى ، التى لم يكتب لها ما كتب لغيرها من الخلود .

وهذا مثال آخر : رُوى لنا فى العربية الفصحى ، صيغتان من صيغ الأفعال ، بصورتين مختلفتين ، وهما : تفعّل وتفاعل ، إلى جانب : اتفعّل واتفاعل . والصورة الأُولى لهاتين الصيغتين هى الأقدم ، وعليها جمهرة الأفعال التى رويت لنا فى الفصحى ؛ مثل : تعلّم ، وتكلّم ، وتقاتل ، وتضارب . كما رُوى لنا من الصورة الثانية قوله تعالى : « حتى إذا ادّاركوا فيها جميعا » ، وقوله تعالى : « اثّا قلتم إلى الأرض » . وقد حدث التطور فى هاتين الصيغتين ، أول ماحدث فى المضارع ؛ إذ لنا أن نتصور أن الأصل هو : « يَتَثَاقل » ، ثم سكنت التاء للتخفيف ؛ إذ تكره العربية توالى المتحركات ـ كما هو معروف ـ فتصير الكلمة : « يَتْثَاقل » ، ثم انقلبت التاء ثاء ، لقربها منها فى

---

(١) انظر : لسان العرب. (سوف) ١١ – ٦٥.

المخرج والصفة ، فصارت الكلمة : « يَثّاقل » : وهنا يشتق من المضارع ماض جديد ، هو : « اثّاقَلَ » .

وقد كانت هذه الظاهرة فى سبيل التطور فى العربية الفصحى ، عندما جاء الإسلام ؛ ولذلك نجد أمثلتها فىّ القرآن الكريم ، جنبا إلى جنب مع الصيغ القديمة التى لم يحدث فيها تطور . ونحن نعدّ هذا دليلا على أن التطور اللغوى فى أية ظاهرة لغوية ، لايحدث فجأة ، فيقضى بين يوم وليلة على كل أثر للقديم ؛ ففى القرآن الكريم ، أمثلة كثيرة للصيغ القديمة ، مثل قوله تعالى : « وما يتذكر إلا من ينيب » ، بل إن الآية الواحدة لتحتوى فى بعض الأحيان ، على الصورتين معًا ؛ كقوله تعالى : « لِيَدَّبَّرُوا آياته وليَتَذَكر أولو الألباب ».

وقد ظل هذا التطور سائرا فى طريقه فى لهجات الخطاب ، حتى ساد وحده وقضى على الظاهرة القديمة ؛ ففى اللهجة العامية المصرية ، نقول مثلا :فلان اصّدّعت دماغه ، واسّرّع فى كلامه ، واشّهّى الأكل ، واصّوّر ، واطّوّع فى الجيش ، ولا أثر للصيغة القديمة فى لهجات الخطاب ؛ إذ لايقال فيها مثـ : فلان تصدّعت دماغه ، وتسرع فى كلامه ، وتشهّى الأكل ، وتصوّر ، وتطوّع فى الجيش . وكذلك الحال فى ؟ صيغة : « تفاعل » ؛ إذ ماتت هى الأخرى ، وحلت ؟ محلها صيغة : « اتفاعل » التى شاهدنا مولدها ، فى عصر نزول القرآن الكريم ، إذ نقول الآن فى لهجات الخطاب : فلان اطّاول على فلان ، واشّاتم هو وهوّ ، واسّاهل معاه ، واصّالحوا سوا ، بدلا من : تطاول عليه ، وتشاتم ، وتساهل ، وتصالح .

والقضية الثالثة التى أريد تأكيدها هنا ، أن العربية الفصحى لها ظرف خاص ، لم يتوفر لأية لغة من لغات العالم . وهذا الظرف يجعلنا نرفض ماينادى به بعض الغافلين ـ عن حسن نية أوسوء نية أحيانا ـ من ترك الحبل على الغارب للعربية الفصحى ، لكى تتفاعل مع العاميات ، تأخذ منها وتعطى ، كما يحدث فى اللغات كلها .

حقا إن اللغة كائن حى ، يتطور على ألسنة المتكلمين بها ، فينشأ من هذا التطور ، اختلاف بين لغة عصر والعصر

الذى سبقه ، وهنا يحدث الصراع بين أنصار الشكل القديم ، وأنصار الشكل الجديد ، وبعد فترة يصبح قديما ما كان بالأمس جديدا ، فيتصارع مع جديد آخر ، وتضمحل لغة العصر الأسبق أو تندثر ، غير أن كل جديد لا يظهر فجأة ، ولا يقضى على القديم بين يوم وليلة ، بل يظل الصراع بينهما لفترة قد تطول أو تقصر ، غير أن الانتصار يكون فى النهاية للشكل الجديد ـ تلك سنة الحياة ، وتاريخ اللغات جميعها يشهد بهذا ، ولا نعرف لغة على ظهر الأرض ، جمدت على شكل واحد مئات السنين .

غير أن العربية الفصحى لها ـ كما قلنا ـ ظرف لم يتوفر لأية لغة من لغات العالم ؛ ذلك أنها ارتبطت بالقرآن الكريم ، منذ أربعة عشر قرنا ، ودُوّن بها التراث العربى الضخم ، الذى كان محوره هو القرآن الكريم فى كثير من مظاهره . وقد كفل الله لها الحفظ ، مادام يحفظ دينه ، فقال عز من قائل : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ، ولولا أن شرفها الله عز وجل ، فأنزل بها كتابه وقيّض له من خلقه من يتلوه صباح مساء ، ووعد بحفظه على تعاقب الأزمان ـ لولا كلُّ هذا لأمستْ العربية الفصحى لغة أثرية تشبه اللاتينية أو السنسكريتية ، ولسادت اللهجات العربية المختلفة ، وازدادت على الزمان بعدًا عن الأصل الذى انسلخت منه .

هذا هو السر الذى يجعلنا لانقيس العربية الفصحى ، بما يحدث فى اللغات الحية المعاصرة ، فإن أقصى عمر هذه اللغات فى شكلها الحاضر ، لايتعدى قرنين من الزمان ، فهى دائمة التطور والتغير ، وعرضة لاتفاعل مع اللغات المجاورة ، تأخذ منها وتعطى ، ولاتجد فى ذلك حرجا ، لأنها لم ترتبط فى فترة فترات حياتها بكتاب مقدس ، كما هو الحال فى العربية .

وقد صدق الشيخ أحمد رضا العاملى حين قال : « وأنا لا أرتاب فى أن اللغة التى حملها الفرنسيس ، أيام الحملات الصليبية ، إلى سوريا لم تكن كاللغة التى حملها أحفادهم إليها فى هذه الأيام ، وأن اللغة التى نظم بها شكسبير قصائده ، لايفهمها العامى

الإنجليزى اليوم ، أكثر مما يفهم العامى العربى قصائد المتنبي وأبى العلاء المعرى ، وأن لغة موليير الفرنسية ـ فيما أحسب ـ بعيدة عن لغة إميل زولا . ولكن لغة المتنبي لم تتغير عن لغة شوقى ، وبينهما ألف عام ، إلا أن لغة المتنبي تخالف لغة الزاجل فى زجله اليوم ، بل إن لغة الزاجل فى زجله اليوم تخالف لغة الزاجل فى عصر ابن خلدون »[1] .

إن ارتباط العربية الفصحى بالقرآن الكريم ، لهو السرّ كذلك فى تمسّكنا بالعربية الفصحى القديمة ، ودعوتنا إلى دراستها دراسة مستفيضة ، لكى نفهم بها القرآن الكريم ، ومادار حوله من دراسات ، وكذلك الشعر العربى القديم ، الذى يلقى أضواء على المعانى القرآنية ، ويفيد فى توضيح ألفاظ القرآن الكريم . ولقد صدق الصحابى الجليل عبد الله بن عباس ، حين قال : « الشعر ديوان العرب ، فإذا خفى علينا الحرف من القرآن ، الذى أنزله الله بلغة العرب ، رجعنا إلى ديوانها ، فالتمسنا معرفة ذلك منه »[2] .

فهذه العربية الفصحى التى استمرت حية ، أربعة عشر قرنا ، والتى ستستمر فى حياتها إلى ماشاء الله ـ تستمد من ارتباطها بالقرآن الكريم عنصر الحياة ، وهذه القضية كانت واضحة فى أذهان اللغويين العرب فى الماضى ، فهذا هو أبو حاتم الرازى (المتوفى سنة ٣٢٢ هـ) يقول : « ولولا مابالناس من الحاجة إلى معرفة لغة العرب ، والاستعانة بالشعر على العلم بغريب القرآن ، وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والصحابة والتابعين ، والأئمة الماضين ، لبطل الشعر ، وانقرض ذكر الشعراء ، ولعفى الدهر على آثارهم ، ونسى الناس أيامهم »[3] .

لقد أطلْتُ فى إبراز هذه القضية هنا ، حتى لايظن بعض الناس ، أننى حين أعالج قضايا التطور اللغوى أكون من أنصار هذا التطور فى العربية فإننى أعالج هذه القضايا هنا من الناحية الوصفية التاريخية ، وهناك فرق كبير فى مناهج اللغة ، بين الوصفية والمعيارية

---

(١) مولد اللغة للعاملى ص ٧٢ . (٢) انظر : الإتقان للسيوطى ١ – ١١٩ . (٣) الزينة للرازى ١ – ١١٦

كما أن استخدام اللغويين المحدثين لكلمة « التطور » ، لايعنى تقييم هذا التطور ، والحكم عليه بالحسن أو بالقبح ، فإنه لايعنى عندهم أكثر من مرادف لكلمة : « التغيّر » .

ويهمنا هنا أن نشير إلى أن هذا التغير لا يحدث على نحو مشتت غير مطرد ، بل يحدث وفقا لقواعد ثابتة ، يمكن أن نصوغها فى دقة ، إذا تناولنا لغةً ما ، فى عصرين متتابعين من تاريخ تطورها .

والقوانين الصوتية ، تعبر عن علاقة بين حالتين متتابعتين للغة واحدة فى وسط اجتماعى معين ، فهى ليست قوانين عامة شبيهة بقوانين علم الطبيعة أو الكيمياء ، ولهذا السبب ، نجد تطورا صوتيا فى إحدى اللهجات ، ولانجد له أثرا فى لهجة أخرى .

ومن أبرز القوانين الصوتية أثرا فى التطور اللغوى ، هو قانون « المماثلة » بين الأصوات ، فإن أصوات اللغة ، تختلف فيما بينها فى الشدة والرخاوة والجهر والهمس ، والتفخيم والترقيق وما إلى ذلك ، فإذا التقى فى الكلام صوتان من مخرج واحد ، أومن مخرجين متقاربين ، وكان أحدهما مجهورا والآخر مهموسا مثلا ، حدث بينهما شدّ وجذب ، كل واحد منهما يحاول أن يجذب الآخر ناحيته ويجعله يتماثل معه ، فى صفاته كلها أو فى بعضها ، وهناك اصطلاحات لعلماء الأصوات ، فى أنواع التأثر الناتجة عن قانون المماثلة ، فإن أثّر الصوت الأول فى الثانى فالتأثر (مقبل) ، وإن حدث العكس ، فالتأثر (مدبر) وإن حدثت مماثلة تامة بين الصوتين ، فالتأثر (كلى) وإن كانت المماثلة فى بعض خصائص الصوت ، فالتأثر (جزئى) . ولنضرب على ذلك بعض الأمثلة :

فمثال التأثر المقبل الكلى ، قولنا مثلا : « ادّعى » ، إذا أصلها : « ادتعى » ، التقت الدال والتاء ، وهما من مخرج واحد ، هو مخرج الأسنان واللثة ، فأثرت الدال وهى متقدمة ، على التاء التى بعدها ، وقلبتها دالا مماثلة .

ومثال التأثر المقبل الجزئى ، قولنا مثلا : « اضطجع » ، إذا أصلها :

« اضتجع » ، فقد اجتمعت الضاد والتاء وهما من مخرج الأسنان واللثة كذلك فأثرت الضاد على التاء ، وقلبتها إلى صوت مماثل لها فى بعض صفاتها وهو الطاء الذى يماثل الضاد فى التفخيم .

ومثال التأثر المدبر الكلى ، تأثر النون فى « إنْ » و « أنْ » و « مِنْ » و « عَنْ » بالميم واللام التى تليها ، فتقلب ميما أو لاما ، مثل : « إمّا » و « أمّا » و « إلاّ » و « ألاّ » و « مِمّا » و « عَمّا » وما إلى ذلك .

ومثال التأثر المدبر الجزئى ، تأثر النون بالباء التالية لها ، إذ تقلب إلى صوت من مخرج الباء وهو صوت الميم إذ هو شفوى كالباء وهذا هو ماسماه علماء القراءات العرب بالإقلاب ، فى مثل قوله تعالى : « من بعدما جاءهم » وقوله تعالى : « عليم بذات الصدور » .

ونحب أن نشير هنا إلى شىء مهم وهو أن الصوت لايمكن أن ينقلب إلى صوت آخر ، بعيد عنه فى المخرج جدًا فلا ينقلب صوت من أصوات الشفة أو الأسنان مثلا ، إلى صوت من أصوات الحلق ، وكذلك العكس ، وقد فطن إلى هذه الحقيقة ، العلامة ابن جنى فقال : فأما قول من قال فى قول تأبط شرا » :

كأنما حشحشوا حُصًّا قوادِمُه
أو أمّ خِشْف بذى شَثٍّ وطُبّاق

إنه أراد : حثّوا ، فأبدل الثاء الوسطى حاء ، فمردود عندنا .

وإنما ذهب إليه البغداديون وأبوبكر ابن السراج معهم ، وسألت أبا على عن فساده ، فقال : العلة فى فساده أن أصل القلب فى الحروف ، إنما هو فيما تقارب منها ، وذلك : الدال والطاء والتاء ، والذال والظاء والثاء ، والهاء والهمزة والميم والنون ، وغير ذلك مما تدانت مخارجه ، فأما الحاء فبعيدة عن الثاء ، وبينهما تفاوت يمنع قلب إحداها إلى أختها[1] » .

هذا هو قانون المماثلة. وهناك قانون صوتى آخر ، يسير فى عكس اتجاه قانون المماثلة وهو مايعرف عند علماء الأصوات باسم قانون « المخالفة » ؛ فقد عرفنا أن

(١) سر صناعة الإعراب لابن جنى ١ – ١٩٧ .

قانون المماثلة ، يحاول التقريب بين أصوات بينها بعض المخالفات . أماقانون المخالفة ، فإنه يعمد إلى صوتين متماثلين تماما فى كلمة من الكلمات ، فيغير أحدهما إلى صوت آخر ، يغلب أن يكون من أصوات العلة الطويلة ، أو من الأصوات المتوسطة أو المائعة ، المعروفة فى اللاتينية باسم Liquida ، وهى اللام والميم والنون والراء ؛ مثال ذلك : « قيراط » و « دينار » بدلا من : « قرّاط » و « دِنّار » ؛ بدليل الجمع : « قراريط » و « دنانير » .

وكان الناس فى القرن الثالث الهجرى فى العراق يقولون فى : « إجّاص » : « إنجاص » وفى : « إجّانة » : « إنجانة » ؛ ولذلك قال ابن السكيت فى كتابه إصلاح المنطق : « ويقال : هو الإجّاص ، ولاتقل : إنجاص ، وهى الإجّانة ، ولا تقل : إنجانة[1] » .

كما كان أهل الأندلس فى القرن الرابع الهجرى ، يقولون : « كرناسة » فى : « كراسة » ، كما كانوا يطلقون على الأسد كلمة : « عَدَنبس » بدلا من « عَدَبّس[2] » .

وليس من اللازم أن يكون الصوتان متجاورين ؛ فكلمة : « عنوان » تنطق فى بعض اللهجات عندنا : « علوان » ، وكلمة : « لعلّ » فيها عشر لغات مشهورة ، ومن هذه اللغات : « لعنّ[3] » ، وهى أثر من آثار قانون المخالفة .

وقد فطن قدماء اللغويين العرب إلى هذه الظاهرة وكانوا يعبرون عنهاأحيانا « بكراهية التضعيف » أو « كراهية اجتماع حرفين من جنس واحد » أو « اجتماع الأمثال مكروه » وما أشبه ذلك .

ويرى علماء الأصوات أن السبب فى المخالفة من الناحية الصوتية ، هو أن الصوتين المتماثلين ، يحتاجان إلى جهد عضلى فى النطق بهما فى كلمة واحدة ، ولتيسير هذا المجهود العضلى ، يقلب

---

(١) إصلاح المنطق لابن السكيت ١٧٦ .
(٢) لحن العوام للزبيدى ٣٥ ، ١٦١ .
(٣) شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك ١ – ٢٧١ .

أحد الصوتين صوتا آخر ، من تلك الأصوات التى لاتتطلب جهدا عضليا ، كاللام والميم والنون .

وتميل العربية إلى التخلص من توالى الأمثال فى أبنيتها ، عن طريق آخر ، إلى جانب طريق المخالفة الصوتية ، ذلك هو طريق الحذف . ومن أمثلة ذلك فيها : صيغ « تَفَعَّل » و « تفاعل » و « تفعلل » مع تاء المضارعة ؛ مثل : « تتقدّم » و « تتقاتل » و « تتبختر » ، فالكثير فى العربية الاكتفاء بتاء واحدة . وفى القرآن الكريم أمثلة كثيرة لذلك ؛ ففيه مثلا : « تَذَكّرون » ١٧ مرة بالحذف ، فى مقابل : « تتذكّرون » ٣ مرات بلا حذف ، كما يقابلنا فيه مثلا : « تكاد تَمَيَّز من الغيظ » بدلا من : « تتميز » و « فأنت عنه تَلَهَّى » بدلا من : « تتلهى » و « نارا تَلَظَّى » بدلا من : « تتلظى » وغير ذلك .

ومن أمثلة ذلك أيضاً : نون الأفعال الخمسة مع نون الوقاية ، قبل ياء المتكلم ، أو مع ضمير المتكلمين المنصوب ، وكذلك الفعل المسند إلى نون النسوة ، قبل هاتين الحالتين ؛ كقول الأعشى :

أبالموتِ الذى لابُدَّ أنّى
ملاقٍ لا أباك تُخوِّفينى [1]

أى : « تخوفيننى » . وكقول عمرو ابن معد يكرب :

تراه كالثغام يُعَلُّ مِسْكاً
يسوء الفالياتِ إذا فَلَيْنى [2]

أى : « فليننى » . وكقول جميل :

أيارِيحَ الشمال أما تَرَيْنِى
أهيم وأننى بادى النُّحُول [3]

أى : « ترينني » .

وليست ضرورة الشعر هى المتسببة فى هذا الحذف ، كما قد يُتوهّم ؛ إذ ورد فى النثر كذلك ، فقد ورد فى سيرة ابن هشام : « ما الذى تهنئونا به [4] » ، وفيها كذلك : « أفلا تعطونى [5] » . وفى الأغانى للأصفهانى : « فأخبراه أنهما لايعرفانى [6] » . وفى عيون الأخبار لابن

---

(١) أمالى ابن الشجرى ١ — ٣٦٢ والكامل للمبرد ٢ — ١٤٢ والمنصف لإبن جنى ٢ — ٣٧ .
(٢) كتاب سيبويه ٢ — ١٥٤ والمنصف لابن جنى ٢ — ٣٣٧ .
(٣) الأغانى ٨—١٠٩ .
(٤) سيرة ابن هشام ٤٥٨ .
(٥) سيرة ابن هشام ٥١ .
(٦) الأغانى ٥ — ١٢٦ .

قتيبة : « لم تُز عجونى من جواركم ؟ »[1] .

وفى تفسير الطبرى : « كنا نعطيهم فى الجاهلية ستين وسقا ونقتل منهم ولا يقتلونا »[2] .

ومن أمثلة الحذف لكراهة توالى الأمثال كذلك : إنّ وأنّ ولكنّ وكأنّ ، مع نون الوقاية قبل ياء المتكلم ، أو ضمير المتكلمين المنصوب . والحذف مع هذه الأحرف هو الشائع فى القرآن الكريم ؛ ففيه مثلا : « إنى » ١٢٤ مرة ، فى مقابل : « إننى » ٦ مرات ، كما ورد فيه : « وإنّا » ٣٣ مرة ، فى مقابل : « وإننا » مرة واحدة . وغير ذلك[3] .

ولعل المسئول عن منع كلمة : «أشياء» من الصرف ، وقوعها فى القرآن الكريم ، فى سياق تتوالى فيه الأمثال لو صرفت ، فى قوله تعالى : « لاتسألوا عن أشياءَ إن تُبْدَ لكم تسؤكم » سورة المائدة ١٠١/٥ إذ لو صرفت لقيل : « عن أشياءٍ إنْ » ولا يخفى مافيه من تكرار المقطع : « إنْ » .

وليست العربية بدعا فى سلوك طريق الحذف ، للتخلص من توالى الأمثال ؛

فى الآرامية مثلا : L'iš ('aryā) بمعنى : « ليث » ، أصلها الاشتقاقى : 'aryayā وفى الألمانية مثلا كلمة : der Beamte بمعنى : « الموظف » ، هذه الكلمة أصلها الاشتقاقى :

der Beamtete وغير ذلك من الكلمات .

وفى العربية الفصحى من المقاطع الصوتية ، خمسة أنواع : الأول مقطع قصير مفتوح ، وهو ماتكوّن من صوت صامت وحركة قصيرة ؛ مثل : (كَ) ، والثانى مقطع طويل مفتوح ، وهو ماتكوّن من صوت صامت وحركة طويلة ؛ مثل : (فى) ، والثالث مقطع طويل مغلق حركته قصيرة ، وهو ماتكوّن من صوتين صامتين بينهما حركة قصيرة ؛ مثل : (مِنْ) ، والرابع مقطع طويل مغلق حركته طويلة ؛ مثل : (بابْ) فى الوقف ، والخامس مقطع زائد فى الطول ، وهو مابدأ بصوت صامت ، تليه حركة قصيرة ، ثم يختم

---

(١) عيون الأخبار ١ – ٢٩٣ . (٢) تفسير الطبرى ٨ – ٥١٠ .

(٣) انظر أمثلة أخرى فى مقالتنا : كراهة توالى الأمثال ، بمجلة المجمع العلمى العراقى – المجلد الثامن عشر .

بصوتين صامتين متتاليين ؛ مثل : (بِنْتْ) فى الوقف .

ومن القوانين الصوتية فى العربية الابتعاد عن توالى أربعة مقاطع من النوع الأول ، وهذا هو السر فى تغيير نظام المقاطع ، فى الفعل الماضى الثلاثى المتصل بضمير الرفع المتحرك ، إلى مقطعين من النوع الأول ، بينهما مقطع من النوع الثالث ؛ مثل : « ضَرَبْتُ » ، بدلا من توالى أربعة مقاطع من النوع الأول فى : « ضَرَبَتُ » .

كما تبتعد العربية عن المقطع الرابع ، فى غير الوقف ووسط الكلمة ، بشرط أن يكون المقطع التالى له مبتدئاً بصامت ، يماثل الصامت الذى ختم به المقطع السابق. وهذه الحالة الأخيرة ، هى ما عبر عنها اللغويون العرب القدامى « بالتقاء الساكنين على حدّهما » وهو أن يكون الأول حرف لين والثانى مدغمًا فى مثله[1] ؛ نحو « الضالّين » و « دَابّة » و « شابّة » .

فإذا نشأ هذا المقطع اشتقاقياً ، فى غير هاتين الحالتين ، حوّلته اللغة إلى مقطع من النوع الثالث ، بتقصير حركته مثل : « يقومُ » التى تصير عند الجزم : « لم يَقُمْ » ، وكان الأصل فيها : « لم يقومْ » ، غير أن المقطع : « قُومْ » هو من نوع هذا النوع الرابع الذى تفر منه العربية .

ويذهب بعض المستشرقين[2] ، إلى أن الإعراب كان فى الأصل ، بالحركات الطويلة فى آخر الكلمة ؛ بدليل الوقف بهذه الحركات الطويلة ، فى لغة أزد السراة فى قولهم مثلا فى الوقف : « هذا خالدو » و « رأيت خالدا » و « مررت بخالدى » وبدليل الوقف بالفتحة الطويلة فى الفصحى فى قولنا : « رأيت خالدا » ، غير أن دخول النون الساكنة للتنوين فى الوصل ، أدّى إلى نشوء المقطع الرابع ، فتخلصت منه العربية بتحويله إلى مقطع من النوع الثالث ، أى أن هذا الرأى يفترض أن الأصل فى مثل : « جاء زيدٌ » و « رأيت زيداً » و « مررت بزيدٍ » هو : « جاء زيدونْ » و « رأيت زيدانْ » و « مررت بزيدِينْ » . وهو رأى قد يمكن عن طريقه

---

(١) انظر شرح ابن يعيش للمفصل ٩ — ١٢٠ .

(٢) انظر : Rabin, Ancient West Arabian, p. 57 .

تفسير وجود الواو فى كلمة : (عمرو) ، وقد وردت فى أحد النقوش العربية القديمة ، مكتوبة بالياء فى حالة الجرّ [1] .

ومن القوانين الصوتية المؤثرة فى العربية كذلك : المخالفة بين حركتى الفتح المتتاليتين ، إذا كانت الأُولى منهما طويلة ؛ إذ تتحول الثانية منهما فى هذه الحالة إلى كسرة ؛ فالأَصل فى نون المثنى هو الفتح ، غير أنها كسرت تبعاً لهذا القانون ، بدليل أنها ما تزال مفتوحة فى جمع المذكر ، وبدليل بعض الأَمثلة ، التى بقيت على الأَصل القديم ، وهى ما نسميه نحن « بالركام اللغوى » ؛ مثل : « شَتَّانَ » فى مثل قولهم : « شتان أَخوك وأَبوك » أى هما متفرقان ، فهو تثنية « شتّ » والشتّ المتفرق [2] .

ومن لم يقنعه هذا المثال ، فلينظر فى نون التوكيد المشددة ، وهى مفتوحة ـ كما نعرف ـ فى : « يضربَنَّ » و « تضربَنَّ » وما إلى ذلك ، غير أنها مكسورة فى مثل : « يضربانِّ » ؛ بسبب المخالفة المذكورة .

وهذه النون التى تسمى بنون الرفع فى الأَفعال الخمسة ، هى مفتوحة فى : يفعلونَ ، وتفعلونَ ، وتفعلينَ . ولكنها مكسورة فى : يفعلانِ ، وتفعلان ؛ بسبب هذا القانون نفسه .

بل إن نصب جمع المؤَنث السالم بالكسرة ، لَيُفَسَّر كذلك بهذا القانون ، أى أن الأَصل هو نصب هذا الجمع بالفتحة ، بدليل ما رواه الكوفيون عن العرب من قولهم : سمعت لغاتَهم ، وقول الرياشى : سمعت بعض العرب يقول : أَخذتُ إراتَهم [3] ، غير أن أثر هذا القانون ، هو الذى أدى إلى تخالف الفتحة إلى كسرة ، فيما نعتقد .

هذه هى بعض القوانين الصوتية ، التى تحكم التطور اللغوى فى العربية ، وليس من قصدنا هنا إحصاء هذه القوانين فلذلك مجال آخر .

أما « القياس » ؛ فعن طريقه تتطور اللغة كذلك . وقد ثبت من تتبع حياة اللغات « أن الاختلاف فى حياة اللسان ،

---

(١) انظر : نقش « أم الجمال » فى كتابنا : فصول فى فقه العربية ٤٢ – ٤٣

(٢) لسان العرب (شتت) ٢ – ٣٥٥ .

(٣) منهج السالك لأبى حيان ص ١١ .

أقدم من الاتفاق فى أكثر الحالات »[1] . وهنا يأتى القياس اللغوى ، ليلغى هذه الاختلافات ، ويقيس بعض الأمثلة على بعض ، فتتوحد الظاهرة عن هذا الطريق .

مثال ذلك : ثبت من مقارنة اللغات السامية ، أن الأصل فى ضمير المتكلم هو الكاف ، والأصل فى ضمير الخطاب هو التاء ؛ لأن التكلم جنس يختلف عن جنس الخطاب . ومن الطبيعى أن يوضع لكل جنس ، ضمير يخالف ضمير الجنس الآخر ؛ أى أن الأصل أن يقال مثلا : « ضَرَبْكُ ـ ضَرَبْتَ ـ ضَرَبْتِ » ، غير أن القياس أدّى إلى تسوية هذا الاختلاف فسادت الكاف وحدها فى الحبشية ففيها مثلا : « قَتَلْكُو ـ قَتَلْكَ ـ قَتَلْكِى » وفى العربية والآرامية والعبرية ، سار القياس فى اتجاه آخر ، فسادت التاء ؛ إذ يقال فى العربية مثلا : « قَتَلتُ ـ قَتَلتَ ـ قَتَلتِ » .

وهذا مثال آخر لأثر القياس فى التطور اللغوى ؛ فالأصل فى لام الجر الفتح ، والأصل فى باء الجر الكسر ، بدليل وجود هذا الأصل فى اللغات السامية الأخرى ، وبدليل الاحتفاظ به فى العربية عند الاتصال بالضمائر ، فى مثل : « له » و « به » . أما كسر اللام فى مثل : « لِلرجلِ » و « لِلناسِ » فى العربية ، فإن سببه هو القياس على باء الجر .

وما النصب « بما » عند الحجازيين ، فى مثل قوله تعالى : « ما هذا بشرا » ، إلا أثر من آثار قياس « ما » على «ليس» إذ المعنى فيهما سواء .

غير أن للقياس أثرًا آخر فى منع القانون الصوتى أحيانًا ، عن أن يؤدّى وظيفته ؛ فإن صيغ تصريف وزن معين ، توجد فى الذهن فى مجموعات مترابطة ، فلو جاء القانون الصوتى ، وأراد أن يعمل وكان من جراء عمله الإخلال بذلك الترابط فإن القياس يلغى القانون الصوتى ، بسبب ما يسمى « بطرد الباب على وتيرة واحدة » .

مثال ذلك : أن القانون الصوتى ، يحتم أن ينطق الفعل : « عبد » مثلا ، عند إسناده إلى تاء الفاعل هكذا :

---

(١) انظر : التطور النحوى لبرجشتراسر ص ٤٩ .

« عَبَتُّ » ، بإدغام الدال فى التاء ، تبعاً لقانون المماثلة ، أو التأثر المدبر الكلى ، غير أن القياس على باقى صيغ تصريف هذا الفعل ؛ مثل : « عبدوا » و « عبدا » ، يحتم الإبقاء على الدال ، لكى يطرد الباب على وتيرة واحدة ، وعندئذ نرى العرب يفصلون بين صوتى الدال والتاء هنا بحركة مخطوفة ، هى ما سماها اللغويون العرب فيما بعد ، « بقلقلة » الدال ، حتى لا تتأثر صوتيًّا بالتاء ، فيقولون : « عَبَدِتُ » .

وقد يكمل القياس الطريق الذى بدأه القانون الصوتى ، أى أن القانون الصوتى ، يؤثر فى بعض أمثلة الظاهرة اللغوية ، ثم يَطْرد القياس الباب على وتيرة واحدة فى الأمثلة الباقية .

فمثلا : مضارع وزن « أَفْعَلَ » المسند إلى ضمير المتكلم ؛ مثل : « أُكْرِمُ » ، الأصل فيه : « أُوَكْرم » ، فتوالى فيه مقطعان متماثلان . وقد عرفنا من قبل أن العربية تفرّ من توالى الأمثال ، فتحذف أحد المقطعين المتماثلين ؛ وبذلك يصبح الفعل : « أكرم » ، ثم تقاس باقى صيغ المضارعة على هذه الصيغة ، طردًا للباب على وتيرة واحدة .

وقد فطن إلى هذا ابن جنى ، فقال : « قولهم : أنا أُكرم ، حذفوا الهمزة التى كانت فى (أَكْرَمَ) ؛ لئلا يلتقى همزتان لأنه كان يلزم : أنا أُوكرم ، فحذفوا الثانية ؛ كراهة اجتماع همزتين ، ثم قالوا : نكرم ، وتكرم ، ويكرم ؛ فحذفوا الهمزة ، وإن كان لو جاءوا بها لما اجتمع همزتان ، ولكنهم أرادوا المماثلة ، وكرهوا أن يختلف المضارع ، فيكون بهمزة ، وأخرى بغير همزة ، محافظة على التجنيس فى كلامهم [1] » .

وإذا كان الفعل الناقص المسند إلى الغائبة ، قد تحوّل من : (رماتْ) مثلا إلى (رَمَتْ) ؛ بسبب تجنب المقطع الرابع ، الذى تحدثنا عنه من قبل ؛ فإن هذا الفعل الناقص نفسه ، إذا أُسند إلى الغائبتين ، لا ينشأ فيه هذا المقطع الرابع ، وليس هناك قانون صوتى : يؤدى إلى تحوّل : (رماتا) مثلا ، إلى : (رَمَتَا) ، وإنما هو أثر القياس على

---

(١) المنصف لابن جنى ١ – ١٩٢ .

الفعل المسند إلى الغائبة ، وطرد للباب على وتيرة واحدة .

كما أن كراهة توالى أربعة مقاطع من النوع الأول ، هو المسئول عن تطور : « ضربت » مثلا ، عن : « ضَرَبَتُ » - كما عرفنا من قبل . أما مثل : « استخرجت » مثلا ، فليس فيه توالى هذه المقاطع الأربعة ، وإنما المسئول عن تسكين لام الفعل فيه ، هو القياس على باقى صيغ الأفعال ، وطرد الباب فيها على وتيرة واحدة .

ومن القوانين الصوتية ، التى طردت العربية الباب فيها عن طريق القياس ، قانون يسمى «بقانون الأصوات الحنكية » ؛ فقد وصل العلماء فى مقارنتهم اللغة السنسكريتية باللغتين اليونانية واللاتينية فى أواخر القرن التاسع عشر ، إلى قانون صوتى سموه : « قانون الأصوات الحنكية » ولاحظوا أن أصوات أقصى الحنك ، كالكاف والجيم الخالية من التعطيش ، كالجيم القاهرية مثلا - تميل بمخرجها إلى نظائرها من الأصوات الأمامية ، حين تليها فى النطق حركة أمامية كالكسرة ؛ لأن هذه الحركة الأمامية فى مثل هذه الحالة ، تجتذب إلى الأمام قليلا أصوات أقصى الحنك ، فتنقلب إلى نظائرها من أصوات وسط الحنك[1] . ويغلب أن تكون هذه الأصوات الجديدة من النوع المزدوج ، أى الجامع بين الشدة والرخاوة ، وهو المسمى باللاتينية : Affricata .

ومن الأصوات التى خضعت لهذا القانون فى العربية : صوت الجيم ؛ فإن مقارنة اللغات السامية كلها ، تشير إلى أن النطق الأصلى لهذا الصوت ، كان بغير تعطيش كالجيم القاهرية تماماً ؛ فكلمة : جمل مثلا ، هى فى العبرية : gāmāl وفى الآرامية : gamlā وفى الحبشيّة gamal أما العربية الفصحى ، فقد تحول فيها نطق هذا الصوت من الطبق إلى الغار ، أى من أقصى الحنك إلى أوسطه ، كما تحول من صوت بسيط إلى صوت مزدوج ، يبدأ بدال من الغار ، ثم ينتهى بشين مجهورة ، غير أن ذلك لم يحدث فى البداية فى كل جيم ، وإنما كان يقتصر على الجيم المكسورة ، تبعاً لقانون الأصوات الحنكية ، الذى أشرنا إليه من قبل ، ثم

---

(١) انظر : فى اللهجات العربية للقديمة للدكتور إبراهيم أنيس ١٢٣ .

عَمّم القياس هذا النطق الجديد فى كل جيم ، طردا للباب على وتيرة واحدة . وقد حدث ذلك فى العربية القديمة ، فى العصور السابقة لظهور الإسلام ، وصار هو النطق المميز للفصحى ؛ ولذلك جاء به القرآن الكريم ، وبقى النطق البائد فى بعض اللهجات العربية القديمة ، وامتداداتها فى بعض اللهجات الحديثة .

وما حدث لصوت الجيم القديم فى الفصحى ، حدث مثله لصوت الكاف فى بعض اللهجات القديمة ، فى الظاهرتين المعروفتين عند القدماء ، بظاهرتى : الكسكسة والكشكشة ، اللتين رويتا لنا عن بعض القبائل القديمة ، كبكر وهوازن وربيعة وأسد . وقد وقفت هذه الظاهرة فى القديم ، عند حدود قانون الأصوات الحنكية ، أى أن الكاف لم تقلب إلى (تْس) فى الكسكسة ، ولا إلى : (تْش) فى الكشكشة ، إلا إذا كانت مكسورة ؛ ندرك هذا من تقييد اللغويين القدماء لها بكاف المؤنثة ، وهى مكسورة كما نعلم ، وإن كانت أمثلتهم تحتوى على كافات أخرى مكسورة ، سوى كاف المؤنثة ؛ كقول الراجز :

إن دنوتِ جعلتْ تُنئيشِ
وإن نأَيتِ جعلتْ تُدنيشِ
وإن تكلمتِ حشتْ فى فيشِ
حتى تنقِّى كنقيق الدِّيشِ[1]

أى : تنئيك ، وتدينك ، وفيك ، والدّيك .

أما اللهجات العربية الحديثة ، فقد طردت هذا القلب فى كل كاف عن طريق القياس ، مكسورة كانت هذه الكاف ، أو غير مكسورة ؛ ففى بلاد نجد تسمعهم يقولون : « تْسيف حالك ؟ » و « على تْسَمْ ؟ » فى : « كيف حالك ؟ » . و « على كم ؟ » . كما نسمع عند أصحاب الكشكشة ، وهم كثيرون فى جنوبى العراق ، وبلدان الخليج وشمالى أفريقيا : « تْشِبير » و « تْشلب » فى : « كبير » و « كلب » وما إلى ذلك.

وقد يؤدى القياس إلى نشوء كلمات جديدة فى اللغة ؛ فإن بناء : « اتّبع » من : « تبع » مثلا ، أدى إلى توهم أن « اتخذ » مأخوذة من « تخذ » ، مع أنها من : « أخذ » ، وبذلك نشأت

---

(١) انظر : مجالس ثعلب ١ – ١١٦ وخزانة الأدب ٤ – ٥٩٤ .

كلمة جديدة هى : « تخذ » ، واستخدمها الشعراء ؛ كقول الممزق العبدى :

وقد تَخِذَتْ رجلى إلى جنب غَرزها
نسيفًا كأفحوص القطـــاة المطرَّق

وقد فطن إلى هذا ، الجوهرى فقال : والانخاذ افتعال من الأخذ ، إلا أنه أُدغم بعد تليين الهمزة ، وإبدال الياء تاءً ، ثم لما كثر استعماله على لفظ الافتعال ، توهموا أن التاء أصلية ، فبنوا منه : فَعِلَ يَفْعَل ، قالوا : تَخِذ يَتْخَذُ[1] » .

ولا شك أن هذه هو الطريق ، الذى وصلت إلينا عنه كلمات أخرى ؛ مثل : « التكلان » من : « وكل » ، «التُّخَمة » من الطعام الوخيم ، و « التقوى » من : « وقى » ، و « التراث » من : « ورث » ، و « تِجاه » من : « وجه » ، و «التكأة » من : « توكا » ، و « التالد » و «التلاد و « التليد » من : « ولد » ؛ لأن معناه المال المولود عند أصحابه . وغير ذلك[2] .

وهكذا نرى أنه لا شذوذ فى اللغة ، وأن القانون اللغوى له من الحتمية والضرورة ، مثل ما لقانون الجاذبية فى الطبيعة ، وقانون العرض والطلب فى الاقتصاد ، ولكن وجود قانون ما ، لا يمنع وجود قانون آخر يعارضه فى العمل ؛ فإن قانون الجاذبية مثلا ، يقضى بأن الأجسام كلها تسقط نحو مركز الأرض فى خط عمودى ، لكن هذا لا يمنع أن نرى ورقة تسقط فى خط متعرّج ، وأن نرى « البالون » يرتفع إلى أعلى .

إن القانون فى اللغة ، كالقانون فى الطبيعة ، لا يمضى دون أن يصطدم بقوانين أخرى . والشذوذ فى قانون صوتى ليس شذوذا ، إلا عندما لا نكون قد اكتشفنا القانون الجديد الذى يفسره أو القياس الذى يلوى عنقه فى اتجاه آخر .

هذا ما أردت الوقوف عنده من عوامل التطور اللغوى ، وهى كثيرة ، غير أن أهمها ما مثلنا له من القياس والقوانين الصوتية . وبعض الأمثلة يغنى عن بعض والله أعلم .

رمضان عبد التواب

---

(١) الصحاح للجوهرى (أخذ) ٢ / ٥٥٩ .

(٢) انظر : القلب والإبدال لابن السكيت ٦٢ – ٦٣ والإبدال لأبى الطيب ١/١٤٩ واللسان (تق) ١٨/١١٠ (وق) ٢٠ / ٢٨٣ .

ملاحظات حول أنواع الألفاظ المعرَّبة في اللغة العربية المعاصرة

للأستاذ نيقولا دوبريشان

لا شك أن التعريب يلعب دوراً معترفاً به عموماً في تكوين المصطلحات العلمية في مختلف لغات العالم. إن التطورات التي طرأت على موقف مجمع اللغة العربية الموقر في القاهرة وهيآت علمية عربية أخرى والعلماء اللغويين العرب من الألفاظ المعربة معلومة جيداً، وكذلك المناقشات والمواد التي نشرت في صفحات مجلة مجمع اللغة العربية الموقر ومؤلفات أخرى خلال السنين السابقة. وعلى هذا لا نرى من الضروري أن نلح عليها[1]. وإذ نعود إلى هذا الموضوع فذلك رغبة منا في التأكيد على بعض الظواهر — وهذا قل من كثر — التي تدل على حالة الألفاظ المعربة في اللغة العربية المعاصرة وخاصة في مجال المصطلحات الاجتماعية والسياسية.

لاحظنا أن اللغة العربية أخذت عدداً من المصطلحات التكنيكية والعلمية من اللغتين الفرنسية والإنجليزية وذلك أن العالم العربي كان في العصر الحديث على اتصال مستمر بالحضارة الأوروبية بواسطة اللغتين المذكورتين؛ وحتى عملية التعليم جرت ولا تزال في بعض البلدان العربية باللغة الإنجليزية وباللغة الفرنسية نتيجة للسيطرة الاستعمارية الطويلة على هذه البلدان فيما مضى.

أما المجالات الإدارية والتجارية فقد دخل في العربية عدد من الكلمات الإيطالية والتركية وخاصة في النصف الأول من قرننا هذا، وذلك نتيجة للعلاقات السياسية والتجارية والبحرية الوثيقة القائمة بين الشعوب العربية، وهذين الشعبين اللذين يعيشان في الجوار

---

(١) قد نشرنا في مجلة جامعة بوخارست مقالين عن المعرب من المصطلحات العربية وذلك في نطاق رسالة الدكتوراه التي نعدها والتي تتناول موضوع طرق تكوين المصطلحات الاجتماعية والسياسية في اللغة العربية المعاصرة، وهما:

1) Nicolae Dobrisan, L'emprunt lexical en arabe (Période classique), AUB, 1973, 11 p.

2) Nicolae Dobrisan, L'emprunt lexical en arabe (Période mederne), AUB, 1973, 24 p.

المباشر للعالم العربي ، ونقدم على سبيل المثال هذه المصطلحات : « بورصة it. borsa » و « بوسطة it. posta » و « فاتورة it. fattura » و « باسابورط it. passaporto » و « بوليصة it. polizza » و « دمغة tc. damga » و « كمرك (جمرك) tc. gümrük » الخ .

إن عدداً من أسماء الآلات والأجهزة الحديثة قد دخلت في اللغة العربية في نفس الوقت مع الحقائق المسماة بدون أن يترك وقت لإيجاد كلمات عربية للمعاني الجديدة . وهذه هي الحالة بالنسبة لمفردات كـ « تلغراف » و « تلفون » و « بطارية » و « بارومتر » وغيرها ، أو بالنسبة لكلمات دخلت اللغة العربية في فترة أقرب منا زمناً ، مثل « سينما » و « فيلم » و « تلفزيون » و « مترو » وغيرها .

كما دخل العربية عدد من وحدات القياس بشكلها الأوروبي ، مثل « متر » و « لتر » و « هكتار » و « كيلو متر » و « هكتولتر » وغيرها . وكذلك أسماء المصطلحات المتعلقة بالكهرباء التي تحمل أسماء مخترعيها ، مثل « أمبير » Ampère و « أوم » Ohm و « وات [1] » Watt وغيرها .

إن هذه المصطلحات تمثل جزءاً مما يسمى بالألفاظ الدولية vocabulaire international حيث إنها توجد في معظم لغات العالم بشكل قريب من أصلها .

إن أسماء عدد من العلوم المكونة في اللغات الأوروبية من كلمتين ثانيتهما الكلمة اليونانية « لوجيا » logia دخلت في اللغة العربية محتفظة بشكل قريب من شكلها في اللغات الأوروبية (الشكل الفرنسي في معظم الأحيان)، مثال ذلك : « بيولوجيا » fr. biologie « ميترولوجيا » fr. metrologie و « إبستيمولوجيا » fr. épistémologie وغيرها . في بعض الاحيان حصلت على شكل مصدر صناعي ، أي بتحويل ألف المد في نهاية الكلمة إلى اللاحقة suffixe — ية « الخاصة بالمصدر الصناعي : مثل « بيولوجية » وغيرها من العلوم .

وإن الشكل الثاني هذا ليدل على درجة أكبر في اندماج اللفظة assimilation من الناحية الصرفية والصوتية . في الوقت الأخير نلاحظ أن الباحثين منحوا الأسبقية للاحتفاظ بالشكل المكون «اوجيا» اليونانية .

وفي حالات أخرى نجد أشكالا متوازية « variantes » أي بالاضافة إلى اللفظة المعربة ، توجد ترجمتها أو حتى شرحها باستعمال كلمات عربية ، مثال ذلك : «بيدا غوجية» « fr. pédagogie » إلى جانب « علم التربية » و «ديموغرافيا » fr. demografie إلى جانب «علم السكان» و «تيبولوجيا » fr. typologie إلى جانب «علم تشكل الإنسان» إلى آخرها. [2]

---

(١) بشكل (واط) أيضا.

(٢) انظر عبد العزيز بن عبد الله ، معجم أسماء العلوم والفنون والمذاهب والنظم ، فرنسي — عربي ، سلسلة المعاجم عدد ٩ — ١٩٦٩ .

وفى حالة أسماء العلوم غير المنتهية بـ gie فى اللغة الفرنسية تم الاحتفاظ بشكل قريب من الشكل القائم فى اللغة الأصلية ، مثال ذلك : «هدروستاتيك» fr. hydrostatique و « ميكانيك[1] » fr. mécanique و «سبرنتيك[2] » fr. cybernétique وغيرها .

أما أسماء المذاهب والتيارات الفلسفية أو الأدبية التى تقابلها فى اللغة الفرنسية كلمات تنتهى باللاحقة « isme » ، فقد تم تعريبها عن طريق تحويل هذه اللاحقة إلى اللاحقة العربية الخاصة بالمصدر الصناعى « ـيّة» وذلك قياسا على المصطلحات القديمة من هذا النوع، مثال ذلك: «دناميكية» fr. dynamisme وميكانيكية fr. mécanicisme و « أكاديمية » fr academisme و «طوطمية» fr. totémisme و «دغماطيقية[3]» fr. dogmatisme وغيرها[4].

وفى حالات نادرة تم استعمال كلمة «مذهب» "doctrine" ، مثال ذلك : «المذهب الكلاسيكى » fr. classicisme و«المذهب الرومانطيقى» fr. romanticicisme الخ . . .

ولكن فى نفس الوقت هناك إمكانية استعمال الكلمة «مذهب » لتكوين اسم أى مذهب من المذاهب المذكورة سابقا وغيرها من المذاهب الفلسفية أو التيارات الأدبية والحضارية شريطة أن تتبع النسبة المشتقة من اللفظة المعربة المعنية لكلمة « مذهب» .

وانطلاقا من الأسلوب الأوروبى تم اشتقاق أسماء مذاهب وتيارات فلسفية وسياسية من أسماء الأعلام ، مثال ذلك: «الماركسية» (مصر ٦٨) Marx و «اللينينية» (مصر ٦٨) Lenin و «التروتسكية» Trotski و « ديجولية » De Gaulle « برغسونية » Bergson وغيرها[5] .

والجدير بالذكر أن بعض الأسماء للمذاهب اشتقت من أسماء شخصيات عربية ، ومن الممكن أن هذه الظاهرة جرت تحت تأثير الأسلوب الأوروبى ، مثل «الناصرية» «جمال عبد الناصر» البورقيبية» « الحبيب بورقيبة » والقاسمية « عبد الكريم القاسم » وغيرها .

وبالإضافة إلى المصادر الصناعية المشتقة من من أسماء الأعلام فهناك نسب مقابلة لها بمعنى

---

(١) إلى جانب شكل معرب وهو « الميكانيكيات » وهو جمع المصدر الصناعى .

(٢) إلى جانب الشكلين المنتهيين بألف المد « ميكانيكا » و « سبرنتيكا » .

(٣) إلى جانب « الجمود العقائدى » (العراق ٦٨ ولبنان ٦٨) و « العقائدية الجامدة »(العراق ٦٨) .

(٤) لاقتصاد المكان لا نذكر المصادر أو الصحف التى اخترنا منها الأمثلة ونقتصر على ذكر البلد والسنة فقط .

(٥) وجدنا بعض هذه المصطلحات مذكورة بين « المصطلحات فى العلوم الفلسفية والاجتماعية » ، مجلة مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، ج٩ ، ١٩٥٧ ، ص ١٨٨ – ١٨٩

أنصار المذهب المعنى :- «الماركسيون» و «الناصريون» الخ . . . . ولكن اشتقاق النسب من أسماء الأعلام معروف فى العربية القديمة :

وهناك ملاحظة خاصة فيما يتعلق باسم المذهب الفاشى وهى أن لاسم هذا المذهب شكلين لهما نفس الانتشارتقريبا : « الفاشية» و «الفاشستية» والنسبتان المقابلتان لهما«الفاشى» و «الفاشستى » : ويبدو أن الشكل الأول اشتق من الكلمة الفرنسية fascisme (اسم المذهب) بينما اشتق الشكل الثانى من الكلمة الإيطالية fascista . لكننا وجدنا من الناحية الإحصائية أن الشكلين «فاشستى» (اسم وصفة) و « فاشستية » (مصدر صناعى) منتشران بصفة خاصة فى الصحف المصرية .

وتمثل أسماء الأمم والشعوب والقوميات نوعا خاصا من الألفاظ المعربة ، فإنها تظهر بشكل اسم جنس collectif قياسا على حالة قديمة فى اللغة أو بشكل جمع سالم للنسب المشتقة من أسماء البلدان المعنية .

وفى العصر الحديث انتشرت أسماء الجنس مثل الفرنج[1] Franc و «الألمان» Allemand و « الأمريكان » Américain و « الإنجليز » Anglais إلخ : . . وذلك قياسا على أسماء شعوب دخلت فى اللغةالعربيةفى العصور القديمة ، مثل «الروم» و «الترك» و «الرومان» و «التتار» وغيرها :

ولكن فى العادة يتم اشتقاق جمع مذكر سالم من النسبة المشتقة من أسماء البلدان ، مثل «فرنسا» «فرنسى» «فرنسيون» و «رومانيا» «رومانى «رومانيون» وغيرها .

وفى نفس الوقت يمكن اشتقاق نسبة من أسماء الشعوب التى لها شكل أسماء الجنس وفى هذه الحالة يكون المشتق له قيمة اسم وصفة فمثلا : تشتق من «أمريكا» النسبة «أمريكى» وفى نفس الوقت يشتق «أمريكانى» من«أمريكان» وكذلك تشتق من اسم الجنس «ألمان» النسبة «ألمانى» التى تجمع على «ألمانيين[2]».فى هذه الحالة يستعمل الجمع السالم المنتهى بـ ـون ـ ـ ين ـ لتسمية الشعوب المعنية .كما يشتق من نسبة مؤنث ينتهى بـ ـ ية ـ ويستعمل كاسم وكصفة ويشتق منه جمع مؤنث سالم ينتهى بـ « ـ ات» . ويستعل لتسمية النساء المنتميات إلى قومية معينة ، فتشتق على سبيل المثال من الاسم «روس» النسبة «روسى» (اسم وصفة) ومنها تشتق «روسية» وتجمع تلك بدورها على «روسيات» (بمعنى النساء المنتميات إلى القومية الروسية) .

---

(١) استعملت الكلمة فيما بعد بمعنى « الأوروبيين » عامة .

(٢) ويستعمل هذا الجمع كصفة بوجه عام فى حين يستعمل اسم الجنس كاسم .

وبالنسبة للشعب الرومانى تشتق من اسم البلد « رومانيا » النسبة « رومانيون » ولكن بالإضافة إلى هذا الجمع يستعمل لتسمية الشعب اسم الجنس «الرومان» Les Romains وذلك نتيجة لبس مع الرومان القدماء الذين يمثلون أصـــل الشعب الرومانى الحالى ولكنهم كانوا شعبا آخر عاش فى إمبراطورية روما القديمة فى حين نشأ الشعب الرومانى من الاختلاط الذى حدث بين الشعب الرومانى القديم « والداك » وهم السكان الأصليون للأراضى الرومانية الحالية وذلك خلال القرون الأولى الميلادية .

ونذكر هنا كذلك اتجاها حديثا نسبيا وهو تعريب بعض الألقاب الأجنبية ، مثال ذلك : « لورد » angl. lord ومستر[1] » (مصر ٧١) و angl. mister « سيناتور » angl. senator (مصر ٧١) و« بروفيسور » fr. professeur (مصر ٧١)و « سينيور» esb. senor (مصر٧١) ٧١) و « سير» angl.sir (مصر ٧١) و« ميسيو » fr. monsieur (مصر٧١)

ويبدو طبيعيا أن تسبق هذه الألقاب أسماء أشخاص ممن البلدان التى تستعمل فيها هذه الألقاب ومثلها مثل الألقاب العربية التى لها معنى متشابه تظهر معرفة بأداة التعريف العربية « ال » :

ويمكن اعتبار كل هذه الأنواع من الألفاظ التى ذكرناها فى الفقرات السابقة ألفاظا معربة أو فى مرحلة التعريب ولكن بالإضافة إلى الألفاظ المعربة يوجد فى اللغة العربية ، وهذا مايحدث فى جميع اللغات تقريبا ، نوع آخر من الكلمات الأجنبية وهى الكلمات التى تدل على أسماء منظمات وموسسات دولية أو وطنية أو على أسماء صحف ومحطات الإذاعة والتلفزيون .

وبالنسبة للمنظمات والهيئات والموسسات الدولية المعروفة وخاصة المتعلقة منها بالأمم المتحدة ، تتم ترجمة أسمائها ولاتستعمل الحروف الأولى « initiales » للكلمات التى تتكون منها هذه الأسماء فى اللغة الإنجليزية أو الفرنسية إلا نادرا جدا ، فمثلا اسم منظمة ONU يترجم بـ « منظمة (هيئة) الأمم المتحدة » واسم منظمة OMS يترجم بـ « المنظمة الدولية للصحة إلخ ... أما استعمال الحروف الأولى أو مقاطع من هذه الكلمات التى يتكون منها اسم المنظمة فهو ميل حديث فى اللغة العربية ، وفى هذه الحالة يتم الالتجاء إلى الأشكال المعروفة فى اللغات ذات الانتشار العالمى ، مثل الإنجليزية أو الفرنسية ، وتظهر هذه الأسماء مسبوقة بأداة التعريف ولها فى بعض الأحيان أكثر من شكل ، مثال ذلك : UNESCO « اليونسكو و الأونسكو » (مصر ،

---

(١) لاشك فى أن بعض هذه الألقاب مثل « اللورد » و « المستر » لها استعمال قديم فى اللغة العربية ، ولكننا لم نقصد وضع دراسة تاريخية . ولهذا السبب سجلنا سنة العثور عليها فى الصحف الصادرة مؤخرا .

سوريا ، لبنان ٦٨) ؛ و COMICOM الكوميكون (مصر ، المغرب ٦٨) و OPEC « الأوبيك » و « الأوباك » (مصر ، سوريا ، لبنان ٧٠) .

إن أسماء المنظمات أو الهيئات الأجنبية المكونة من كلمة واحدة تظهر بهذا الشكل مشروحة أحيانا ، مثال ذلك : « السوفييت» (مصر ٧١) Soviet و« البنتاجون » (مصر ٧٠) angl. Pentagon و «الكونجرس» (مصر ٧٠) angl. Congres إلخ . . ولما يرى ، فإن جميع هذه الأسماء تظهر معرفة بأداة التعريف « ال» .

أما محطات الإذاعة فتستعمل بصفة عامة لتسميتها الكلمة « راديو » ويليها اسم العاصمة التى توجد فيها المحطة المعنية ، مثال ذلك : « راديو عمان » (مصر ٧١) و « راديو دمشق » (مصر ٧١) و « راديوهانوى» (مصر ٧٠) و « راديو موسكو » (مصر ٧٠) وغيرها . وغيرها . ولكن بالإضافة إلى كلمة « راديو » الأجنبية استعملت كلمة « إذاعة » العربية كمضاف وكاسم تتبعه نسبة ، مثل : « إذاعات الاستعمار» (سو يا ٦٩) . و « الإذاعة الأردنية » (مصر ٧١) وغيرها . ويستعمل نفس الأسلوب لتسمية محطات التليفزيون مثل : « التلفزيون الأمريكى » (مصر ٧٠) و« التلفزيون المصرى » (لبنان ٧٠) الخ

وفى الصحف التونسية وجدنا لفظا يدل على درجة أعلى فى تعريب الكلمة الأجنبية وهو « التلفزة » (تونس ٦٩) فإن هذا اللفظ الذى له وزن المصدر تم اشتقاقه من الفعل الرباعى الأحرف « تلفز» الذى اشتق بدوره من الكلمة الفرنسية الأصل « تلفزيون » fr. télévision . إن هذا المشتق استعمل فى بداية الأمر كمصدر ، كما يستعمل الآن فى أغلب البلدان العربية ولكن فى تونس انتقل إلى استعمال اسمى صرف .

ووجدنا الكلمة « إذاعة » مستعملة كمصطلح تكنيكى ، كذلك مثلها مثل الكلمة المعربة « راديو » وذلك فى العبارات « أجهزة الإذاعة » و« أجهزة الراديو .

وهناك نوع آخر من الكلمات الأجنبية التى تدخل فى اللغة العربية وهى أسماء الجرائد والمجلات وأسماء وكالات الأنباء . ولاحظنا بالنسبة لهذه الأسماء أن بعضها يظهر معرفا وبعضها يظهر غير معرف ، أضف إلى هذا أنه فى حالات أخرى نجد الإمكانين : ويبدو أن المعرف منها كان معرفا فى اللغة الأصلية ، وأن غير المعرف منها ، إما أن يكون غير معرف فى اللغة الأصلية ، وإما أن يأتى من لغة لايعرفها إلا قليل من العرب . وقد حدث بصورة خاصة فى الأوقات الأخيرة حين توسعت توسعا مدهشا العلاقات بين جميع دول العالم

وتطور تبادل المعلومات والأخبار بسرعة نتيجة لإدخال أحدث الوسائل فى الإذاعات اللاسلكية وعدم السماح بوقت للتعرف على موقف كلمة فى لغة أو أخرى من ناحية وسائل التعريف . فإن اسم الجريدة السوفييتية Pravda [1] ، على سبيل المثال ، يستعمل فى اللغة العربية إما معرفا (البرافدا) أوغير معرف (برافدا) ، رغم أن الروسية لاتعرف التعريف بأداة التعريف. وكذلك بالنسبة لاسم الجريدة الرومانية [2] Scînteia الذى يستعمل معرفا (الاسكنتيا) [3] أو غير معرف (سكنتيا) :

ولاحظنا أن أسماء الجرائد والمجلات لاتترجم بل تبقى بشكلها من اللغة الأصلية مثل : مجلة « جين أفريك » (مصر ٧٠) Jeune Afrique وصحيفة « نيويورك تايمز New York Times » (لبنان ٧١) إلخ .

وإن الملاحظات المتعلقة بتعريف أو عدم تعريف أسماء الصحف الأجنبية تنطبق كذلك على أسماء وكالات الأنباء الأجنبية ، مثال ذلك : « وكالةتاس » [4] (مصر ٧٠) TASSو« وكالة آجير بريس » (مصر ٧١) [5] Agerpresو« وكالة فرانس بريس » (مصر ٦٩) France Presseو « وكالة رويتير » (مصر ٧١) Reuter ولكن « وكالة الأسوشيتد بريس » (مصر ٧١) Associated Press .

ويلاحظ أن العرب لم يأخذوا فى الاعتبار بصدد حالة هذه الأسماء أن بعضها تتكون من الحروف الأولى أو من المقاطع الأولى لعدد من الكلمات فى اللغات الأصلية ، وتمت معالجتها كأنها كلمات مستقلة :

وأخيرا ، نذكر هنا بعض الكلمات المركبة تركيبا مزجيا فى لغات أخرى والتى دخلت فى اللغة العربية ، لكنها تغيرت شيئا ما من الناحية الصوتية والصرفية [6] لما دخلت فى العربية .

إن أغلب هذه الكلمات هى مصطلحات علمية وتكنيكية مثل « الصناعة البيتروكيمائية fr. pétrochimique (سوريا ٦٨) ومصنع « البيتروكيماويات (الأوردن ٧١) وعدد من المركبات التى تدخل فيها الكلمة « كيلو fr. kilo مثل « كيلو متر » fr. kilométre وكيلوغرام fr.kilogramme و« كياوات » [7] fr. kilowatt وتجمع هذه الكلمات جمع

---

(١) معنى الكلمة فى اللغة الروسية هى « الحقيقة » .

(٢) معنى الكلمة فى اللغة الرومانية « الشرارة » .

(٣) نتج الشكل » اسكنتيا « عن الطريقة التى اتبعها المعربون فى تعريب اسم يبتدئ بالساكن وذلك لاستحالة النطق بالمبدوء بالساكن فى اللغة العربية .

(٤) وكالة الأنباء السوفيتية . (٥) وكالة الأنباء الرومانية .

(٦) لا نعنى هنا الألفاظ المركبة فى اللغة العربية بالطريقة المعروفة بالنحت .

(٧) والشكل (كيلو اط) «اليمن ٧١» .

مؤنث سالماً : كيلومترات : وكيلوغرامات» وقد لفت أنظارنا مصطلحا من المصطلحات الاجتماعية والسياسية وجدناه مؤخرا فى الصحف اللبنانية وهو «حكومة اكسترابرلمانية» (لبنان ٧١) fr. extraparlamentaire .

ولأننا أخذنا فى الاعتبار كثرة المصطلحات التكنيكية والعلمية المعربة فى العصر الحديث ، وكثير منها تعتبر مصطلحات ذات انتشار دولى ، لم نرد الخوض بهذه العجالة فى هذا الموضوع الواسع [1] . ولكنا نسجل فقط أنه فى العصر الحديث لم يتم تعريب مصطلحات فى علوم كالحقوق والرياضيات والجيولوجيا والفلك والجغرافيا إلا فى حالات استثنائية ، وذلك لأن لهذه العلوم تقاليد عريقة عند العرب . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ففى هذه العلوم لم تحدث ثورة تشبه الثورة التى جرت فى العلوم التكنيكية والتطبيقية

نيقولا دوبريشان

NICOLAE DOBRISAN

جامعة بوخارست Université de Bucarest

قسم اللغات الشرقية

Section de langues orientales Roumanie

---

(١) أنظر للتفاصيل شروح كتاب اللغة العربية كائن حى » لجرجى زيدان « ، ص ١١٦ والصفحات التالية .

في القرآن والعربية:

الصراع بين القُرّاء والنُّحاة

للدكتور أحمد علم الدين الجندى

مقدمة :

اندفع المسلمون كالسيل يدرسون القرآن ويحفظونه متفقهين متعبدين و كان الاعتماد فى نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور ، كما جاء فى صفة أمة الرسول صلى الله عليه وسلم « أناجيلهم[1] فى صدورهم » لذا أُحيط نص القرآن الكريم بالعناية الشديدة المنقطعة النظير ، فأقام الله له أئمة ثقات من القراء[2] .

---

(١) النشر ١ – ٦ .

(٢) سموا بالقراء ، لأنهم يقرءون القرآن ويقرئونه ، وكان من سلوكهم فى الصدر الأول أنهم يستعلون على المال على حين تخضع ظهورهم وتنحنى أصلابهم على أجزاء القرآن وسوره ، ويقضون ليلهم صلاة ، وصياما و بكاء .

وكان (القارىء) عبد الله بن عمر يجد القوة على أن يختم القرآن فى ليلة (غاية النهاية فى طبقات القراء١ – ٤٣٩) ويغلق عليه بابه ويبكى حتى رمضت عيناه ، وشعاره « ابكوا ، فان لم تبكوا فتباكوا ، فوالذى نفسى بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته ، وصلى حتى ينكسر صلبه » . فقاموا ليلهم أرقا ، وتبادرت دموعهم فرقا ، حتى ضنيت منهم الأبدان وتغيرت منهم الألوان ، صحبوا القرآن بأبدان ناحلة ، وشفاه ذابلة ، ودموع وابلة ، وزفرات قاتلة . . . . فاضت عبراتهم من وعيده ، وشابت ذوائبه من تحذيره (لطائف الإشارات) (فما بعدها القسطلانى)

وقد لمس النبى (ص) فى القراء سعة ثقافتهم وأمانتهم ، وإخلاصهم للدين فاتخذ منهم دعاة للفكر الإسلامى ، وقوادا للتحرير ، ومن أمثلة الاعاة : : أبى بن كعب ، والمنذر بن عمرو الأنصارى ، وكان (القراء) أعلم الناس بالعقيد الجديدة ، والفكر الإسلامى الوليد . أما القواد من (القراء)فمنهم : مصعب بن عمير حامل لواء المهاجرين يوم بدر ، ولقد تأثر النبى (ص) يوم أحد لمصرعه ووقف يتلو » من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه « الأحزاب آية ٢٣ ومنهم معاذ بن جبل ، وسعد بن عبيد ، وعبادة بن الصامت ، ولقد بلغ من تكريم النبى (ص) لهم عند مصارعهم يوم أحد أن أمر بتقديم أكثرهم قرآنا (سيرة ابن هشام ٢ – ٩٨) ثم خاطبهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله « إن رسول الله يشهد أنكم الشهداء عند الله يوم القيامة » (الإتقان ١ – ٣٥) . وعلى أطراف أسنة رماح القراء كان النصر يوم حنين ، كما استهلت القراء فى معارك الردة وكانوا حملة اللواء فيها . ولما انكشف المسلمون قال واحد من =

تجردوا له ، وبذلوا أنفسهم فى سبيله وتلقوه من صاحب الرسالة حرفا حرفا ، لم يهملوا منه حركة ولاسكونا ولا إثباتا ولا حذفا ، ولا دخل عليهم فى شىء منه شك ولا وهم ، فقد ثبت أن الرسول (ص) كان يستمع إليهم وهم يقرءون عليه ، فعن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرأ على : ففتحت سورة النساء فلما بلغت « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » رأيت عينيه تذرفان من الدمع فقال : حسبك الآن [2] ومن خلال هذا النص نلمح توثيق النص القرآنى ، لأن النبى (ص) كان يستمع إلى قراءة أصحابه ؛ وهناك توثيق آخر ظهر فيما رواه عطاء بن يسار عن أبى سعيد عن النبى (ص) قال : لا تكتبوا عنى شيئا سوى القرآن فمن كتب عنى شيئا سوى القرآن فليمحه [3] »وذلك مبالغة منه فى شدة الحفاظ على النص القرآنى لذلك كان القرآن هو النص العربى الصحيح المتواتر المجمع على تلاوته بالطرق التى وصل إلينا بها فى الأداء والحركات والسكنات ، فلم يتوفر لنص ماتوفر للقرآن الكريم من تواتر رواياته ، وعناية العلماء بضبطها وتحريرها متنا وسندا ، [4] بل لم تعرف البشرية كتابا أحيط بالعناية واكتنف بالرعاية فحوفظ على تراكيبه وكلماته وحروفه وحركاته وكيفية ترتيله بلهجاته. مع إتقان متناه فى التلقى والتلقين ، ودقة بالغة فى الأخذ والأداء مثل الكتاب العزيز [5] .

= (القراء) بعد أن التقط الراية فى ثورة وغضب : ماهكذا كنا نفعل مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثم حفر لنفسه حفرة فى ساحة المعركة ومعه راحة المهاجرين وظل يضرب فى صمود وبأس حتى استشهد ، أما بقية القراء فقد انسحبوا من بين بقية المسلمين وألقوا كتيبو فدائية انتحارية وكان شعارها (يا أصحاب سورة البقرة) يقصدون القراء فصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وسحقوا الأعداء بسيوفهم المسلمة ، ولولا (القراء) لكان العار والمصير الرهيب فى انتظار المسلمين كما اشترك (القراء) أيضا فى الجيش العربى الإسلامى الذى فتح مصر ٢٠ هـ وكان سلوكهم الحربى : أن يقتلوا أو يقتلوا . انظر القرآن وعلومه فى مصر . الدكتور عبد الله البرى — فى مواطن متفرقة من الكتاب.

(١) النساء ٤١.

(٢) تاريخ القرآن للزنجانى ص ١٧ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٤ هـ.

(٣) المصاحف للسجستانى ٤ ط أولى المطبعة الرحمانية تحقيق أثر جفرى.

(٤) فى أصول النحو : سعيد الأفغانى ٢٥ ط الجامعة السورية ١٩٥٧ ط الثانية.

(٥) نظرة فى النحو . طه الراوى ، مجلة المجمع العلمى بدمشق مجلد ١٤ ج ٩ ، ١٠ سنة ١٣٥٥ هـ — ١٩٥١ م.

ولهذا كان القرآن الكريم مع قراءاته الواردة إلينا عن الصحابة[1] وقراء التابعين – وهم جميعا ممن يحتج بكلامهم العادى بل قراءاتهم التى تحروا ضبطها – و (ألم أعهد إليكم) والتميمى بهمز ، حجة فى اللغة لا سيما لهجات العرب الذين أبيح لهم أن يقرءوه على لهجاتهم المختلفة ، قال الإمام أبو محمد عبدالله بن قتيبة « وكان من تيسير الله أن أمر نبيه (ص) أن يقرىء كل قوم بلغتهم ، وماجرت عليه عاداتهم فالهزلى يقرأ (عتى حين) يريد (حتى حين) لأنه هكذا يلفظ بها ، والأسدى يقرأ – تِعلمون – و (تِعلم) (وتِسودّ وجوه) والقرشى لا يهمز ، والآخر يقول (وإذا قيل لهم) (وغيض الماء) بإشمام الضم الكسر ، و (بضاعتنا ردت إلينا) بإشمام الكسر مع الضم ، و (مالك لا تأمنا) بإشمام الضم مع الإدغام – وهذا ما لا يطوع به كل لسان[1] .

---

(١) اشتهر من الصحابة : عثمان وعلى وأبى زيد بن ثابت وابن مسعود وحذيفة . ومن التابعين بالمدينة : ابن المسيب وعروة وعطاء . وبمكة : عكرمة وابن أبى مليكة . وبالكوفة : علقمة والأسود ومسروق والربيع بن خيثم وزر بن حبيش . وبالبصرة : عامر بن عبد القيس وأبو العالية وقتادة . وبالشام : المغيرة المخزومى .

ثم تلت هؤلاء طبقة أخرى . وكان بالمدينة : أبو جعفر يزيد بن القعقاع ثم شيبة بن نصاح ثم نافع بن أبى نعيم وإليه صارت قراءة أهل المدينة . وكان بمكة : عبد الله بن كثير ومحمد بن محيصن . وكان بالكوفة : يحيى بن وثاب وسليمان الأعمش ثم الكسائى . وكان بالبصرة : عبد الله بن أبى إسحق وعيسى بن عمر وأبو عمر بن العلاء وإليه صارت قراءة أهل البصرة ، وكان بالشام : عبد الله بن عامر . واشتهر بالآفاق الأئمة السبعة وهم : نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائى وهؤلاء هم القراء السبعة الذين اختار قراءتهم ابن مجاهد (٣٢٤ هـ) آخر من انتهت إليه الرياسة بمدينة السلام (إبراز المعانى ٣ ، ٥) . وانظر حديثا مفصلا عن القراء وأنسابهم وأساتذتهم وتلاميذهم فى كتاب :

كتاب السبعة فى القراءات لابن مجاهد . تحقيق د – شوقى ضيف دار المعارف بمصر .

* التيسير فى القراءات السبع للدانى تحقيق (أوتوبرتزل) .
* إبراز المعانى من حرز الأمانى لأبى شامة .
* منجد المقرئين ومرشد الطالبين ابن الجزرى .
* لطائف الإشارات لفنون القراءات (شهاب الدين القسطلانى تحقيق – عبد الصبور شاهين والشيخ عامر عثمان .
* النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى .
* غاية النهايات فى طبقات القراء لابن الجزرى نشرة ج . برجشتراسر .
* سراج القارئ المبتدئ وتذكار المقرئ المنتهى – لأبى القاسم القاصح .
* اتحاف فضلاء البشر – الدمياطى .
* تاريخ القرآن – الزنجانى .

(١) مشكل القرآن لابن قتيبة ١ – ٢٢٢ ط الحلبى ، النشر ١ – ٢٢ .

والقرآن المعجز وإن نزل بلغة أدبية نموذجية ، إلا أنه أبيح فى قراءاته[1] أن يخرج على تلك اللغة النموذجية ـ تيسيرا على العرب ، وجمعا لكلمتهم ، وكما يسر الله على الناس فى الدين حين أجاز[2] لهم على لسان رسوله الكريم (ص) أن يأخذوا باختلاف العلماء من أصحابه رضى الله عنهم فى فرائضهم وأحكامهم وصلاتهم وزكاتهم وحجهم وطلاقهم وعتقهم وسائر أمورهم » يسر عليهم كذلك فى قراءات القرآن حيث تقرؤه كل قبيلة بلهجتها » قال ابن قتيبة « ولو أراد كل فريق من هؤلاء أن يزول عن لغته ، وما جرى عليه اعتياده طفلا وناشئا وكهلا ـ لاشتد ذلك عليه وعظمت المحنة فيه »[3] وذلك يتفق مع ما رواه ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن رسول الله (ص) قال : أقرأنى جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده ويزيدنى حتى انتهى إلى سبعة أحرف[4] » وهذا الحديث مشهور فى كتب القراءات والمصاحف والتفاسير كما ورد من طرق متعددة ، وبأوجه مختلفة ، ولكنها مع ذلك متفقة فى الفكرة[5] وهى أن الرسول (ص) أدرك أن الأمة العربية لا تستطيع أن تقرأ كتاب الله إذا نزل بلغة واحدة ، لأن لغة العرب لهجات مختلفة « فلو كلفوا العدول عن لغتهم والانتقال عن ألسنتهم لكان من التكليف بما لا يستطاع[6] »

ويدل حديث رسول الله (ص) على أن هذا التيسير والتوسعة فى قراءة القرآن

---

(١) الفرق بين القرآن وقراءاته أن القرآن » هو الوحى المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم للبيان والإعجاز ، والقراءات هى :
اختلاف ألفاظ الوحى المذكور فى كتبة الحروف أو كيفيتها من تخفيف وتثقيل غيرهما . البرهان فى علوم القرآن جـ١ ص ٣١٨ — وانظر إتحاف فضلاء البشر ص٥ ولطائف الإشارات ١ — ١٧١ ويقول ابن الجزرى فى منجد المقرئين ص ٣ (القراءات هى علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقلة) . وأما المقرئ فهو العالم بالقراءات أداء ورواها مشافهة فلو حفظ التيسير مثلا فليس له أن يقرئ بما فيه إن لم يشافهه من شوفه به مسلسلا ، لأن فى القراءات أشياء لا تحكم إلا بالسماع والمشافهة . منجد المقرئين ٣ . وانظر الفرق بين : المقرئ والقارئ والمنتهى وشروطهم وصفاتهم فى : منجد المقرئين الباب الأول .

(٢) القرطين لابن مطرف الكتانى ١ — ٢٢٣ ط أولى .

(٣) النشر ١ — ٢٣ .

(٤) فتح البارى بشرح البخارى ٩ — ١٩ لابن حجر ط البهية ١٣٤٨ هـ . وانظر النشر ١ — ١٩ لابن الجزرى .

(٥) انظر جامع البيان فى تفسير القرآن ١ — ١٠ ط أولى للطبرى . (٦) النشر ١ — ٢٢ .

على هذه الحروف إنما كان بعد الهجرة ، وبعد أن دخلت القبائل المختلفة الدين الجديد فكان من التيسير عليهم قراءته على هذه الحروف ، ومما يشهد على أن التيسير كان فى هذا الوقت أن جبريل لقى النبى (ص) وهو عند أضاة بنى غفار فقال « إن الله يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على حرف[1]

أما أوجه الاختلاف بين القراءات فقد بينها ابن قتيبة ت ٢٧٦ هـ ، وهى سبعة أوجه :

١ ـ فى الإعراب بما لا يزيل صورتها فى الخط ولا يغير معناها . نحو « هؤلاء بناتى هن أطهرُلكم » و « أطهرَ » و « هل يجازَى إلا الكفور » و « هل نجازى إلا الكفور » ، « ويأمرون الناس بالبُخْل » و « بالبَخَل » ، « فنظرة إلى ميسَرة » و « ميسُرة » .

٢ ـ الاختلاف فى إعراب الكلمة وحركات بنائِها بما يغير معناها ولا يزيلها عن صورتها نحو « ربَّنا باعِدْ بين أسفارنا و « ربُّنا باعَدَ » و « إذتلقُّوْنه » و « تلِقُونه » و « وادّكر بعد أُمّة » و « بعد أَمَة » .

٣ ـ الاختلاف فى حروف الكلمة دون إعرابها بما يغير معناها ولا يزيل صورتها نحو « « وانظر إلى العظام كيف ننشزها » و « نَنْشرها » حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم » و « فُرِّعَ » .

٤ ـ أن يكون الاختلاف فى الكلمة بما يغير صورتها ومعناها نحو « وطلع منضود » فى موضع « وطلح » .

٥ ـ أن يكون الاختلاف فى الكلمة بما يغير صورتها فى الكتاب ولا يغير معناها نحو « إن كانت إلا صيحة واحدة » و « زقية واحدة » و « كالعهن المنفوش » و « كالصوف » .

٦ ـ أن يكون الاختلاف بالتقديم والتأخير نحو « وجاءت سكرة الموت بالحق » « وجاءت سكرة الحق بالموت » .

٧ ـ أن يكون الاختلاف بالزيادة والنقصان نحو « وما عملت أيديهم » و « عملته أيديهم » « فإن الله هو الغنى الحميد » « فإن الله الغنى الحميد » بنقصان « هو » إن هذا أخى له تسع

---

(١) تفسير الطبرى ١ – ١٣ ط الأميرية فتح البارى ٩ – ٢٣ .

وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة أُنثى [1] .

ثم يقول ابن قتيبية « وكل هذه الحروف كلام الله تعالى نزل به الروح الأمين على رسول الله (ص) [2] ، واختلاف القراءات لا يخرج عن أمرين :

الأول : أن تختلف القراءتان فى اللفظ وتتفقا فى المعنى ، ومن هذا النوع ما يرجع إلى اختلاف اللغات كقراءة :

(مرفقًا [3]) بكسر الميم وفتح الفاء ، وبفتح الميم وكسر الفاء .

والحكمة فى إنزال هذا النوع فى القرآن تيسير تلاوته على ذوى اللغات المختلفة .

ومن هذا النوع مالا تختلف فيه اللغات ، وإنما هما وجهان ، أو هى وجوه تجرى فى فصيح الكلام .

(وَقَوْمُ نُوحٍ مِّن قَبْلُ [4]) .

قرىء بخفض ميم (وقوم) ونصبها .

وهذا النوع وارد على سنة العرب من صرف عنايتها إلى المعانى ، ونظرها إلى الألفاظ على أنها وسائل ، فلا ترى بأساً فى إيراد اللفظ على وجهين أو وجوه ما دام المعنى الذى يقصد بالخطاب مستقيما وفى هذا توسعة على القارىء ، بعدم قصره فى نطاق حرف واحد .

الثانى : أن تختلف القراءتان فى اللفظ والمعنى معاً مع صحة المعنيين كليهما ، فلا يكونان متناقضين ولا متعارضين ، بل يمكن اجتماعهما فى شىء واحد . نحو (فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا [5]) .

قرىء بحذف الألف بعد الزاى مع تشديد اللام والمعنى : أوقعهما فى الزلة أى الخطيئة . . وقرىء بإثبات الألف بعد الزاى مع تخفيف اللام والمعنى نحاهما وأبعدهما عن الجنة فالمعنيان متغايران — كما ترى — ولكنهما يجتمعان ، فإن إيقاعهما فى الزلة اقتضى تنحيتهما عن الجنة ، فهناك تلازم بين المعنيين .

---

(١) القرطبين . لابن مطرف الكنانى ١ — ٢٢١ طالخانجى ـ أنظر : النشر لابن الجزرى ١ — ٢٧ — ٢٨ ومقدمتين فى علوم القرآن ١٥ ٢٠ فما بعدها ؛ ٢٦٥ . وقارن رأى ابن قتيبة برأى ابن الجزرى والرازى والباقلانى فى : ٢٠ النشر ١ — ١٤ — مقدمتان فى علوم القرآن ٢٦٥ فما بعدها . لطائف الإشارات لفنون القراءات ٣٨ فما بعدها . والكلمات الحسان ٦٤ المطيعى مناهل العرفان للزرقانى ١٤٨ .

(٢) النشر ١ — ٢٨

(٣) آية ١٦ من سورة الكهف . (٤) آية ٤٦ من سورة الذاريات . (٥) آية ٣٦ من سورة البقرة .

وحكمة هذا النوع من الاختلاف أن تكون الاية بمنزلة آيتين وردتا لإفادة المعنيين جميعا . أما اختلاف القراءتين فى اللفظ والمعنى مع تضاد المعنيين ، وتضارب الهدفين ، فلا أثر له فى القرآن الكريم ومحال أن يكون فيه :

« وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً (١) » .

اختلاف القراءات وتنوعها وحكمة ذلك :

١ ـ التسهيل والتخفيف على الأمة كما قال الرسول (ص) لجبريل « إنى أرسلت إلى أمة أمية فيهم الرجل والمرأة والغلام والجارية والشيخ الفانى الذى لم يقرأ كتابا قط » ولو كلف هؤلاء بلغة واحدة لشق عليهم ذلك ، فاقتضى الدين أن تتنوع القراءات . وإلى ذلك أشار النبى (ص) حيث قال لأحد المختلفين « أحسنت » وفى الحديث الآخر « أصبت » ولثالث « هكذا أنزلت » فصوب قراء كلٍّ وقطع بأنها كذلك أنزلت من عند الله ، وكل قراءة بالنسبة إلى الأخرى حق وصواب .

٢ ـ بيان حكم مجمع عليه كقراءة سعد بن أبى وقاص « وله أخ أو أخت من أم » فهذه القراءة تبين أن المراد بالأخوة هنا هم الأخوة للأم . وفى القراءة المشهورة « وله أخ أو أخت » .

٣ ـ ومنها كذلك ترجيح حكم اختلف فيه كقراءة « أو تحرير رقبة مؤمنة » بزيادة مؤمنة ـ وذلك فى كفارة اليمين ففيها ترجيح لاشتراط الإيمان فيها كما ذهب إليه الشافعى ، ولم يشترطه أبو حنيفة .

٤ ـ ومنها الجمع بين حكمين مختلفين كقراءة « ولا تقربوا النساء حتى يطهرن » أو يطهرن . بالتشديد أو التخفيف فينبغى الجمع بينهما وهو أن الحائض لا يقربها زوجها حتى تطهر بانقطاع حيضها ، وتطهر بالاغتسال .

---

(١) آية ٨٢ من سورة النساء وانظر القرطين بن مطرف ١ ـ ٢٢٣ : أو القراءات للشيخ القاضى .

(٢) انظر النشر . لابن الجزرى ١ ـ ٥١ فما بعدها ، وكتب التفسير ، والإتقان للسيوطى فى قراءات القرآن .

٥ – ومنها اختلاف حكمين شرعيين كقراءة « فامسحوا برءُوسكم وأرجلكم » بالكسر أو الفتح ، فالخفض يقتضى فرض المسح ، والنصب يقتضى فرض الغسل وقد بين النبي (ص) ذلك فجعل المسح لمن يلبس الخفّ ، والغسل لغيره .

٦ – ومنها ما فى ذلك من نهاية البلاغة وكمال الإعجاز ، وغاية الاختصار وجمال الإيجاز . .

٧ – ومنها ما فى ذلك من عظيم البرهان وواضح الدلالة إذ هو مع كثرة هذا الاختلاف وتنوعه لم يتطرق إليه تضاد ولا تناقض بل كله يصدق بعضه بعضا على نمط واحد وأُسلوب واحد وما ذلك إلا آية بالغة ، وبرهان قاطع على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم .) .

٨ – ومنها أنها تكشف عن فروق المعانى ولمح دقائقها ورقائقها فى السياق القرآنى :

ومن ذلك قراءة علىٍّ عليه السلام ، وأبى رجاء وابن يعمر وثابت وغيرهم » قد شغفها حبا[1] » بالعين المهملة ، وقراءة الجماعة : بالغين المعجمة .فالأولى كما يرى ابن جنى[2] : أن حبه وصل إلى قلبها فكاد يحرقه لحدته . والثانية أنه فرق شغاف قلبها حتى وصل إليه . فالفرق كما ترى دقيق رقيق بينهما ، وإن كان المآل احد .

ولم يزل العلماء يستنبطون من كل حرف يقرأُ به القارئ – معنى لا يوجد فى قراءة آخر ذلك المعنى . يقول شهاب الدين القسطلانى » فالقراءات حجة الفقهاء فى الاستنباط ، وحجتهم فى الاهتداء إلى سواء الصراط[3] » .

وليست القراءة السبعية وحدها مصدرا من مصادر لهجات القبائل بل شاركتها القراءات العشرة وما فوقها والقراءات الشاذة كذلك يقول أبو حيان « والقراءات جاءت على لغة العرب قياسها[4] وشاذها » وذلك لأن لها سندا من صحة الرواية وموافقتها وجها من وجوه العربية ، ولهذا كان ابن جنى على حق عندما وثق الشاذ واحتج له وأنه « نازع بالثقة إلى قرائه ، محفوف بالرواية من أمامه وورائه[5] » ثم حاول

---

(١) سورة يوسف ٣٠
(٢) المحتسب ١ – ٣٣٩ ط المجلس الأعلى .
(٣) لطائف الإشارات : ١ – ١٧١ .
(٤) البحر المحيط ٨ – ٤٩٣ .
(٥) المحتسب فى شواذ القراءات ١ –٣ لابن جنى مخطوط بمكتبة تيمور ٣٧٩ تفسير.

ابن جنى مرة أخرى أن يقارن بين الشاذ وغيره بقوله « ولعله أوكثير منه مساو فى الفصاحة للمجتمع عليه ، نعم وربما كان فيه ما تلطف صنعته ، وتعنف بغيره فصاحته ، وتمطوه [1] قوى أسبابه ، وترسو به قدم إعرابه ... إلى أن يقول « لكن غرضنا منه أن نرى وجه قوة مايسمى الآن شاذا ،وأنه ضارب فى صحة الرواية بِجرانه آخذ من سمت العربية مهلة ميدانه [2] » وقد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة فى العربية إذا لم تخالف قياسا معروفا بل ولو خالفته يحتج بها فى مثل ذلك الحرف بعينه ، وما القراءات الشاذة فى نظرنا إلا صورة نابضة بالحياة لكثير من لهجات القبائل – ولكن هذه القبائل ، لم تنل نصيبا من المجد والجاه فحكموا بشذوذ قراءتهم التى هى صورة حية للهجاتهم ، وأرى أن القراءة وإن شذت – فهى أقوى من تراث النثر والشعر على السواء ، لأن القراء كانوا يسجلون نزر الخلاف وقليله ؛ وهم فى ذلك أضبط من رواة الشعر وغيرهم حين نقلوا إلينا إشارات لهجية وقع فيها التحريف تارة والتصحيف تارة أخرى ، يقول الفراء « والكتاب أعرب وأقوى فى الحجة من الشعر [3] » ، ولذا قامت حركة علمية على امتداد التاريخ بالتأليف فى القراءات الشاذة والدفاع عنها .

وليست القراءات المختلفة وحدها فى الميدان – وإنما تمدنا المصاحف القديمة [4] أيضا بمدد لاينقطع من سمات لهجات القبائل ، لأن اختلافها فى الرسم والإملاء يوضح اتساع العربية إبان نزول الوحى من جهة ؛ ومن جهة أخرى يشير إلى تعدد لهجات القبائل .

١ – فحلول التاء [5] المفتوحة محل المربوطة فى (رحمت) فى المواضع السبعة

---

(١) تمده .

(٢) المجلس فى شواذ القراءات ١ / ٣ لابن جنى مخطوط مكتبه تيمور ٣٧٩ تفسير .

(٣) معانى القرآن للفراء ١ – ١٤٠

(٤) ذكر السجستانى المصاحف التى تملكها الصحابة وهى: مصحف عمر وعلى وأبى بن كعب وابن مسعود وابن عباس وابن الزبير وعبد الله بن عمر وعائشة وحفصة وأم سلمة » كتاب المصاحف ٥٠ – ٨٨ كما ذكر مصاحف التابعين وهى : مصحف عبيد بن عمير الليثى ، وعطاء بن أبى رباح ، وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير والأسود بن يزيد النخعى ، وعلقمة بن قيس النخعى ومحمد بن أبى موسى وحطان الرقاش ، وصالح بن كيسان وطلحة بن مصرف الأيامى وسليمان بن مهران الأعمش (المصاحف ٨٨ – ٩١ .

(٥) وكانت قبائل طيء تقف على هاء التأنيث بالتاء وذلك يصور الاحتفاظ بالطور الأقدم لظاهرة التأنيث .

بالبقرة والأعراف وهود وأول مريم والروم والزخرف ، (ونعمت) فى أحد عشر موضعا من كتاب الله ، و « امرأت) فى سورة القصص والتحريم وآل عمران ، (وقرت) بالقصص و (فطرت) بالروم ، و (شجرت) فى سورة الدخان و (لعنت) بآل عمران والنور (وجنت نعيم) بالواقعة و (بنت عمران) بالتحريم (ومعصيت بالمجادلة و (كلمة ربك) بالأعراف[1] . يشير إلى أثر القرشية فى الإملاء القرآنى .

٢ ـ ومن ذلك أيضا قراءة الحسن « سأوريكم دار[2] الفاسقين » بواو ساكنة بعد الهمزة على ما يقتضيه رسم المصحف ، قد نسب أبو حيان قراءة الاشباع إلى قبائل الحجاز بل قال « وهى أيضا فى لغة أهل الأندلس كأنهم تلقفوها من لغة الحجاز ، وبقيت فى لسانهم إلى الآن[3] ولهذا الرسم الإملائى وجه ما ، إذ أنه موضع وعيد وإغلاظ ـ فمكن الصوت فيه .

ولقد كان إسرائيل ولفنسون على حق فى قوله « إن العربية يجب أن تبحث أحوالها فى ضوء القرآن أولا[4] » ، إذ القرآن هو الحقل الخصيب الذى ينطوى على تاريخ العربية وأصول منابعها وحسب القرآن بعد هذا معجزة أن جمع القبائل العربية الشتيتة على وحدة لغوية بعد أن صهرت لغة القرآن كل ما كان بينهم من خلافات ، وهضمت خلاياه النامية لهجاتهم المتنافرة حتى حولها إلى عصارة نافعة غذت العربية وأمدتها بروافد غنية ـ ثم بنى على هذه الوحدة اللغوية وحدة سياسية قومية شادها على وطائد كثر من : مبادئه السامية ومثله السمحة وقد اشرأبت حينذاك وتطاولت أعناق[5] كل قبيلة تيها وفخرا حين رأت أن لهجتها ممثلة فى كتاب العربية الخالد .

مبادىء وقضايا :

وقد استقرت عند المسلمين معالم وضوابط يعتمد عليها فى القراءة ومقاييس وضعتها الأئمة ميزانا يرجع إليه ، ومعيارا

---

(١) الإتحاف ١٠٣ ـ المقنع للدانى ٧٧ فما بعدها . (٢) الأعراف ١٤٥ .

(٣) البحر ٤ ـ ٣٨٩ . (٤) تاريخ اللغات السامية ٢٠٦ ط أولى .

(٥) انظر مقالنا فى حوليات كلية دار العلوم العدد الثانى ١٩٧١ م ص ١٨١ .

يعول إليه ، ليأمنوا الزلل والخطل ، وقد جمعتها من مصادر متعددة من علوم القرآن ، شملت : تفسيره ومعانيه ، وإعرابه وعزيبه ، ومشكله وقراءاته ، ثم وضعتها فى تقسيم منهجى يأخذ بعضه بحجز بعض .

وهى فى جملتها قضايا على جانب كبير من الأهمية لموضوعنا ، فهى بمثابة الجرح والتعديل لفن القراءات ، وضحت شروط القراءة الصحيحة والشاذة ، سبعية وعشريه وما فوقها ؛ كما وضعت لدودا للقراءات الضعيفة والمتكورة وكشفت المزيف والدخيل ؛ ثم أثارت قضايا هى لموضوعنا : لحمته وسداه كالفصاحة وقياس العربية ، ورسم المصحف ، وما استقر فى مصاحف الصحابة والتابعين ، ونظرية القراءة بالمعنى ، ومخالفة المصحف الإمام ، ومكان كل من الأستاذ والرواية والأثر فى القراءة ، ثم استنباط الإحكام الشرعية من القراءات وموقف النحاة وأقيستهم ، وصلة ذلك بكل نوع من أنواع القراءات .

أولا قراءة وافقت العربية ولوبوجه ، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولواحتمالا وصح سندها . فهى القراءة الصحيحة التى لا يجوز ردها ولا يحل إنكارها ، بل هى من الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن ووجب على الناس قبولها ، سواء أكانت عن الأئمة السبعة أم عن العشرة أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين .

ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة سواء أكانت عن السبعة أم عمن هو أكبر منهم . هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف [1] .

* أئمة القراء لا تعمل فى شىء من حروف القرآن على الأفشى فى اللغة والأقيس فى العربية ، بل على الأثبت فى الأثر والأصح فى النقل ، والرواية إذا ثبتت عنهم لم يردها قياس عربية ، ولا فشو لغة ، لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها [2] .

ثانيا - القراءات سنة متبعة ونقل محض فلا بد من إثباتها وصحتها ، ولا طريق

---

(١) النشر ١ - ٩ التجارية وانظر منجد المقرئين ١٥ . والكلمات الحسان ٤٧ .

(٢) أنظر كتاب السبعة فى القراءات ص ٥٠ لابن مجاهد ، وانظر منجد المقرئين ٦٥ - النشر ١ - ١٠

إلى ذلك إلا بالإسناد[*] فلهذا توقفت عليه معرفة هذا العلم[1] .

* ما وافق العربية والرسم ولم ينقل البتة فهذا رده أحق ، ومنعه أشد[2] .

* امتنعت القراءة بالقياس المطلق ، وهو الذى ليس له أصل فى القراءة يرجع إليه ولا ركن وثيق فى الأداء يعتمد عليه[3] .

* الاعتماد فى نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور لا على حفظ المصاحف والكتب[4] .

ثالثاً ـ لا نعلم أحداً من المسلمين حظَّر القراءة بالثلاث الزائدة على السبع وهى قراءة يعقوب وخلف وأبى جعفر ، فالعشر متواترة[5] .

* كل ما ورد أنه قرئ به جاز الاحتجاج به فى العربية سواء أكان متواترا أم آحادا أم شاذا ، وقد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة فى العربية إذا لم تخالف قياساً معروفاً ، بل ولو خالفته يحتج بها فى مثل ذلك الحرف بعينه ، وإن لم يجز القياس عليه[6] .

* من يزعم أن أئمة القراءة ينقلون حروف القرآن من غير تحقيق ولا بصيرة ولا توقيف فقد ظن ما هم منه مبرءون ، وعنه منزهون[7] .

رابعاً ـ ما وافق العربية وصح سنده وخالف الرسم فهذه القراءة تسمى اليوم شاذة لكونها شذت عن رسم المصحف

---

* علم الإسناد هو أعظم مدارات فن القراءات ، لأنها مسنة متبعة ونقل محصن فلابد من إثباتها وصحتها ولا طريق إلى ذلك إلا بالإسناد وهو : خصيصة فاضلة من خصائص هذه الأمة . وروى عن يحيى بن معين الإسناد العالى قربه إلى الله وإلى رسوله (صلى الله عليه وسلم) وقيل له فى مرض موته : ما تشتهى ؟ فقال : بيتا خاليا وإسنادا عاليا : لطائف الإشارات ص ١٧٣ . وإذا كانت صحة السند من أركان القراءة تعين أن يعرف حال رجال القراءات كما يعرف أحوال رجال الحديث . ولقد أوجدت المكتبة الإسلامية (لأول مرة) معاجم من نوع مختلف لضبط الأشخاص والرجال وتراجمهم وهو فن قائم بذاته يعرف بـ (الجرح والتعديل) لمعرفة الثقة والمزيف والدخيل والضعيف وبحث حال كل بحثا يتناول حياته : ذهنا وسلوكا ، هيئة وصلاحا ، عدالة وضبطا ليحددوا مكانه : قبولا أو رفضا . كما يحددوا النسبة بين الخبر ومصدره ، ومن السهل عليك أن تقرأ زاوية لقراءة من القراءات وأنت على مكتبك ناعم البال ، ولا تعرف المنهج الصارم والطريق الشاق والأساس النقدى النزيه فى سبيل هذا الإسناد .

(١) لطائف الاشارات لفنون القراءات ص ١٧٣ القسطلانى .

(٢) ١ – ١٧ النشر .

(٣) ١ – ١٧ النشر وانظر التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن ٨٩ ظاهر الجزائرى .

(٤) ١ – ٦ النشر .

(٥) منجد المقرئين ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٩ . لطائف الإشارات ٧٥ .

(٦) ص ١٥ الاقداح للسيوطى .

(٧) ٢ – ٢١٤ النشر .

لمجمع عليه . . . وإجماع المسلمين على أنه لا تجوز القراءة بالشاذ ، ولا يجوز أن يصلى خلف من يقرأ بها[1] .

* القراءة الشاذة هى ما وراء العشر ولا تجوز القراءة بها[2] مطلقاً وإن كان إسنادها صحيحاً ويجوز تعلمها وتدوينها وبيان وجهها من حيث اللغة والإعراب والمعنى ، واستنباط الأحكام الشرعية منها والاستدلال بها على وجه من وجوه العربية[3] .

* ما وافق المعنى والرسم أو أحدهما من غير نقل لا تسمى شاذة بل مكذوبة يكفر متعمدها[4] .

* القراءة الشاذة عن قراءة الحجة ، كفى بشذوذها عن قراءتهم دليلا على بعدها من الصواب[5] .

* قال أبو حيان فى البحر ٨٧/٤ حكى أبو عمر الزاهد فى كتاب اليواقيت أن أبا العباس أحمد بن يحيى كان لا يرى الترجيح بين القراءات السبع . وقال : إذا اختلف الإعراب فى القرآن عن السبعة لم أفضل إعراباً على إعراب فى القرآن . فإذا خرجت إلى كلام الناس فضلت الأقوى . قال أبو حيان : نعم السلف لنا أحمد بن يحيى كان عالماً بالنحو واللغة ومتديناً ثقة[6] .

خامساً ـ ما قرئ به فى السبعة لا يرد ولا يوصف بضعف ولا قلة .

---

(١) منجد المقرئين ص ١٦ ابن الجزرى ط الوطنية الاسلامية .

(٢) انظر التبيان ١١٩ .

(٣) وقد كان ابن شنبوذ (٣٢٨ هـ) يرى القراءة بالشاذ ، أى ما خالف الرسم . ما دامت الرواية صحيحة النقل ، فأمر الوزير بضربه سبع درر أو أكثر . . . وتوبه عن التلاوة بها غصبا ، وقيل إنه نفى من بغداد (طبقات القراء ٢ / ٥٤ فما بعدها) وكان يقرأ بقراءة ابن مسعود وأبى وأشهر من ألف فى القراءات الشاذة : قطرب ٢٠٦ هـ ، وثعلب ٢٩١ هـ ، والجستانى ٣١٦ هـ ، وابن خالويه ٣٧٠ هـ ، وابن جنى ٣٩٢ هـ كما ترى هذه القراءات مثبوتة فى كتب التفاسير كالكشاف للزمخشرى ، والبحر المحيط لأبى حيان ويمكن أن يحمل الشاذ على قلة من قرأ به فى الأمصار بالقياس إلى القراءات السبع وهذا المعنى ما عناه ابن جنى فى صدر كتابه (المحتسب) .

(٤) منجد المقرئين ١٧ لابن الجزرى ، وكان ابن مقسم العطار ت ٣٥٤ يرى أن كل ما صح له وجه فى العربية لحرف من حروف القرآن المدونة فى المصحف العثمانى تجوز قراءته بها فى الصلاة وغيرها فكان يقرأ بما لم ينقل عن القراء مستخرجا لها وجوها من اللغة ، وهذا المذهب يؤدى إلى قراءات مكذوبة وعقد له مجلس ووقف للضرب فتاب . طبقات القراء ٢ – ١٢٤ .

(٥) تفسير الطبرى ١٩٨/١١ تحقيق شاكر .

(٦) وانظر البحر ٢ – ٢٣١ ، ٢٦٥ ، ٥٠٦ ، ٣ – ٨٨ وانظر الاتقان ١ – ١٤٢ فما بعدها ط ٣ حجازى .

* وماجاء به المسلمون من القراءة مستفيضا فيهم ، فغير جائز الاعتراض بالشاذ من القول ـ على ما قد ثبتت حجته بالنقل المستفيض[1] .

* إذا اختلفت القراءات في الألفاظ واتفقت في المعاني ، فأعجبها إلى ما كان أظهر وأشهر[2] .

* ما اجتمعت عليه القرأة حجة ، وما انفرد به المنفرد عنها رأى . ولا يعترض بالرأى على الحجة[3] .

* يقول ابن خالويه[4] وبعد : فإني تدبرت قراءة الأئمة السبعة من أهل الأمصار الخمسة[5] المعروفين بصحة النقل ، وإتقان الحفظ ، المأمونين على تأدية الرواية واللفظ ، فرأيت كلاً منهم قد ذهب في إعراب ما انفرد به من حرفه مذهباً من مذاهب العربية لا يدفع ، وقصد من القياس وجهاً لا يمنع ، فوافق باللفظ والحكاية ، طريق النقل والرواية غير مؤثر للاختيار على واجب الاثار .

سادساً ـ أقوى القراءتين إعراباً ما عليه الجماعة[6] .

* يقول ابن هشام لم يوجد في القرآن العظيم حرف واحد إلا وله وجه صحيح في العربية[7] .

* الكتاب أعرب وأقوى في الحجة من الشعر[8]

* القراءة قد تأتي على القليل وعلى المرجوح في الاستعمال العربي .

سابعاً ـ إذا ثبتت القراءة لهجة عربية فلا ينبغي أن يخطأ بها القارئ أو يغلط[9]

* القرآن يأتي باللغتين المختلفتين[10] .

* توجيه تأويل القرآن إلى الأشهر من اللغات ـ أولى من توجيهه إلى الأنكر ـ ما وجد إلى ذلك سبيلا[11] .

* القراءات جاءت على لغة العرب قياسها وشاذها[12] .

---

(١) تفسير الطبري ٣/٢٦٤ ، ٦/٦٥ تحقيق شاكر .
(٢) تفسير الطبري ٧/٥٦٩
(٣) تفسير الطبري ٦ — ٤٤٢
(٤) الحجة في القراءات السبع ص ٣٧ بيروت
(٥) المدينة ومكة والبصرة والكوفة والشام .
(٦) المحتسب ٢ / ١١٥ ط المجلس الاعلى
(٧) نقلا عن المهدوى في شرح الهداية وانظر (شرح شذور الذهب لابن هشام ٤٢ تحقيق محى الدين) .
مصطفى محمد بدون تاريخ .
(٨) معاني القرآن للفراء ١ / ١٤
(٩) البحر ١ / ١٥٢ النهر الماد ١ / ١٥٢
(١٠) معاني القرآن للفراء ٣ / ٧٤
(١١) تفسير الطبري تحقيق شاكر ٥ / ٣٣٧
(١٢) البحر ٨ — ٤٩٣

* القرآن يختار له ولا يختار عليه[1] .

ثامناً ـ فأما القرآن فيختار له أفصح اللغات[2] .

* لغة القرآن أفصح اللغات[3] .

* لغة القرآن أفصح أساليب العربية على الإطلاق[4] .

* قال ابن خالويه فى شرح الفصيح « قد أجمع الناس جميعاً أن اللغة إذا وردت فى القرآن فهى أفصح مما فى غير القرآن لا خلاف فى ذلك[5] .

* كتاب الله جل ثناؤه نزل بأفصح لغات العرب ، وغير جائز توجيه شئ منه إلى الشاذ من لغاتها ، وله فى الأفصح الأشهر معنى مفهوم ووجه معروف[6] .

تاسعا ـ ينبغى أن تصحح قواعد العربية بالقراءة[7] لا أن تصحح القراءة بقواعد العربية .

* النحاة حكموا النحو الذى وضعوه فى القرآن . قال الإمام محمد عبده[8] .

كان يجب أن يكون القرآن مبدأ إصلاح فى اللغة العربية » .

القراءات لا تجيء على ما علمه البصريون ونقلوه ، بل القراء من الكوفيين يكادون يكونون مثل قراءة البصرة[9] .

* كم من قراءة أنكرها بعض أهل النحو ، أو كثير منهم ولم يعتبر إنكارهم بل أجمع الأئمة المقتدى بهم من السلف على قبولها[10] .

* لا يلزم من وجود وجه فى اللغة وجود قراءة به ؛ لأن القراءة توقيفية[11]

* القراءات تجرى على الرواية والأثر لا على مذهب القياس والنحو ؛ وبيان ذلك :

---

(١) المحتسب ١ / ٤١ ، ٥٣ ط المجلس .
(٢) المحتسب ١ / ٢٧٢ .
(٣) سر صناعة الإعراب ١ / ٣١٨
(٤) العربية يوهان فك ٤ ، ٥ .
(٥) المزهر ١ / ٢٥٧ ط ٣ الحلبى .
(٦) تفسير الطبرى ١٢ / ٣٢٢
(٧) الإنتصاف بهامش الكشاف ٢ / ٤٢ .
(٨) تفسير المنار ٢ / ٢٣٦ .
(٩) البحر ٢ / ٣٦٢ .
(١٠) ١ / ١٠ النشر .
(١١) أمالى ابن الحاجب ٧٣ / دار الكتب رقم ٢٦ مخطوطة .

مايتصل بالدرس النحوى :

(أ) فى شواذ القرآن لابن خالويه ص ٤ « ولا تكونوا أول كافر به واشتروا [١] » أجازة الفراء فى النصب . وهى فى المصحف « ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا » وما أجازه الفراء عند علماء النحو لم يقرأ به واحد فى السبعة ولا فى العشرة ولا الأربعة الذين بعد هؤلاء .

(ب) « فدعا ربه أن هؤلاء قوم » [٢] . يقول الفراء : تفتح أنَّ ـ ولو أضمرت القول فكرتها لكان صوابا [٣] . ولم يقرأ به واحد من السبعة أو العشرة أو الأربعة بعدها [٤] .

(ج) « وقيل يارب [٥] » خفضها عاصم والسلمى . . . . ونصبها أهل المدينة والحسن . . . . قال الفراء « ولو قال قائل : وقيله ـ رفعا كان جائزا [٦] » ولم يقرأ بها واحد من السبعة أو العشرة أو الأربعة بعدها [٧] . وإنما جاءت فى قراءة شاذة عن أبى قلابة وقتادة والحسن [٨] .

(د) « وقل سلام فسوف تعلمون [٩] » « رفع سلام » بضمير عليكم وما أشبهه ، ولو كان : وقل سلاما كان صوابا . ولم يقرأ بما رآه الفراء أحد من السبعة أو العشرة أو الأربعة بعدها فى هذا الموضع [١٠] .

فالقراءة جرت على الأثر والرواية ولم تجر على مايجيزه القياس ومذاهب العربية .

(هـ) « ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله [١١] » يقول أبو حيان : المحل هنا المكان ولم يقرأ إلا بكسر الحاء فيما علمنا ، ويجوز الفتح إذا كان يراد به المكان [١٢] .

---

(١) البقرة ٤١ .
(٢) الدخان ٢٢ .
(٣) معانى القرآن للفراء ٣ / ٤٠ .
(٤) إتحاف فضلاء البشر ٣٨٨ . وإنما قرأ بها عيسى بن عمر والحسن وابن أبى إسحق وهى قراءة شاذة . أنظر مختصر شواذ القرآن لا بن خالويه ١٣٧ .
(٥) الزخرف ٨٨ .
(٦) معانى القرآن للفراء ٣ / ٣٨ ، وانظر النشر ٢ / ٣٧٠ .
(٧) إتحاف فضلاء البشر ٣٨٧ .
(٨) مختصر ابن خالويه ١٣٦ .
(٩) الزخرف ٨٩ .
(١٠) النشر ج ٢ سورة الزخرف . الإتحاف الزخرف ـ كتاب السبعة لا بن مجاهد ٥٨٩ .
(١١) البقرة ١٩٦ .
(١٢) البحر المحيط ٢ / ٧٥ .

مايتصل بالدرس اللغوى :

أ (أ) « هذا لله بزعمهم »[1] .

واللغة تحكيها مثلثة الزاى ثلاث لغات ، ولم يقرأ بكسر الزاى أحد نعلمه[2]

وأجود ذلك ما اختارته القراء الذين يؤثر عنهم القراءة[3] وهو الوجوه اللغوية خارجة عن الرواية لذالم يعترف بها أىّ قارئ. و إن كانت اللغة ترضاها .

(ب) وفى قوله تعالى : « لمن أراد أن يتم الرضاعة[4]

واللغة تحكيها بفتح الرّاء وكسرها ، والقراء أجمعوا على الفتح[5] .

عاشراً نص كثير من العلماء على أن الحروف التى وردت عن أبىّ وابن مسعود وغيرهما مما يخالف هذه المصاحف . منسوخة وإن كان يصح الاحتجاج بها فى العربية ؛ لأنها مروية بالسند المتصل ، مع شذوذها لمخالفتها المصاحف العثمانية ، وأما من يقول إن بعض الصحابة كابن مسعود كان يجيز القراءة بالمعنى فقد كذب عليه إنما قال : « إنى قد سمعت إلى القرأة فوجدتهم متقاربين » فاقرءوا كما علّمتم نعم كانوا ربما يدخلون التفسير فى القراءة إيضاحا وبيانا ، لأنهم محققون لما تلقوه عن النبى (صلى الله عليه وسلم) قرآنا فهم آمنون من الالتباس ، وربما كان بعضهم يكتبه معه لكن ابن مسعود رضى الله عنه كان يكره ذلك ويمنع منه فروى مسروق عنه أنه كان يكره التفسير فى القرآن ، وروى غيره عنه : « جردوا القرآن ولا تلبسوا به ما ليس منه[6] ويؤخذ من هذا النص :

١ ـ أن ما يخالف المصحف الإمام بالزيادة والنقصان ـ إنما هو من التفسير والبيان ولايعتبر قرآنا كقراءة الحسن « وإن منكم إلا واردها » الورود الدخول » قال ابن الأنبارى : قوله الورود » الدخول » تفسير من الحسن لمعنى الورود ، وغلط فيه بعض الرواة فادخله

---

(١) الأنعام ١٣٦ .
(٢) وإنما قرئ بالفتح والضم .
(٣) معانى القرآن للفراء ١ ـ ٣٥٦ .
(٤) سورة البقرة ٢٣٣ .
(٥) معانى القرآن للفراء ١/١٤٩ .
(٦) النشر ٢ / ٣٢ وقارنه بما ورد فى تفسير الطبرى تحقيق محمود شاكر ١ / ٥١ .

فى القرآن[1] ومما يؤكد ذلك أن هذه الزيادات إنما هى من قبيل التفسير قراءة ابن عباس « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم » .

وهو صلى الله تعا عليه وسلم أب لهم بدون « وأزواجه أمهاتهم » ثم ذكر الشهاب الخفاجى أن « عمر رضى الله تعالى عنه مرّبغلام يقرأها فقال للغلام « حكّه من المصحف »[2] .

٢ـ أنه لا يجوز (قراءة القرآن بالمعنى) لأنها تكل تحديد النص القرآنى إلى هوى كل إنسان .

ونظرية القراءة بالمعنى يراها المستشرقون من نولدكه إلى رجيس بلاشير حيث أقحم الأخير على النص القرآنى بعض آيات إلى سورة النجم اعتمادا على

روايات لا سند لها رفضها النقد المنهجى سندا ومتنا مما يسمى عند علماء المسلمين بالجرح والتعديل ، وهو منهج معيارى صارم شامل فى نقد الأسانيد والمتون[3] .

* قرأ على بن أبى طالب وهو على المنبر « وطلْع منضور[4] » فقيل له : أفلا تغيرّه فى المصحف .

فال : ما ينبغى للقرآن أن يهاج أى (لا يغيرّ)[5] .

الحادى عشر ـ القراءة نقل ، ماوافق منها ظاهر الخط[6] كان أقوى ، وليس اتباع الخط بمجرده واجبا ما لم يعضده نقل ، فإن وافق فيها ونعمت ذلك نور على نور[7] وذلك كما فى سورة الحج

---

(١) الكواكب الدرية ٣٣ / ٣٤ الحداد ط ١٣٤٤ . وانظر أمثلة كثيرة فى مصاحف الصحابة والتابعين فى : (ط ليدن ١٩٣٧ . Materials For The Histary of The Test of The Our'ân)

(٢) تاريخ القرآن ١٦٠ د . عبد الصبور شاهين نقلا عن نسيم الرياض فى شرح شفاء القاضى عياض ١ ـ ٣٠٣ ط أولى .

(٣) وانظر مزيداً من البيان والتفصيل عن هذا الموضوع فى كتاب تاريخ القرآن ، د ـ عبد الصبور شاهين (٧٧ ـ ٩٧) . (٤) الواقعة ٢٩ . (٥) شواذ ابن خالويه ١٥١ .

(٦) وقد كتب برسم كان أدق ماوصل إليه فى هذا العهد ويسمى الرسم العثمانى نسبة إلى عثمان رضى الله عنه وأصبح هذا الرسم الذى قدره عثمان باجماع الصحابة سنة لاتخالف ؛ خوفا من العبث فيه والتبديل . وقد سئل مالك : هل يكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء ؟ فقال : لا . إلا على الكتبة الأولى (لطائف الإشارات ١ ـ ٢٩٧ (وقد فصل بعضهم بين كتابة ليكون أصلا يرجع إليه ، وبين كتابته للتعليم والرسم غير القراءة ، لأن القراءة مصدرها الرواية والرسم مصدره طريقة الكتابة والمسلمون ينطقون بالحرف كما روى لا كما رسم والعمدة فى نقل القرآن على حفظ الصدور لا على خط المصاحف والكتب وليس اتباع الخط وحده ملزما ما لم يؤيده نقل وأكثر رسم المصاحف موافق لقواعد العربية إلا أنه قد خرجت أشياء عنها يجب علينا اتباع مرسومها والوقوف عند رسومها . ا . هـ .

(٧) إبراز المعانى من حرز الأمانى لأبى شامة ٤٠٦ ط الحلبى رسم المصحف ٦٦ ، د ـ عبد الفتاح شلبى .

« آ ٢٣) يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير » .

فقرأ عاصم ونافع بالنصب هنا وفى فاطر فى قوله تعالى « يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤ » والباقون بالجر فيهما . ورسم بالألف فى الحج خاصة دون فاطر ، فلو اتبعوا الخط لقرأوا ما فى الحج بالألف ، وما فى الملائكة بالخفض ويقول أبو عبيد « لولا الكراهية لخلاف الناس لكان اتباع الخط أحبّ إلى فيكون فى هذا[1] بالنصب والآخر[2] بالخفض وأبو عبيدة لم يقرأ بهذا ، وآثر النقل والرواية على الخط والرسم .

* لا تأخذوا القرآن من مصحفىّ ولا العلم من صحفى[3] » ولذلك عدّ من تحريف وتصحيف .

أهل البدع :

(أ) ما عزى إلى حمزة الزيات من أعدائه « ذلك الكتاب لا زيت فيه[4] » ! وكان يتعلم القرآن من المصحف فقرأ ذلك وأبوه يسمع فقال أبوه : دع المصحف وتلقن من أفواه الرجال .

(ب) وأن عبد الله بن أحمد بن حنبل تقدم قوما يصلى بهم، « فقرأ :اقرأ باسم ربك الذى خلق » فقال له قائل أبوك ضرب بالسياط على أن يقول كلام الله مخلوق ،وقد جعلت خالق الأشياء مخلوقا[5]

(ج) كما قرأ آخر « وفرش مرفُوعةً » وآخر « وأخذ برأس أخيه يجزه إليه »

وجميع هذه وجوه مصحفة وكلها عبث وضلال ولا تعتبر قرآنا مع أن رسم المصحف يحتملها .

على أن هناك قراءات فى اللغة صحيحة ويحتملها الرسم ، ولكن لم يقرأ . ومن ذلك :-

(أ) قوله تعالى : « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث »[6] فقد أجمع القراء على ضم الميم من مكث. مع أن اللغة تجيز فيها تثليث الميم ورسمها يحتمل الأوجه الثلاثة[7] .

---

(١) سورة الحج .
(٢) سورة فاطر آ ٣٣
(٣) التصحيف والتحريف – ٨ للعسكرى ط ١٩٠٨
(٤) التصحيف والتحريف ٩ للعسكرى .
(٥) التنبيه على حدوث التصحيف ٣٠ لحمزة الأصفهانى من علماء القرن الرابع نسخة مخطوطة عن مصورة دار الكتب المصرية ٦٨١ هـ .
(٦) الإسراء ١٠٦
(٧) البحر ٦ / ٨٨

(ب) وفى قوله تعالى فى سورة البقرة[1] « وعلى أبصارهم غشاوة » وفى سورة الجاثية[2] « وجعل على بصره غشاوة » فرسم المصحف للكلمة بحذف الألف فى المكانين ومع ذلك اتفق القراء بقراءتها بكسر الغين وفتح الشين وإثبات ألف بعدها فى البقرة ، على حين اختلفوا فى الجاثية فبعضهم يقرأ بكسر الغين مع الألف بعد الشين وبعضهم بفتح الغين وسكون الشين ، ولو قرئ موضع البقرة بفتح الغين وسكون الشين لصح لغة ومعنى ، ولكن لم يقرأ أحد بهذه القراءة فى هذا الموضع .

فليس تجرد المصاحف من الشكل سببا فى تنوع القراءات واختلافها وإلا لوجدنا القراءة تقرأ على ما تجيزه اللغة من الحركات ، وإنما مرد هذا التنوع والاختلاف : الروايات الموثقة والأسانيد الثابتة الموصولة ، والنقل والتوقيف والتلقى والسماع لا الخط والرسم . [لاسيما إذا عرفنا أن القراءات تليت ورويت قبل كتابة المصاحف فهى أصل والرسم تابع لها ، وهذا يؤكد فساد مذهب بعض المستشرقين الذين يرون[3] أن الرسم أصل وإليه يرجع أكثر القراءات ؛ إذ كان غفلا من النقط ومن الحركات . يلاحظ أن النحويين السابقين كانوا من المقرئين ، وكانوا بهذه الصفة (القراء النحاة) رقباء على أداء القراءات ومن ذلك أن أبا الأسود ٦٩هـ وهو قارئ نحوى سمع رجلا يقرأ : « إن الله برئ من المشركين ورسوله » بالجر . فاستعظم أبو الأسود وقال : عزّ وجه الله أن يبرأ من رسوله[4] ! فالمدرستان كانتا فى اتجاه واحد يصعب الفصل بينهما ، وقد قامتا بعمل واحد فى إعراب النص

---

(١) آية ٧ . (٢) آية ٢٣ .

(٣) وانظر كتاب مذاهب التفسير الإسلامى د — النجار ص ٨ ، والمذاهب الإسلامية ٤ / د . على عبد القادر ، ورسم المصحف د — عبد الفتاح شلبى ، والقراءات للشيخ القاضى .

(٤) نزهة الألباء . ٨ — ٩ . يؤكد الصلة القوية بين النحاة الأول والقراء ما نراه فى كتب طبقات النحاة من مثل قولهم (كان حسن الإقراء ونهاية فى علم العربية) وقولهم (وكان إماما فى القراءات وعللها . . . وأما النحو فكان فيه بحرا لا يجارى) . وقولهم (كان مقدما فى صنعة الإعراب ضابطا للقراءات) . وقولهم (أقرأ القرآن والعربية) أنظر نزهة الألباء ، وبغية الوعاة فى أماكن مختلفة . وهذا يؤكد وحدة مدرسة النحو والقراءة .

القرآنى أيام أبى الأسود . ثم توجه نفر من رجال هذه المدرسة إلى دراسة النحو ليلائم بين القرآن والعربية فيتخذ منهما مصدر تقعيد ، ومناط إصلاح وتصحيح . ومن ذلك أن أبا عمرو بن العلاء سمع رجلا ينشد :

ومن يلق خيرا يحمد الناس أمره
ومن يغوَ لايعدم على الغى لائما

فقال : أقومك أم أتركك تتسكع فى طُمتك ؟ فقال : بل قومنى . فقال : قل : ومن يغو (بكسر الواو) ألا ترى إلى قول الله عز وجل : (فغوى) .

كما كانوا معا يردّون القراءات التى لم ترد عن الرسول وإن كانت جائزة فى العربية :

(أ) فالحجاج بن يوسف يقول ليحيى بن يعمر ت ١٢٩ هـ : أتجدنى ألحن ؟ فقال : الأمير أفصح من ذلك ، فقال : عزمت عليك لتخبرنى ! فقال يحيى : نعم ! فقال له : فى أى شىء ؟ فقال فى كتاب الله تعالى ، فقال : ذلك أشنع ، فنى أى شىء من كتاب الله تعالى ؟ قال ؛ قرأتَ : « : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم »[1] .

فرفعت أحب . وهو منصوب . . فقال الحجاج ليحيى : لا تساكنى ببلد أنا فيه ، ونفاه إلى خراسان[2] .

والرواية بالنصب ، والرفع مخالف لإجماع القراء ، وإن كان جائزا فى العربية[3] . ولم يستطع الحجاج أن يحاجّ يحيى بن يعمر بما تجيزه العربية ، على الرغم من بطشه ، وسلطانه .

(ب) وهذا أبو عمرو بن العلاء وقد كان له مذهب خاص فى النحو ومع ذلك كان فى القراءة لا يتعدى ما نقله عن أئمته وتلقاه عن شيوخه ، ولو خالف مذهبه فى العربية . فقد حدث أبو عمرو قائلا :

لولا أنه ليس لى أن أقرأ إلا بما قرئ لقرأت كذا وكذا من الحروف كذا

---

(١) التوبة ٢٤ .
(٢) نزهة الألباب : ترجمة يحيى بن يعمر .
(٣) أنظر البحر المحيط ٥ / ٢٢ .

وكذا . فقد أدغم أبو عمرو وحده الراء فى اللام من (يغفر لكم) وما شاكله فى القرآن . وهو ضعيف عند البصريين[1] . ولا نستطيع أن نفسر ذلك إلا أن أبا عمرو يلتزم فى القراءة النقل والرواية فقد خالف البصريين مع أنه بصرى ! ،

وأخيرا اشتد الجدل بين القراء والنحاة واندلعت نار العداوة والبغضاء ، وذلك بعد أن انفصلت مدرسة القراءة عن مدرسة النحو[2] ، فاتجه النحاة إلى القراءات ليأخذوا منها ما يؤيد وجهة نظرهم ، أو ليرفضو منها ما يتخالف مع أقيستهم ، فهم من هذا المنطق يؤيدون أو يعارضون ،

أولا – من ذلك أن الأصمعى سأل المازنى : ما تقول فى قول الله عز وجل « إنا كل شىء خلقناه بقدر »[3] فقال المازنى : يذهب سيبويه إلى أن الرفع فيه أقوى من النصب فى العربية لاشتغال الفعل بالضمير . وليس هناك شىء هو بالفعل أولى ، ولكن أبى القراء إلا النصب[4] ، والقراءة سنة متبعة .

ويقول ابن جنى فى المحتسب[5] (الرفع هنا أقوى من النصب) .

ثانيا – كما نرى عيسى بن عمر : وكان عالما بالنحو وله اختيار فى القراءة على مذاهب العربية يفارق قراءة العامة ويستنكره الناس[6] – يقرأ : « هؤلاء بناتى هن أطهرلكم » بنصب أطهر[7] وفى المحتسب[8] يقول أبوالفتح : ذكر : سيبويه هذه القراءة وضعفها

---

(١) الحجة لابن خالويه ٥٦ بيروت وانظر : إعراب ثلاثين سورة لابن خالويه١٢ وفيها يذكر أن سيبويه لا يجيز الإدغام ، والفراء يجيزه .

(٢) يقول السيوطى فى البغية ٢ / ٤٨٢ تحقيق أبى الفضل فى ترجمة ثابت بن محمد بن يوسف بن حيان الكلاعى « إنه لم يكن من أئمة النحويين ، بل كان من أئمة المقرئين » وانظر : ترجمة محمد بن عبد الله بن مالك صاحب الألفية ١ – ٤٨٢ فى المرجع السابق .

(٣) ٤٩ من سورة القمر .

(٤) لم يقرأها بالرفع إلا أبو السمال : المحتسب ٢/٣٠٠ ، وله اختيار فى القراءة ، شاذة عن العامة ، ولم يصحح ابن الجزرى سند قراءته . طبقات القراء ٢ / ٢٧

(٥) ٢ / ٣٠٠ ط المجلس الأعلى .

(٦) طبقات القراء ١ / ٦١٣ وكذلك كان يحيى اليزيدى ، فقد اشتهر بالنحو ، وله اختيار فى القراءة ، خالف فيه أبا عمرو .

(٧) طبقات القراء ١ / ٦١٣

(٨) ١ / ٣٢٥ ط المجلس الأعلى .

وقال فيها « احتبى ابن مروان فى لحنه » وكان محمد بن مروان المدنى القارئ قد قرأ بها . ويقول ابن جنى « وأنا من بعد أرى أن لهذه القراءة وجها صحيحا » .

ثالثا : كما يضعف سيبويه[1] النصب فى قوله تعالى : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون[2] » مع أن قراءة النصب قراءة ابن عامر ، وقراءة الكسائى فى بعض المواضع[3] . والقراءة سبعية متواترة قرأ بها ابن عامر ، وإمام الكوفيين الكسائى ويقول أبو حيان (فالقول بأنها لحن من أقبح الخطأ المؤثم الذى يجر قائله إلى الكفر[4]) .

وهذه لمحة من تعصب النحاة لفنهم وقواعدهم لأنهم كثيرا ما يصححون قراءة القرآن بما يوافق العربية وإن لم تثبته الرواية ، وقد شدد علماء القراءات النكير عليهم . ويظهر ذلك واضحا أولا – فى زمن متأخر عند أبى العباس المبرد حين قال : لو كنت ممن يقرأ لقرأت «ولكن البَرَّ» بفتح الباء يشير إلى قراءة : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب . . » بكسر الباء فيهما. فالمبرد يرجح قراءة الفتح ، « ومن أجل ذلك كان على المبرد أن يتحمل سخط أهل السنة عليه قرونا طويلة بعد وفاته ، إذ كانوا يرون فى القراءة المتلقاة بالقبول « ليس البِرَّ » بكسر الباء تحقيقا للإعجاز البلاغى فى كلام الله[5] » . وهو نفسه المبرد الذى يقول (لو صليت خلف إمام يقرأ : « ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى » بكسر الياء لأخذت نعلى ومضيت[6] » فانظر كيف يقاوم المبرد قراءة سبعية بخروجه عن جماعة المسلمين وإمامهم !

كما يتواصى النحاة على القدح فيها والنيل منها ، وهى قراءة أحد القراء السبعة وصحت سماعا وقياساً !

ثانيا : زمن متقدم ا – ومن ذلك أن ابن أبى عبلة[7] قرأ (اقتتلنا) وقرأ عبيد

---

(١) الكتاب ١ / ٤٢٣ .
(٢) يس ٨٢
(٣) النشر ٢ / ٢٢٠ ط التجارية.
(٤) البحر ١ / ٣٦٦
(٥) أنظر : مذاهب التفسير الإسلامى : اجنتس جولد تسيهر ٤٦ تحقيق د – على عبد القادر . وانظر تحقيق د – النجار ٦٦ فما بعدها.
(٦) تفسير القرطبى ٥ – ٣ الوانظر درة الغواص ٩٥ للحريرى .
(٧) انظر : تفسير الكشاف ، والبحر المحيط فى سورة الحجرات .

ابن عمير وزيد بن على (اقتتلا) وذلك في قوله تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما »[1]

فقد عاد ضمير جمع المذكر على مثنى مؤنث ، والقواعد النحوية تقتضى أن يقال (اقتتلتا) أو يقال (اقتتلا) فقد روعى فيها معنى (طائفتان) إذا أريد بالطائفة : الفريق

والقراءة السبعية أصح فى النقل وأثبت فى الرواية والسند إذ ركيزتها التلقين والتوقيف ، والتلقى والمشافهة ، وقد جرت على أفصح الأساليب ، وتوجيهها أن الطائفة الواحدة تجمع أفراد كثيرة ، فالطائفتان فى معنى الجماعة ، ولهذا أتى بواو الجمع فى (اقتتلوا) باعتبار معنى (طائفتان) ، وإذا كان القرآن الكريم قد راعى المعنى فقد راعى هنا اللفظ أيضا حيث أتى بألف التثنية فى قوله عز وجل (فأصلحوا بينهما) والسر الخفى فى مراعاة المعنى أولا واللفظ ثانيا أن الطائفتين فى حال القتال تكون طائفة مختلطة بالأخرى بحيث لايستطاع التمييز بينهما بخلاف حالهما فى الصلح بحيث تكون كل طائفة متميزة عن الأخرى ، ولهذا جمع ضميرهما فى حال القتال وثناه فى حال الصلح بينهما[2]

أما ما جاء عن ابن أبى عبلة وعبيد بن عمرو وزيد بن على فهى قراءة شاذة لم ترد لافى السبعة ولافى غيرها من القراءات الصحيحة الموثقة وإنما وردت فى مصاحف قديمة : لابن مسعود ، وأبى ومصحف عبيد بن عمرو[3] ، وابن أبى عبلة ، له حروف فى القراءات واختيار خالف فيه العامة وفى صحة إسنادها إليه[4] ، نظر فقراءته واهية ، كما أن القراءة الصحيحة المشهورة تقدم

---

(١) الحجرات ٩ .

(٢) انظر : القراءات فى نظر المستشرقين : ١٩٧ للشيخ القاضى ، المذاهب الإسلامية ٤٦ جولد تسيهر و نقله إلى العربية د – على عبد القادر .

(٣) انظر مصحف ابن مسعود وأبى بن كعب ومصحف عبيد بن عمير فى :
Materials For the History of the text of the Our'àn, JEFRY, Brill, 1937.

(٤) طبقات القراء : ١ / ١٩ وتوفى ابن أبى عبلة ١٥١ هـ أو ٥٢ أو ١٥٣ . وأخذ القراءة عن أم الدرداء الصغرى . وزيد بن على ت ٣٥٨ هـ . طبقات القراء ١ / ٢٩٨ . وعبيد بن عمير بن قتادة المكى ت ٧٤ هـ . طبقات القراء ١ / ٤٩٦ .

المقياس المصحح للاستعمال العربي لا العكس[1] . والقواعد النحوية يجب أن تخضع للقراءة لا العكس . وأخيرا فإن للقرآن طريقا فى النحو ينبغى أن يقاس عليه ، كما له لغته الخاصة به .

ولكن النحاة جعلوا من أنفسهم رقباء على اللغة وأهلها ، ولقد كانت لهم فى هذا صولات وجولات معروفة فى نقد الشعر والنثر على السواء فى العصرين الجاهلى والإسلامى[2] ، وبمرور الأيام قوى نفوذهم ، واشتدت وطأتهم ، فأصبحوا المشرعين والمقننين فى الحقل اللغوى وحدهم ، لايلوون على شىء ولايأبهون ، فرفض بعضهم الاستشهاد بالحديث النبوى ، لدعوى أن رواته قد دخل عليهم اللحن كما لحنوا العرب وغلطوهم فى لغتهم ، حتى جاءوا إلى قراءات القرآن الكريم فنالوا منها ومن أصحابها وأخضعوها لقواعدهم ، وقوانينهم ، لأنهم أصحاب معايير ومقاييس ، واستطاعوا بسلطانهم وسطوتهم أن يسيطروا على حقل الدراسات القرآنية فضيقوا وحجروا وأولوا ، واجترءوا وتطاولوا على القراءات السبعية ومافوقها

ب ـ أجاز الفراء فى النحو « ولاتكونوا أول كافربه واشتروا »[3] وهى فى المصحف « ولاتشتروا بآياتى ثمناقليلا »[4] ومأأجازه الفراء عند علماء النحو لم يقرأ به واحد فى السبعة ولا فى العشرة ولا الأربعة الذين بعد هؤلاء

جـ وأخيرا يأتى السيوطى ليؤكد موقف المتقدمين من النحاة بقوله « وكان قوم من النحاة المتقدمين يعيبون على عاصم وحمزة وابن عامر قراءات بعيدة فى العربية ، وينسبونهم إلى اللحن ، وهم مخطئون فى ذلك ، فإن قراءاتهم ثابتة بالأسانيد المتواترة الصحيحة التى لامطعن فيها ، وثبوت ذلك دليل على جوازه فى العربية »[5]

والحق أن كثيرا من هؤلاء النحاة قد تأثروا بمدارس علم الكلام ودعامتها : القياس والعقل ، ومدرسة القراءة ركيزتها الرواية والنقل ، فالقراء أعدل ، لأنهم

---

(١) مذاهب التفسير الإسلامى ٦٨ جولد تسيهر .
(٢) الموشح للمرزبانى فى مواطن متفرقة . ط السلفية .
(٣) شواذ القرآن لابن خالويه ٤ .
(٤) البقرة ٤١ .
(٥) اقتراح السيوطى ١٧ ط أولى .

لايعملون فى شيء من حروف القرآن على الأفشى فى اللغة ، والأقيس فى العربية بل على الأثبت فى الأثر ، والأصح فى النقل ، والرواية إذا ثبتت عنهم لم يردها قياس عربية ، ولا فشو لغة ، لأن القراءة سنة متبعة (١) . هذا :

ويجب أن نقرر (أولا) أن موقف النحاة من القراءات ورميهم كثيرا منها باللحن والغلط ، والضرورة والشذوذ والخطأ واتهامهم القراء بالوهم تارة ، والغفلة وعدم الدراية تارة والغفلة وعدم الدراية تارةً أخرى ، وإخضاعهم القراءات للمذاهب النحوية والأقيسة العقلية ، هو الذى جرأ المستشرقين على الطعن فى كثير من القراءات والنيل منها متسترين بلباس البحث العلمى حينا وبالحقد الدفين والسهام المسمومة أحيانا وهم فى هذا وذاك قد تنكبوا الطريق السوىّ وضلوا وأضلوا فى بعض ماكتبوا ومانقلوا .

وثانيا — أن هذه المعارك الحامية بين الفريقين أمدتنا بثراء فى النحو العربى فتعددت مسائله ، واختلفت الآراء حول كل جزئية منه : فتلاقت الآراء حينا واختلفت أحيانا ، كما رأينا من خلال ذلك ألوانا من التأليف جديدة تعتبر من أجل مصادر تراثنا المجيد ، وكلها تدور فى فلك القراءات والنحو — ناقدة ومعللة ، ومحتجة ومفاضلة ، وممحصة ومستشهدة ، وهى فى جميع هذا تكشف عن آراء كل فريق والوجه الذى آثره واختاره — نقلا وعقلا ، ورواية ،ودراية .

ومن هذه المؤلفات :

معانى القراءات لأبى زكريا الفراء والحجة فى علل القراءات السبع لأبى على الحسن الفارس والمحتسب فى تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها لأبى الفتح عثمان بن جنى والحجة فى القراءات السبع لابن خالويه ، والكشف عن وجوه القراءات لمكى القيس ، وإعراب الشواذ للعكبرى .

أحمد علم الدين الجندى

---

(١) العشر ١ — ١٠

(٢) مع اعترافنا بأن نفرا منهم لهم يد فى التراث العربى لا تنكر من حيث المنهج والتحقيق وعمق الدراسة .